النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع



الأستاذ الدكتور

السيد رشاد غنيم

رئيس قسم الاجتماع

كلية الآداب - جامعة بيروت العربية

دكتور

نادية السيد عمر

أستاذ علم الاجتماع المساعد

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دكتور

السيد محمد الرامخ

أستاذ علم الاجتماع المساعد

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية




مكتبة
طريق العلم

إهـــداء٢٠١٥
احمد شحاتة السيد عبد العليم
جمهورية مصر العربية

إهـــداء٢٠١٥
احمد شحاتة السيد عبد العليم
جمهورية مصر العربية

النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع

دكتور
السيد رشاد غنيم
أستاذ علم الاجتماع
بكلية الآداب ـ جامعتى الإسكندرية وبيروت العربية

د. السيد محمد الرامخ
أستاذ علم الاجتماع المساعد
كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

د. نادية محمد عمر
أستاذ علم الاجتماع المساعد
كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

٢٠٠٨ - ١٤٢٩

دار المعرفة الجامعية

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

الباب الأول
الاتجاهات الأساسية فى نظرية علم الاجتماع

الفصل الأول
الاتجاه البنائى الوظيفى

الفصل الثانى
الاتجاه الماركسى

الفصل الثالث
نظرية التبادل الاجتماعى

الباب الثانى
بدائل نظرية ومنهجية فى نظرية علم الاجتماع

الفصل الرابع
الاتجاه النقدى فى نظرية علم الاجتماع

الفصل الخامس
التفاعلية الرمزية

الفصل السادس
الاتجاه الاثنوميثودولوجى

الفصل السابع
الاتجاه الفينومينولوجى لعلم الاجتماع

مقدمــة

مما لا شك فيه، أن مهمة إعداد مؤلف فـى مجـال النظريـة السوسـيولوجية المعاصرة، تعتبر ليست بالبساطة التى يتصورها بعض الباحثين نظراً لمـا يتطلبـه ذلـك العمـل مـن الإلمـام الـواع والمتعمـق بكـل جوانـب تـراث النظريـة السوسيولوجية القديم منه والمعاصر. هذا إلى جانب ضرورة توفر تلـك القـدرة المتميزة لبعض الباحثين على إستيعاب عناصر التراث النظرى من خـلال نظـرة شمولية وتحليلية متعمقة، فضلاً عن، القـدرة علـى تصـنيف الاتجاهـات النظريـة المتباينة، ومحاولة المقارنة بينها ثم تحليلها فى إطار واحد متكامل.

وفى ضوء ذلك، فضلنا فى هذا العمل أن تتآذر جهـود ثلـه مـن المشـتغلين بعلم الاجتماع بهدف تقديم «عمل مشترك» يسهم فيه كل منهم بجهد يحرص مـن خلاله على أن يقدم للقـارئ العربـى «جانباً أو قطاعـاً» أو «قضـية» فـى النظريـة السوسيولوجية بوجه عام، يستشعر فيه قدرة متميزة على العطاء فى هـذا الجانـب دون غيره، ومن ثم يعد مثل هذا المدخل فى تصورنا طريقة أفضل لطـرح خـبرات ورؤى متنوعة ومتكاملة فى نفس الوقت لمحاور واتجاهات النظرية السوسـيولوجية المعاصرة. ومن ثم شرعنا فى إعداد هذا المؤلف الذى يجسد جهداً متواضعاً لمجموعة من أعضاء هيئة التدريس بقسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

وينقسم الكتاب الحالى إلى بـابين، جـاء البـاب الأول بعنـوان الاتجاهـات الأساسية فى نظرية علم الاجتماع ويشتمل على ثـلاث فصـول. حيـث عـرض الفصل الأول منـه للاتجـاه البنـائى الـوظيفى فـى علـم الاجتمـاع ومفهوماتـه وقضاياه، وبعض رواد هذا الفكر الوظيفى.

أما الفصل الثانى فقد عرض للماركسية الكلاسيكية والصراع الطبقـى وعلاقـة الوجـود بـالوعى الاجتمـاعى، ومحـددات الماركسية اللينيـة للطبقـات الاجتماعية وما وجه إليها من انتقـادات كـان أهمهـا ظهـور الطبقـة الوسـطى، وما طرأ من تغيرات على مجالات العمل وشكل الملكية أو الحيـازة. فضـلاً عـن، ظهور أشكال وميكانيزمات أخرى للإستغلال. علاوة على ذلك، لقد عرض هذا

الفصل لجوانب الاتفاق والاختلاف بين كلا الاتجاهين فى صورتهما الكلاسيكية (أى الوظيفية والماركسية) من حيث النظرية والمنهج، ومستويات أو أبعاد التحليل مما يكون له فائدة فى إثراء الجانب المعرفى.

ولقد عرض الفصل الثالث لنظرية التبادل الاجتماعى من حيث مصادرها وظروف نشأتها، والقضايا الأساسية التى تطرحها، وأنصارها التى عبرت عنهم إسهامات كل من جورج هومانز، وبيتر بلاو.

علاوة على ذلك، فقد جاء الباب الثانى بعنوان بدائل نظرية ومنهجية ظهرت فى إطار نظرية علم الاجتماع، وحاولت من جانبها أن تعالج النتائج التى ترتبت على الأزمة التى تعرضت لها نظرية علم الاجتماع متمثلة فى إتجاهاتها الأساسية التى سادت فى الخمسينات والستينات من القرن الماضى ومن ثم تناول الفصل الرابع الاتجاه النقدى فى نظرية علم الاجتماع والذى ظهر نتيجة لمجموعة من العوامل والظروف المتشابكة فيما بينها، وفى مجتمعات عديدة، وكان أكثر وضوحاً فى مرحلته المبكرة فى أعمال «سى رايت ميلز» و«الفن جولدنر». وعلى الرغم من تعدد وتباين المسميات التى أطلقت على هذا الاتجاهات الحديثة إلا أنها جميعاً تشترك فى التأكيد على النقد من جانب، ومحاولة تقديم واقع آخر بديلاً عما يوجه إليه النقد وذلك من جانب آخر.

ولقد عبرت جماعات اليسار الجديد عن أحد أشكال هذا الإتجاه النقدى فى تلك القضايا التى طرحتها للمناقشة، وسعت إلى تحقيقها من خلال إتباع أساليب تميزها عن غيرها من فئات وجماعات المجتمع آنذاك. كما عبرت الماركسية المحدثة من ناحية أخرى عن هذا التيار النقدى، وذلك كما جاء فى إسهامات بعض أنصار مدرسة فرانكفورت للبحث الاجتماعى وغيرهم من أنصار الرأسمالية المحدثة أمثال جرامشى، هابيرماس، ماكس هوركهايمر وجورج لوكاش. وذلك فى محاولة توجيه النقد للنظام الاقتصادى والسياسى السائد فى المجتمعات الصناعية المتقدمة فى إطار علاقتها بالمجتمعات النامية. علاوة على، نقدها للواقع الاجتماعى السائد فى هذه البلدان المتقدمة، ومحاولة تقديم بديل آخر له تعبر عنه الملكية الجماعية، والجماعات الأسرية الممتدة.

كما اهتم الفصل الخامس بتناول التفاعلية الرمزية باعتبارها إحدى المدارس الفكرية التى ظهرت داخل علم الاجتماع عامة، والأمريكى خاصة فى حقبة الستينات والسبعينات من القرن العشرين، وحاولت التركيز على دراسة التفاعل الاجتماعى كما يحدث فى الواقع من خلال منهج كيفى يقوم على الفهم والتفسير للأفعال الإنسانية ودوافعها، وما تنطوى عليه من معانى تبدو ظاهرة، وما تتعرض له أيضاً من تغير، وما يستخدم فيها من رموز تكون ذات معنى.

ولقد عبر عن هذه الأفكار إسهامات أنصار التفاعلية الرمزية فى مرحلة نشأتها منهم وليس جيمس فى مفهوم العادة، تشارلز هورتون كولى فى مناقشة مفهوم مرآة الذات، وجورج هربرت ميد وآخرين غيرهم. كما عرض هذا الفصل أيضاً لخصائصها فى مرحلة النشأة وقضاياها الأساسية، وكذلك الاتجاهات المعاصرة لها وذلك كما عبر عنها هربرت بلومر، ومانفورد كون، وجوفمان فى اسهامه الذى جاء بعنوان المدخل المسرحى، واعتبر فيه المسرح كنموذج لفهم الحياة الاجتماعية.

علاوة على ما سبق، فلقد تناول الفصل السادس الاتجاه الاثنوميثودولوجى من حيث تحديد المفهوم، وعوامل ظهور هذا الاتجاه، والقضايا الأساسية فى البحث السوسيولوجى، وموضوعات إهتمامه فى دراسة واقع الأنشطة التى تسود فى عالم الحياة اليومية. وانتهى هذا الفصل بتوضيح لطبيعة العلاقة بين الاتجاه الاثنوميثودولوجى والتفاعلية الرمزية وذلك على المستويين النظرى والمنهجى.

وأخيراً يعرض الفصل السابع للاتجاه الفينومينولوجى فى النظرية السوسيولوجية، وذلك من خلال تناول القضايا الرئيسية للمدخل الفينومينولوجى وتتبع علاقته بالعلوم الاجتماعية بصفة عامة مع التركيز على تناوله فى إطار نظرية علم الاجتماع بصفة خاصة، وذلك كما جاء فى عرض تحليل نقدى للحوار الذى دار بين الفينومينولوجيا وبعض التيارات النظرية كالفيبرية فى إهتمامها بالمعنى الذاتى للأفراد، والماركسية فى تركيزها على

الوعى الإنسانى وانعكاساته المختلفة، والتى تعتبر محور اهتمام الفينومينولوجيا الوجودية، مع توضيح لجوانب الاتفاق والاختلاف بين الفينومينولوجيا وهذه التيارات النظرية.

وعلى الرغم من العمل الجماعى الذى تم به إنجاز هذا الكتاب إلا أنه تم تقسيم العمل حيث أسهم الأستاذ الدكتور السيد رشاد غنيم بكتابة الفصل الأول، كما تولى الدكتور السيد محمد الرامخ مهمة إعداد الفصول من الثانى وحتى السادس، وقامت الدكتورة نادية محمد عمر بإعداد الفصل السابع.

وأخيراً بكل الحب والتقدير يترحم المشتركون فى هذا الكتاب على روح المرحوم الأستاذ الدكتور محمد على محمد طيب الله ثراه، فلقد كان بحق أحد المنظرين القلائل فى هذا المجال ممن كانت لهم مكانتهم العلمية المرموقة بين جيلهم إلى جانب شكر وعرفان بجميل الأستاذ والمعلم يقدماه كل من الدكتور السيد محمد الرامخ، والدكتورة نادية عمر حيث جاء إسهامها فى هذا الكتاب من ثمار غرسها أستاذهما المرحوم جزاه الله عنهما كل خير.

والله الموفق،

المؤلفون

الباب الأول
الاتجاهات الأساسية فى نظرية علم الاجتماع

الفصل الأول

الاتجاه البنائى الوظيفى

- مقدمـــــة

أولاً - الملامح العامة للاتجاه البنائى الوظيفى.

ثانياً - رواد الفكر الوظيفى فى النظرية السوسيولوجية.

١ - إيميل دوركايم: التضامن الآلى والتضامن العضوى.

٢ - فرديناند تونيز: المجتمع المحلى والمجتمع.

٣ - جورج سيمل: الاتجاه الشكلى فى نظرية علم الاجتماع.

٤ - ماكس فيبر: النموذج المثالى وتطبيقاته.

الفصل الأول
الاتجاه البنائى الوظيفى (*)

مقدمـــة:

يهدف هذا الفصل إلى إلقاء الضوء على الفكر البنائى الوظيفى فى نظرية علم الاجتماع من خلال عرض للملامح العامة لهذا الفكر. علاوة على، تناول أعمال وإسهامات بعض الرواد الأوائل منهم على سبيل المثال دون الحصر. إسهامات اميل دوركايم فى مقارنته الشهيرة بين نموذجين من المجتمع التقليدى والمجتمع الحديث وذلك انطلاقاً من فكرة التضامن الآلى والتضامن العضوى. علاوة على، تلك الثنائية التى طرحها جورج سميل أيضاً فى محاولة المقارنة بين الجماعات التى تتكون من إثنين من الأعضاء وأطلق عليها الجماعة الثنائية باعتبارها تمثل الجماعات الصغيرة فى مقابل الجماعات الكبيرة. حيث يمثل جورج سيمل أحد أنصار الاتجاه الصورى أو الشكلى فى علم الاجتماع، والذى اهتم بالتركيز على الشكل وما يترتب على تغيير الشكل أو الصورة من تغيير فى المضمون أيضاً.

علاوة على ذلك، يتناول الفصل أيضاً تلك الثنائية التى ظهرت فى أعمال تونيز فى محاولة المقارنة بين ما أطلق عليه بالمجتمع المحلى Community فى مقابل المجتمع الكبير بمعنى Society، وذلك من خلال تفرقته بين الإرادة الطبيعية التى تسود فى المجتمع المحلى، والإرادة العقلانية التى تسود فى المجتمع الأكبر، هذا بالإضافة إلى عرض تونيز لخصائص كل من الجماعة المحلية (المجتمع المحلى) والمجتمع والتغيرات التى طرأت عليهما وذلك من خلال تناول تطور المجتمع الإنسانى.

وأخيراً، يعرض هذا الفصل لإسهامات ماكس فيبر فى فكرته عن النموذج المثالى، وتصنيفه لأنماط السلطة فى المجتمع، وبخاصة تمييزه بين نمط السلطة فى المجتمع التقليدى كالمجتمع المحلى الريفى والذى تكون فيه السلطة تقليدية فى مقابل نمط السلطة العقلانية التى توجد فى المجتمع الحديث.

★ أعد هذا الفصل أ.د. السيد رشاد غنيم.

أولاً ـ الملامح العامة للاتجاه البنائى الوظيفى.

ترجع البدايات الأولى للاتجاه البنائى الوظيفى فى علم الاجتماع إلى أعمال كل من «تارد» فى فكرة التقليد والمحاكاة، وكذلك تتضح عند «إميل دوركايم» فى فكرتى التضامن الآلى والعضوى، وفى الشعور الجمعى. علاوة على، وضوح المذهب الوظيفى أيضاً عند «هربرت سبنسر» فى مماثلته الشهيرة بين المجتمع والكائن العضوى، والتى ركز فيها على المقارنة بينهما فى ضوء مفهومى البناء والوظيفة. كما يعبر عنه أيضاً «تالكوت بارسونز» والذى يعتبر من رواد الإتجاه البنائى الوظيفى، وكذلك «روبرت ميرتون».

كما يبدو هذا الاتجاه البنائى الوظيفى أكثر وضوحاً فى أعمال بعض علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية منهم على سبيل المثال دون الحصر، رادكليف براون، روث بندكت، مالينوفسكى. علاوة على ذلك، نجد أن لهذا الاتجاه البنائى الوظيفى أنصار فى علم النفس الاجتماعى، وخاصة عند أنصار مدرسة «الجشطلت» ويعبر عنهم «كيرت ليفين» و«روبرت بالز»، و«زاندر» ... الخ[(١)].

ومما هو جدير بالإشارة إليه، أنه يمكن تحديد الخصائص المميزة للاتجاه البنائى الوظيفى فيما يلى:

١ - النظر إلى المجتمع فى ضوء مفهومى البناء من ناحية، والوظيفة من ناحية أخرى. على اعتبار أن هذا البناء يتكون من عناصر أو أجزاء كل منها يكون له دور ويطلق على هذا البناء اسم النسق. ويكون لهذا النسق وظيفة عامة يؤديها. ومن هنا جاءت تسميته بالاتجاه البنائى الوظيفى أو اتجاه الأنساق.

٢ - وصف الحدود القائمة بين الأنساق الاجتماعية وغيرها من الأنساق الأخرى كالنسق الثقافى والنسق البيولوجى ونسق الشخصية. حيث أن كل منهما يقوم بأداء وظائفه مما يجعلها تتكامل.

---

(١) د. غريب سيد أحمد، المدخل إلى دراسة الجماعات الاجتماعية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣، ص ص ١٨٤ - ١٨٥.

٣ - التصور أو الوصف المجرد للوحدات البنائية الكبرى فى النسق الاجتماعى باعتبارها تكون باستمرار فى حالة توازن، وإذا ما تعرض هذا التوازن للتغير سرعان ما تتساند تلك الوحدات أو الأجزاء التى يتكون منها النسق من أجل إعادته إلى حالة التوازن التى كان عليها من قبل.

٤ - الاهتمام بشروط النسق وتكامله وفاعليته باعتباره نسقاً مجرداً.

٥ - أن لهذا النسق أربعة ملزمات وظيفية هى: تكيف النسق مع غيره من الأنساق الأخرى، وتكيف النسق مع البيئة المحيطة، ثم بلوغ النسق أهدافه، وأخيراً المحافظة على ثبات النسق وتكامله[١].

ثانياً ـ رواد الفكر الوظيفى فى النظرية السوسيولوجية.

١ ـ ايميل دوركايم: التضامن الآلى والتضامن العضوى.

حاول دوركايم التمييز بين المجتمع التقليدى والمجتمع الحديث بناء على تمييزه بين التضامن الآلى والتضامن العضوى، وقام «تونيز» **Tonnies** بالتمييز بينهما من خلال ما أطلق عليه بالألمانية **Gemeinchaft** والـ **Geselschaft**. بينما ذهب «سيمل» إلى التمييز بينهما من خلال تمييزه بين الجماعات الصغيرة والجماعات الكبيرة. فى حين اتخذ «فيبر» **Weber** موقفاً متميزاً بينهما من خلال ما أسماه بالنماذج المثالية.

فيرى ذلك المنظر الاجتماعى الفرنسى - اميل دوركايم - الذى لا يعد نادراً فى تحليله لتطور أبنية الجماعات الأولية فقط، بل فى اتجاهه ناحية هذا

(١) - د. محمد عاطف غيث (محرر)، قاموس علم الاجتماع، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩، ص ١٩٧.
ولمزيد من التفاصيل حول تمييز بارسونز بين الأنساق الفرعية الأربعة التى يتكون منها المجتمع وهى الاقتصاد والسياسة والتنشئة الاجتماعية (النسق الاجتماعى) ثم نسق الروابط المجتمعية، أنظر:
- جى روشيه، علم الاجتماع الأمريكى، دراسة لأعمال تالكوت بارسونز، ترجمة وتعليق د. محمد الجوهرى.
- د. أحمد زايد، ط ١، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١، ص ص ١٩٨ - ١٠٩.

التطور. يختلف مع كل منظرى عصره، حيث حاول التحقق من ظهور المجتمع الحضرى. وينعكس ذلك فيما استخدمه من مصطلحات للتمييز بين ما أطلق عليه بالمجتمع التقليدى والمجتمع المعاصر، وذلك من خلال استخدامه لمصطلحى التضامن الآلى Mechanical Solidarity؛ والتضامن العضوى Organic Solidarity، إلا أنه يجب أن نضع فى اعتبارنا أن فى الوقت الذى يكون فيه المجتمع التقليدى عند دوركايم آلياً، يكون عند تونيز عضوياً، وحينما يكون المجتمع المعاصر عند دوركايم عضوياً يكون عند تونيز ميكانيكياً"[1].

وتمثل قضية النظام الاجتماعى Social Order قضية جوهرية فى فكر دوركايم إذ يكشف لنا تحليل الوثائق الأساسية عنده على وجود مجالين أساسيين واجه فيهما قضية النظام الاجتماعى هما طبيعة النظام الاجتماعى فى مجتمع التضامن الآلى، وطبيعته فى مجتمع التضامن العضوى. فالنظام الاجتماعي يشتمل على معنيين(*)، ولهما نظام الطبيعة Social Nature ويتكون من مجموعة الظواهر التى يخضع السلوك فى إطارها لنوع من الاطراد، ويمن تجريدها لتتخذ شكل المبادئ أو القوانين، وتعبر عن ظواهر مثل النضال من أجل البقاء أو حرب الكل ضد الكل. أما المعنى الثانى فيتحدد بأن النظام لا يتضمن اطرادات الأحداث فقط ولكنه يحتوى أيضاً على ضبط السلوك بالمثل التى تضفى عليه معناه"[2]. أى أننا نستطيع أن نميز بين مستويين فى مدخل دوركايم عن التضامن، الأول وصفى وخاص بالوجود أو الوجودية، والثانى تفسيرى. ففى الجانب الأول ينظر دوركايم إلى التضامن على أنه حقيقة، وعلى أنه

---

(1) Dexter C. Dunphy, Primary Group, A.C.C., N. Y., 1972, P. 9.

★ من هذين المعنيين خلص دوركايم إلى نتيجتين هامتين هما:
أولاً – أنه لا يقصر حالة الفوضى باعتبارها الحالة السابقة على نشأة النظام الاجتماعى والتى دخل فيها الأفراد فى حرب الكل ضد الكل. وإنما نجده يوسع تلك الحالة لكى تعنى إمكان وجودها فى شكل انهيار بناء المجتمع الحديث حينما تسود حالة الأنومى.
ثانياً – تتمثل فى أسبقية وجود النسق الاجتماعى على الفرد.

(٢) د. على ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة: دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٤٨.

التماسك والحالة الموضوعية لاسلوب حياة الناس، أما فى الجانب الآخر فإن الاهتمام الرئيسى لدوركايم يتمثل فى أن التضامن الاجتماعى يمكن تحليله كمتغير مستقل Independent Variable ورئيسي، ولكنه على الرغم من ذلك يكون ذا وضع محدد أو مظهر للمجتمع[1].

ولذلك ميز دوركايم بين نوعين من المجتمعات فى تفسيره عن التحول من التضامن الآلى إلى التضامن العضوى كأساس للضبط الاجتماعى فى المجتمع. فيتميز مجتمع التضامن الآلى بالتجانس والثبات النسبى - أى الاختلافات البسيطة بين أفراده إذا كان من الممكن حدوثها - فالأفراد عبارة عن أعضاء متشابهين جميعاً الواحد مع الآخر لإحساسهم جميعاً بانفعال وعاطفة واحدة مما يفرز نفس القيم المشتركة ويضبط الأشياء المقدسة. وهكذا فإن المجتمع مترابطاً ومتماسكاً لأنه لا يوجد اختلاف بين أفراده، كما يحتل «الضمير الجمعى» مكانة بارزة في هذا المجتمع[2].

إلا أن قوة هذا «الشعور الجمعى» تتطابق ونوع المجتمع، ففى النوع الأول - مجتمع التضامن الآلى - ليس الشعور الجمعى فقط هو الذى يتضمن الجزء الأكبر من الوجود فى حياة الأفراد، ولكن تلعب العواطف التجريبية العامة أو المشتركة دوراً أساسياً يظهر فى شدة العقاب الرادع ضد هؤلاء الذين ينتهكون المحرمات. أى أن كل المذاهب الدينية تكون مميزة عن طريق وسائل الضبط الحازمة[3]. ولا يمثل الدين فى تلك المجتمعات نسقاً من الأفكار فقط، ولكنه نسق من القوى. فالإنسان الذى يعيش وفقاً للدين ليس هو فقط الفرد الذى يتخيل العالم بطريقة معينة، والذى يعرف ما لم يعرفه الآخرون، بل هو بالإضافة إلى ذلك يشعر داخل نفسه أنه قوة، حيث أن الحياة الدينية تتضمن العديد من القوى الخاصة؛ بمعنى آخر أن الإنسان حينما يعيش فى حياة دينية فهو

(1) Zevedei Barhu, Society, Culture and Personality, Basil Blackwell, Oxford, 1971, PP. 45 - 46.

(2) Reymond Aron, Main Currents in Sociological Though, N. Y., London, 1967, P. 21.

(3) Ibid., PP. 24 - 25.

يعتقد ويشارك فى القوة التى تسيطر عليه[*]، والتى - فى نفس الوقت - تدعمه وترفعه فوق ذاته[1].

وفى الجانب الآخر يعتقد «دوركايم» أن القانون التاريخى يجعل التضامن الآلى الذى كان يقف بمفرده فى بادئ الأمر تقريباً، يفقد أرضيته تدريجياً - حيث أصبح الشعور الجمعى هامشاً وأخذ يحل محله الإلزام الاجتماعى[2] - ويصبح التضامن العضوى المتناسق الأجزاء، بالتدرج، هو النمط السائد، إلا أنه عندما يتغير طراز التضامن لا يستطيع بناء المجتمع إلا أن يتغير، مثال ذلك أن شكل الجسم يتغير بالضرورة عندما تتغير العلاقات النواتية. وتبعاً لذلك تختلف خصائص المجتمعات المعاصرة أو الحضرية عن المجتمعات التقليدية الريفية[3].

ومن ثم يقوم هذا المجتمع على مبادئ مختلفة تماماً عن النوع الأول من المجتمعات فلم يعد الأفراد فى هذا النوع من المجتمع يتجمعون طبقاً لعلاقاتهم

★ أما عن صلة التضامن الاجتماعى التى يتفق معها القانون القمعى هى تلك التى يشكل خرقها جريمة، نحن نعطى هذا الاسم لكل عمل يستدعى ضد صانعه بأى درجة من الدرجات رد الفعل المميز، وهو الذى نسميه «عقاب»، ولكى نبحث عن طبيعة هذه الصلة فلابد من البحث عن سبب العقاب. فالعقاب أولاً وقبل كل شئ رد فعل عاطفى، وتظهر هذه الخاصية بنوع خاص فى المجتمعات الأقل تطوراً فالمجتمعات البدائية تعاقب من أجل العقاب، تجعل المذنب يعانى فقط من أجل المعاناة ودون أن يبحثوا عن أى فائدة لأنفسهم من المعاناة التى فرضوها، والدليل على ذلك أنهم لا يعملون على الردع بعدالة، ولا الردع بفائدة، ولكن فقط الردع من أجل «الانتقام»، ولذلك يعاقبون الحيوانات التى ترتكب خطأ وحتى الأشياء التى لا حياة فيها والتى كانت أداته السلبية. فعندما يطبق العقاب على المذنبين، فإنه يمتد أبعد من الطرف المذنب ليصل إلى الأبرياء ... زوجته وأطفاله وجيرانه ... الخ. لأن الغضب وهو روح العقاب لا يتوقف إلا عندما يستهلك ولذلك إذا ظل قوياً بعد أن يحطم ذلك الذى استدعاه فإنه يمتد ويتسع بطريقة آلية.
Anthony Giddens, Emile Durkheim: Selected Writings, Cambridge University Press, Cambridge, 1972, PP. 123 - 124.

(1) W.S.F. Dickering, Emile Durkheim: Durkheim on Religion, Routledge & Kegan Paul, London, 1975, PP. 182 - 183.

(2) Raymond Aron, Main Currents in Sociology Though, Op. Cit., P. 25.

(3) Anthony Giddens, Emile Durkheim, Op. Cit., P. 141.

فى نظام الصفوف، ولكن طبقاً للطبيعة الخاصة لنشاطهم الاقتصادى، كما أن مكانتهم الطبيعية والضرورية لم تعد تعطى عن طريق المولد ولكن عن طريق العمل. ولم تعد رابطة الدم الحقيقية أو الزائفة هى التى تميز مكانة كل واحد منهم ولكن الوظيفة التى يشغلها، والتى كان من شأنها أن انقسمت المجتمعات إلى طبقات، أو على الأقل مجموعة الطبقات المتحدة[1].

مما سبق، يتضح أن هذا النوع من المجتمعات يقوم بناء على اتفاق جماعى فى الرأى، أو نتيجة الوحدة المترابطة جماعياً فى شكل خاص من التباين، حيث لا يوجد تشابه كبير بين أعضائه، ولكن اختلاف فى الرأى والإحساس. لماذا يعتبر دوركايم التضامن العضوى يعتمد على شكل التمايز أو التباين بين الأفراد؟ - ربما يرجع دوركايم السبب فى ذلك أن أجزاء من نظام الحياة ليست متشابهة الواحدة مع الأخرى، هذا إلى جانب أن لكل كائن بشرى وظيفته الخاصة التى يتقنها بدقة[2]. أى أن هذا النوع يتميز باختفاء التشابه العقلى والأخلاقى نتيجة لازدياد الفردية، وضعف الضمير الجمعى، وإحلال القانون المدنى ونمو التخصص وتقسيم العمل[3]. فلقد أكد دوركايم فى دراسته عن «تقسيم العمل» (١٨٣٣) على تزايد الاختلافات فى الأدوار الاجتماعية، وتمايز الوظائف التى يؤديها الأفراد طبقاً لطبيعة المجتمعات المعاصرة التى يتميز أفرادها بالحرية والعقلانية.

وعلى الرغم من ذلك فلقد أكد دوركايم فى دراسته عن «الانتحار»[4]. (١٨٩٤) على أهمية علاقات الجماعات الأولية فى المحافظة على ثبات واستقرار شخصية الإنسان، حيث كشفت تحليلاته المختلفة أن من أهم أسباب حدوث ظاهرة الانتحار هو تفكك علاقات الجماعة الأولية التى تمد الفرد بالقيم والرموز التى تفوق نشاطه، كما أدرك كل من «دوركايم» و«بارك Park» ظهور

(1) Ibid., PP. 142 - 143.

(2) Maurice R. Stein, The Eclipse of Community, Princeton University Press, New Jersey, 1960, PP. 17 - 18.

(٣) د. غريب سيد أحمد، تاريخ الفكر الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص ص ٣٨ - ٢٣٩.

(4) See: Emile Durkheim, Suicide: A Study in Sociology, Trans. By: George Simpson, Free Press, 1951.

الفردية إلى حيز الوجود نتيجة للتغير السريع فى المعايير والقيم تلك التى أطلق عليها دوركايم الأنومى Anomie، فى الوقت الذى حددها بارك بالفردية Individualization ولذلك يظهر التنظيم الفردى نتيجة للصراع حول فرص الحياة بين الثقافات الفرعية Sub-cultures المختلفة.

وفى النهاية يؤكد دوركايم من خلال تفسيراته المختلفة أن الآلية Mechanism أو التضامن الآلى يلعب دوراً رئيسياً بل وإيجابياً فى المجتمع المعقد، حيث تعمل الجماعات المهنية على تطوير نظام أو دستور أخلاقى من خلال سلوك أعضائها الذى يتحدد فى ضوء اهتمامات المجتمع ككل، وبنفس الطريقة فإن الجماعات المهنية الفرعية تكون ذات ضرورة وأهمية قصوى لعملية التكامل داخل التضامن العضوى. ولقد طابق كل من «دوركايم» و«بارك» بين عدد من الأنواع الأخرى للجماعات الفرعية التى يعتر سلوكها قوة تنظم وتنجز بل وتتمم هذا التنظيم[١].

٢ - فرديناند تونيز: المجتمع المحلى والمجتمع.

بينما تمثل نقطة الانطلاق الرئيسية فى فكر تونيز Toennies تميزه بين مصطلحيه الألمانيين اللذين وضعهما Gemeinchaft وGeselschaft واللذين ترجما أحياناً إلى الإنجليزية بمصطلحى Community and Society وأحياناً أخرى Community and Association. ولكن يبدو أن الترجمة الحقيقية أو الفعلية لهذين المصطلحين ليست ذات أهمية كبرى، ولكن المهم هو أن هذين المصطلحين كانا بمثابة اهتماماته الأولية للتمييز بين المجتمعات المحلية الريفية والحضرية[٢].

ويرى لوميس Lommis المترجم لكتب تونيز أن حجر الزاوية فى نسقه الفكرى للتمييز بين المجتمع المحلى والمجتمع كنماذج مثالية تعتمد أساساً على تفرقته بين الإرادة الطبيعية Natural Will والإرادة العقلانية Rational Will، فإن مثل هذه الإرادة الطبيعية والعقلانية تكونان بمثابة جوهر فهم هذين النموذجين المثاليين[٣].

---

(1) Mourice R. Stein, The Eclipse of Community, Op. Cit., P. 20.

(2) Ferdinand Tennies, Community and Society, Trans. By: Charles P. Lomms, Harper & Row, N. Y., 1963.

(3) Beter Mann, An Approach to Urban Sociology, Op. Cit., PP. 190 - 191.

لذلك وجد تونيز أن المدخل الصحيح لدراسة الحياة الاجتماعية هو المدخل السيكولوجى، ولذا أقام تمييزه بين نوعى الحياة الاجتماعية بأسلوبه الجدلى على المستوى السيكولوجى أولاً ثم نقله إلى المستوى الاجتماعى وذلك لأن الفعل الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية تصدر بالضرورة عن الإرادة ومن ثم كانت الإرادة هى الركيزة الأساسية التى يرتكز عليها كل تفكيره الاجتماعى. حيث عرف الإرادة على أنها كل شامل معقد أو وحدة كلية متأصلة تقيم مختلف المشاعر والغرائز والرغبات، فكل فعل يحتوى على إرادة عضوية أو طبيعية، وذلك على العكس من الإرادة العقلانية التى يرى تونيز أنها منفصلة تماماً عن النشاط بمعنى أنها تسبق الفعل وتكون خارجه عنه[1]. فتعبر الإرادة الأولى عن نمو الفرد وتطوره بما يتضمنه من فكر وهذه الإرادة تتخذ مظاهر ثلاثة هى:

١ - جلب اللذة وأبعاد الألم.
٢ - تكوين العادات النافعة.
٣ - تنمية الذاكرة[2].

أما الإرادة الثانية فتتمثل فى الفكر الخالص وتهدف إلى سعادة الفرد بغض النظر عن المجموع ولهذا فإن أساسها البحث عن القوة والطمع والطموح[3].

ولقد عرض تونيز خصائص كل من الجماعات المحلية والمجتمع والتغيرات التى طرأت عليهما من خلال عرضه لتطور المجتمع الإنسانى. فلقد كانت الوحدة تسود المجتمع الإنسانى فى العصور الوسطى، فحل محلها التفكك والتجزؤ، كما كانت السلطة أبوية فأصبحت الآن نوعاً من الاستغلال الإجبارى، وبينما كانت القيم والعادات والتقاليد - من تراحم ومشاركة وجدانية - تسود بين الأقارب، أصبح الناس فى ذلك الوقت أغراباً، وبينما كان المجتمع يتألف غالباً من الفلاحين الذين يرتبطون بالأرض، أصبحت نظرة الناس الآن تجارية، وبينما كانت حاجات الناس بسيطة ويمكن إشباعها عن

---

(١) د. أحمد أبو زيد، «فرديناند تونيز»، مجلة عالم الفكر، المجلد الثانى عشر، العدد الثالث، وزارة الإعلام بالكويت، ١٩٨١، ص ٢٣٨.
(٢) د. السيد بدوى، نظريات ومذاهب اجتماعية، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٩، ص ١٤٨.
(٣) المرجع السابق، ص ١٤٨.

طريق الإنتاج المنزلى والمقايضة تعقدت احتياجاتهم ومطالبهم الآن، وساد نظام التجارة العالمية والإنتاج الرأسمالى، وبينما كان الناس يميلون إلى الاستقرار فى مواطنهم ويقيمون فيها إقامة دائمة أصبحت الحركة والتنقل هى الغالبة[١].

علاوة على ذلك فلقد حدد تونيز ثلاث مراحل للتدرج فى كل من: Gemainschaft وGeselschaft، أما عن مراحل التطور فى الأولى فهى[٢] :

١ - حياة الأسرة Family of Life والتى فيها تعتمد مشاركة الإنسان على عواطفه.

٢ - الحياة القروية الريفية Rural Village Life حيث الاعتماد على العرف والعادات والطرق الشعبية.

٣ - حياة المدينة الصغيرة Town Life والتى فيها يسيطر الدين على جزء من وعى الناس.

فى حين حدد مراحل التطور فى الثانية على النحو التالى[٣] :

١ - حياة البلدة City Life أو الحياة التى تقوم على الاتفاق والتى تتحدد بناء على تفكير الإنسان.

٢ - الحياة القومية National Life والتى تتحدد بناء على حرص الإنسان وتكون قوة الضبط ممثلة فى الدولة.

٣ - الحياة العالمية (كوزموبوليتان) Cosmopolitan وهى تلك المرحلة التى تطورت بناء على وعى الإنسان وتكمن قوة الضبط الحقيقية فى جمهور العلماء.

وبناء على ما سبق يحدد تونيز خصائص المجتمع المحلى فى أنه يقوم على العلاقات الأولية والحياة المشتركة التى تجمع بين أفراده معاً، وكذلك الفهم المشترك والمتبادل فيما بينهم جميعاً، فحياة الأسرة على سبيل المثال تكون بمثابة النموذج الأصلى لما يعنيه تونيز بمصطلح المجتمع المحلى، وهى التى تتميز بعلاقات المواجهة المباشرة، والفهم المتبادل؛ حيث تسيطر على حياة المجتمع المحلى

---

(١) د. أحمد أبو زيد، «فرديناند تونيز»، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

(2) Peter Mann, An Approach to Urban Sociology, Op. Cit, P. 192.

(3) Ibid., P. 193.

الريفى علاقات القرابة، ومن ثم ينظر إليه على أن جميع أفراده إنما يشتركون بصفة عامة فى هذه الخصائص[١]، أى أن التجمع إنما يقوم على أساس العلاقات العضوية التى تقوم على عواطف تلقائية وطبيعية، وهكذا يسود هذا النوع من المجتمعات قانون التجمع الطبيعى والملكية المشتركة وقانون العرف العائلى، بينما يقوم المجتمع على علاقات عقلية بين إرادة مفكرة مدبرة ولا يقوم على قانون العواطف والمشاعر بل بناء على نوع من التعاقد Contrat حيث تسيطر عليه علاقات أكثر سطحية وغير مباشرة، كما يتميز هذا المجتمع بالفردية[٢].

٣ - جورج سيمل والاتجاه الشكلى فى نظرية علم الاجتماع.

لقد طور جورج سيمل[*] Georg Simmel نظريتين مختلفتين عن المجتمع ظهرا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتعرف النظرية الأولى

(1) Dexter C. Dunphy, The Primary Group, Op. Cit., P. 6.

(٢) د. السيد بدوى، نظريات ومذاهب اجتماعية، مرجع سابق، ص ١٥٠.

★ إن أهم ما يرتبط باسم جورج سيمل هو اهتمامه بدراسة أشكال الظاهرات الاجتماعية وصورها ومن ثم كانت تسمية علم الاجتماع لديه بعلم الاجتماع الصورى أو الشكلى، ويظهر ذلك جلياً من خلال توضيحه للنزعة الاجتماعية Sociability، ففى أى مجتمع إنسانى يعتقد سيمل فى إمكانية التمييز بين الشكل والمضمون فى الفعل الإنسانى، حيث يمكن التمييز فى التفاعل الإنسانى بين الشكل والمضمون، فالمعرفة على سبيل المثال تظهر أولاً على أنها وسائل فى الكفاح من أجل الوجود أو البقاء، ولكنها سرعان ما تصبح بعد ذلك بمثابة الاستقلال فيما يبحث عنه، وذلك كما يحدث فى العلم. وهناك العديد من الأمثلة التى استعرضها سيمل وتؤكد جميعاً على انفصال الشكل عن المضمون فى الوجود الحقيقى. فلربما تكسبنا الأشكال نوع الحياة التى نعيش فيها ونسعى إليها ثم نعمل على التحرر منها، وخاصة التحرر من الروابط عن المضمون. فإن ما يريد أن يؤكد عليه سيمل هنا فى ظاهرة النزعة الاجتماعية هو دور الشكل الاجتماعى، فإن خاصية التجمع إنما تتحدد عن طريق الخصائص أو السمات الشخصية، حيث يعتمد كل شئ أيضاً وبالضرورة على شخصيات المشاركين والمعنى الخاص، وليس على اهتمامات أخرى كالثورة والوضع الاجتماعى وغير ذلك من خصائص.

- د. عبد الباسط عبد المعطى، فى نظرية علم الاجتماع، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية ١٩٧٣، ص ١٤٣.
- Don Martindal, The Nature and Type of Sociological Theories, Op. Cit., PP. 240 - 241.

بالنظرية الآلية أو الذرية وهى التى طورها فى القرنين السادس عشر، والسابع عشر فى حين تحدد الثانية بالنظرية العضوية حيث أكد سيمل فى كتابه «عن الاختلافات أو التمايزات الاجتماعية» أن النزعة الذرية كنظرية لا مفر منها ولكنها غير مستخدمة من الناحية العملية، حيث أن مسألة كم عدد؟ وما هى الوحدات الحقيقية التى يجب حصرها فى وحدات ذاتية أعلى هى مسألة ممارسة، والآن على النقيض، فهو يمضى فى اعتبار النزعة الذرية شيئاً لا يقبله العقل، وإن كان لا يزال يقبلها على أساس اعتبارات معرفية. فقد ادعى أن النزعة الذرية ترجع إلى مفهوم غير صحيح عن طبيعة الإدراك. فإن أكثر المفهومات ملاءمة لها هى أن نعتبرها عملية تجريد[1]. وتؤكد النظرية الذرية على أن الأفراد يتصورون أو يدركون عالمهم الاجتماعى كما لو كانوا مستقلين عنه وفى وحدات ذاتية، وتؤكد هذه النظرية الميكانيكية على النظر إلى المجتمع المحلى Community على أنه ميكانيكى أو آلى ويبدو هذا أكثر وضوحاً عند «جون ستيوارت مل». فى حين تؤكد النظرية الثانية له - العضوية - على أن المجتمع إنما يكون متميزاً عن الفرد[2].

ولقد اصطنع سيمل مدخلاً جديداً لمعالجة طبيعة المجتمع، من مفهومات العلاقة والوظيفة حيث يرى أن المجتمع ذو وظيفة ظاهرة فى دينامية العلاقات بين الأفراد وفى التفاعل بين عقولهم[3]. ولذلك عرف المجتمع على أنه عدد من الأفراد يرتبطون فيما بينهم بالتفاعل، أو المجموع الكلى لتلك التفاعلات. أو بمعنى آخر أن المجتمع عبارة عن مجموع تلك الأشكال من العلاقات التى يتحول الأفراد بفضلها[4]، ولذلك ميز سيمل بين نوعين من المجتمعات هما المجتمع المحلى الريفى، والمجتمع المحلى الحضرى من خلال مقارنته بين حياة المدينة

(1) Georg Simmel, The Sociology of Georg Simmel, Trans. By: Kurt H. Wolff, The Free Press, Glencoe, Illinois, 1950, P. XXIX.

(2) Don Martindal, The Nature and Type of Sociological Theories, Boston, London, 1960, PP. 236 - 237.

(3) Ibid., PP. 236 - 237.

(4) Georg Simmel, The Sociology of George Simmel, Op. Cit., P. XXX.

الصغيرة وحياة المدينة الكبيرة. أو ما يعرف بالمجتمع المحلى والمجتمع من خلال التحليل الذى قدمه بين الجماعات الصغيرة Small Group وغيرها من الجماعات الكبيرة. فلقد حدد خصائص حياة الأفراد فى المدينة الصغيرة وعلاقاتهم فيما بينهم فى أنها تقوم على أساس عاطفى قوى، بينما تعمل حياة الأشخاص فى المدينة الكبيرة على تنمية وزيادة الاختلافات فيما بينهم. وفى هذا الصدد نجد تشابهاً بين تحليل كل من «سيمل» و«تونيز» فى تأكيدهما على أن علاقات الأفراد فى حياة المدينة الصغيرة تكون شخصية فى حين أنها غير شخصية في المدينة الأم. فحياة المدينة الصغيرة هى بمثابة حياة مشتركة تقوم على أساس العلاقات الشخصية للجماعات الأولية فى حين تتميز حياة الأفراد فى المتروبوليس بالفردية[١].

فمن الممكن أن نتبين – على سبيل المثال – حتى يومنا هذا على الأقل أن المجتمعات الاشتراكية أو القريبة من الاشتراكية كانت ممكنة فقط فى الجماعات الصغيرة، وفشلت دائماً فى الجماعات الكبيرة. فمبدأ الاشتراكية والعدالة فى توزيع الإنتاج والعائد يمكن أن يتحقق بسهولة فى الجماعات الصغيرة، وبالتأكيد على نفس الدرجة من الأهمية أنها يمكن أن تصان بواسطة أعضاء تلك الجماعة. فالإسهام الذى يقدمه الجزء فى الكل ومكافأة الجماعة له كلها أشياء يمكن رؤيتها عن قرب، كما أن المقارنة بين الأفراد وتقديم المقابل لما يقدمونه مسألة سهلة. بينما فى الجماعة الكبيرة فإن هذه المسائل من الصعب تحقيقها، وخاصة بسبب التمايز الذى لا مناص منه بين أعضاء الجماعة وبين وظائفهم وحاجاتهم، فالعدد الكبير من الأفراد يمكن أن يكون وحدة عندما يكون هناك تقسيم للعمل، لا يكمن السبب هنا فى التكنيك الاقتصادى، فهناك أيضاً حقيقة مؤداها أن تقسيم العمل وحده يفضى إلى نوع من النفاذ المتبادل أو الاعتماد المتبادل – من خلال وسائل لا حصر لها – الذى يربط الجزء أو الفرد بكل الأفراد، الذى بدونه تنأى الجماعة بعيداً عن التكامل وتتفكك الأجزاء[٢].

---

(1) Dexter, C. Dunphy,-Op. Cit., P. 7.

(2) George Simmel, The Sociology of George Simmel, Op. Cit., P. 87.

لهذا بقدر ما تكون وحدة الجماعة المرغوب فيها قوية بقدر ما ينبغي أن يكون التخصص بين أعضائها واضحاً، وبقدر ما ينبغي أن يربط ذلك التخصص الفرد بالكل والكل بالفرد. ولذلك فإن اشتراكية الجماعة الكبيرة تتطلب تمايزاً بين شخصيات المكونين لها، هذا التمايز الذى يجب بالضرورة أن يمتد فيما وراء مهن الأفراد ويتضمن مشاعرهم ورغباتهم، ولكن هذا قد يجعل المقارنات بين إنجازات الأفراد ومكافآتهم والتوافق بينهم أمراً صعباً للغاية، ومع ذلك يقع على عاتقهم إمكانية تحقيق اشتراكية تقريبية[١].

وبغض النظر عن الصفات التى سوف نذكرها عن الجماعات الصغيرة من بين صفات لا حصر لها، فإن السمات التالية هى التى تحدد ملامح البناء السوسيولوجى للجماعات الكبيرة. حيث أن الجماعات الصغيرة بمقارنتها بالجماعات الكبيرة تكون أقل راديكالية وحسماً، ومع ذلك فإن هذه العبارة تحتاج إلى مزيد من الايضاح، حيث أن الجماهير الكبرى عندما ينبعث فيها النشاط عن طريق الحركات الاجتماعية والسياسية والدينية فإنها تكون راديكالية بصورة شديدة وتسود الأحزاب المتطرفة الأخرى[٢].

ولذلك يرى سيمل أن هناك شكلاً من الأشكال النموذجية للحياة الاجتماعية يتميز بأنه ذو معايير ثابتة، يتلاءم فيه سلوك أعضائه مع طبيعة هذا المجتمع، حيث يلعب فيه العرف دوراً رئيسياً فى ضبط وتوجيه سلوك أعضائه، فالعرف والالتزامات الدينية تفرض نوعاً من المراقبة المباشرة على سلوك الأفراد، هذا فضلاً عن وجوده بين العناصر الاجتماعية المختلفة. فالمستعرض لتاريخ البشرية يجد أن هناك نماذج من الحياة تتميز باتجاهها الدينى[٣]. فى حين أن الحقيقة الحتمية للحياة الحضرية لكل الأنواع كانت متمثلة فى الشعور بالقهر، وذلك أن الشعور الذى يحيط بالإنسان فى المدينة

---

(1) Ibid., P. 87.

(2) Ibid., PP. 89 - 90.

(3) George Simmel, Sociology of Religion, Trans. By: Curt Rosenthal, The Wisdom Libeary, New York, 1959, PP. 7 - 8.

التى يعيش فيها. كما يرى «سميل» أن الإفراط فى الحافز النفسى يقود الناس إلى محاولة الدفاع عن أنفسهم بطرق سلبية كرد الفعل العاطفى بالنسبة لمن يحيطون بهم فى المدينة. وكدفاع ضد تعقيد الحياة الحضرية، يحاول الناس أن يعيشوا فى علاقة غير عاطفية وعقلية، ووظيفية مع الآخرين. هذا الدفاع يجعل الحياة منفصلة ويطبق الضبط على كل فرد على حدة. وإذا حاول الناس أن يعيشوا حياتهم فى الأسرة وفى العمل وفى الصداقة، فإنهم يتحطمون عن طريق التعقيدات الكامنة فى كل من هذه الوقائع التى يعيشونها فى الوسط الحضرى[1]. ومن ثم تصل إلى صورة تشبه كثيراً ما وصل إليه ماكس فيبر Weber عن خصائص حياة المدينة الحديثة، تلك الخصائص المتمثلة فى اللاشخصية والبيروقراطيات التى لا تتمثل فيها العلاقات المباشرة، وعمليات السوق الفعلية[2].

ومن ثم ينتهى سيمل من تحليلاته المختلفة إلى أن هناك نوعين من المجتمعات لكل منهما خصائصه التى تميزه عن غيره، حيث يتميز المجتمع الأول بالتفاعل المباشر بين أعضائه، والحجم المحدد نسبياً فى حين تزداد العلاقات الاجتماعية تعقيداً بين الجماعات الكبيرة، كما أنها تخلق لأعضائها وسائل مساعدة للتفاعل الإنسانى أو بعبارة أخرى يتم التفاعل بينهم من خلال وسيط ويسود بين أعضائها اختلافات فى المكانة، والأوضاع، وتفويض فى المهام والسلطات، وهذه الخاصية الأخيرة تؤكد على أن الجماعات كبيرة الحجم تصبح بمثابة تعبير عن مجتمعات متباينة أو وحدات اجتماعية هذا فضلاً عن المشاركة الضعيفة فى الجماعات الكبيرة عكس الجماعات الصغيرة. كما تتجزأ فى الأولى شخصيات الأعضاء بينما تعمل الثانية على تكاملها فى كل مشترك من خلال بعض المواقف والأساليب سابقة الذكر[3].

---

(١) د. غريب سيد أحمد، علم الاجتماع الريفى والحضرى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص ص ١٦ - ١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧.

(3) Lewis, A. Coser, Masters of Sociological Thought, 2nd Edition, Harcourts Brace Joranvich, U.S.A., 1977, P. 188.

٤ - ماكس فيبر والنموذج المثالى وتطبيقاته.

كما يمثل النموذج المثالى Ideal Type اتجاهاً رئيسياً فى دراسات علم الاجتماع فيما يتعلق بخصائص المجتمع المحلى الريفى. وقد جاء ذلك مصاحباً للتطور الذى طرأ على مناهج البحث فى علم الاجتماع والذى تمثل فى بداية الأمر فى تطوير نماذج مثالية[1]. حيث ذهب فيبر Weber إلى أن دراسة الفعل الاجتماعى تتطلب وجود أداة منهجية أطلق عليها النموذج المثالى أو الخالص Ideal or Pure Type والنموذج المثالى هو فى حقيقة الأمر بناء عقلى Mental Construct يتشكل من خلال ظهور أو وضوح سمة أو أكثر أو وجهات نظر يمكن ملاحظتها فى الواقع. فالنموذج المثالى ليس فرضاً Hypothesis ولكنه أداة أو وسيلة لتحليل الأحداث التاريخية الملموسة والمواقف، ولذلك فهو مفهوم محدود نقارن به المواقف-الواقعية فى الحياة والأفعال التى ندرسها. ويذهب «فيبر» إلى أن دراسة الواقع الملموس على هذا النحو تمكننا من الحصول على علاقات سببية بين عناصر النموذج المثالى[2].

فالنموذج المثالى كما استخدمه «فيبر» مجرد وعام. فهو لا يصف الطريق الملموس للفعل، ولكن الطريق المثالى السوى، مفترضاً وجود غايات معينة وأشكالاً من التوجيه السوى كقيود على الفاعلين، إنه لا يصف طريق العمل الفردى، ولكن طريقاً نموذجاً يعد عنواناً تعميماً يمكن تصنيف عدداً من الحالات الخاصة داخله.

ولقد قدم «فيبر» فى كتابه «الاقتصاد والمجتمع» أمثلة عديدة تشهد على إمكانية تطبيق النموذج المثالى، فمن هذه النماذج الشهيرة التى أقامها، ذلك النموذج الذى يتضمن تمييزاً واضحاً بين أنماط السلطة، حيث ميز «فيبر» بناء على نموذجه المثالة لأنماط السلطة بين نوعين من المجتمعات (المجتمع المحلى الريفى والحضرى)، مجتمع تكون فيه السلطة تقليدية Traditional، وآخر تكون

(١) عاطف حنا، الخصائص الحضرية النامية فى المجتمع القروى المصرى: دراسة مقارنة فى علم الاجتماع الريفى مع التطبيق على محافظة المنوفية، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٢) نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها، مرجع سابق، ص ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

فيه السلطة عقلية Rational رشيدة[1]. أما عن النوع الأول فهو ذلك المجتمع الذى تسيطر عليه السلطة التقليدية التى تستمد شرعيتها من قوة العادات والتقاليد والأعراف، والمكانة التى يشغلها ممثلوا السلطة والتى تكون بمثابة قواعد غير مكتوبة تأتى من تلك المعتقدات المتنوعة والسائدة بين أفراد وجماعات المجتمع، والتى يكون بها قوة القانون فى السلطة الشرعية. ولذلك يصدر القائد التقليدى أوامره معتمداً على مكانته الموروثة ومن ثم يتسم بالطابع التحكمى. أما ولاء الأفراد فيرجع إلى احترامهم للمكانات الاجتماعية. بينما يتخذ الجهاز الإدارى الذى يتولى ممارسة السلطة فى ذلك المجتمع شكلين أساسيين، أحدهما وراثى يعتمد على القرابة، والآخر هو الإدارة الإقطاعية[2]. بمعنى أن العلاقات الاجتماعية فى هذا النوع من المجتمعات إنما تقوم على الشعور الذاتى للفرد وإحساسه بالانتماء إلى الآخرين من أبناء مجتمعه، وتكون أفعاله تقليدية ومتأثرة بالعواطف[3].

وعلى الطرف المقابل نجد أن المجتمع الحديث يتميز بسيطرة السلطة الشرعية Legal Authority التى تقوم على أساس قانونى، حيث تفرض القواعد على الأفراد من خلال قوة القانون والإجراءات الرسمية ومن ثم تكون طاعتها ملزمة، علاوة على أن هذه الإجراءات تعمل على تحديد حقوق الأفراد وواجباتهم. ويأتى مصدر هذه السلطة من تفويض الذين يملكونها فى إصدار أوامرهم بهدف إتباعها والمحافظة عليها كما ترجع طاعة الأفراد إلى إيمانهم ببعض الإجراءات والقواعد التى تحظى بقبول كل منهما، أما الحاكم فيستمد شرعيته من القواعد القانونية المقررة[4].

---

(1) Max Weber, The Theory of Social and Economic Organization, Trans. By: Henderson & Parsons, The Free Press, 1947, P. 13.

(٢) د. محمد على محمد، علم اجتماع التنظيم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ٨١. وأيضاً:

Jonathan Fredman, Clinical Sociology, Longman Inc., N.Y., 1979, P. 111.

(3) Peter Mann, Op. Cit., P. 201.

(٤) د. محمد على محمد، علم اجتماع التنظيم، مرجع سابق، ص ص ٨١ – ٨٢.

وهكذا، يذكر فيبر أن دوركايم قد أكد على عبارة هامة مؤداها: «أن الإنسان البدائى الذى عاش فى العصور المبكرة السحيقة التى شهدتها أولى أيام الحضارة الإنسانية على الأرض، لم يعد له وجود فى هذا العصر فقد تحول إلى إنسان متحضر متمرس فى تخصصه». ولعل هذا يعتبر من أهم النتائج المباشرة لتقسيم العمل التى خلفت ما يعرف بالمجالات التخصصية والتى تعتبر السمة المميزة للمجتمع المعاصر. ولعل تلك التخصصية هى التى يعزى إليها خلق ما يعرف «بالإنسان العالمى» الذى ارتبط بالإنتاجية فى كل مكان فى العصر الحديث، والذى تنافسه الآلة فى كل أعماله. لقد أصبح هذا العصر هو عصر الآلة التى أخذت تشارك الإنسان فى عمله وتتفوق عليه أحياناً[1]. وأخيراً لقد لاحظ «فيبر» أنه فى المجتمعات الغربية بصفة عامة يوجد تحول من الاتجاه التقليدى إلى السلطة الشرعية مع زيادة الرغبة فى المجتمع الجديد لإحلال القواعد القانونية بنظام وزارى «أكثر بيروقراطية»[2].

مما سبق يتضح أنه على الرغم من أهمية النماذج المثالية التى يمكن الاستفادة منها عملياً فى الدراسات السوسيولوجية يرى «هوراس مينر Horace Miner» أن النموذج المثالى بناء عقلى خالص لا يتطابق مع الواقع، ولذلك فهو ضرب من الخيال ليس له وجود واقعى ومن ثم يزيد الوضع من الصعوبة والغموض والتعقيد، ولكن يذهب كل من «بيرجس Burgess» و«مان Mann» على العكس من ذلك تماماً حيث يؤكدان على أهمية النماذج المثالية وضرورتها لعلم الاجتماع لأنها تعتبر أدق من عملية الوصف التحليلى[3].

---

(1) Anthony Giddens, Capitalism and Modern Social Theory, Cambridge University Press, London, 1971, P. 235.

(2) Max Weber, Basic Concepts in Sociology, Trans. By: H. P. Secher, The Citadel Press, N. Y., 1963, PP. 20 - 21.

(٣) عاطف حنا، الخصائص الحضرية النامية فى المجتمع القروى المصرى، مرجع سابق، ص ٤٥. وأيضاً:

Petter Mann, Op. Cit., PP. 188 - 189.

الفصل الثانى

الاتجاه الماركسى

- مقدمـــة.

أولاً - الماركسية والصراع الطبقى.

ثانياً - الماركسية الكلاسيكية ومحددات البنية الطبقية.

ثالثاً - الطبقة الوسطى والتغيرات فى مجالات العمل والملكية.

- مناقشة وتعقيب.

الفصل الثانى
الاتجـــاه الماركســــى[*]

مقدمـــة :

بداية، يمكن القول أن هذا الفصل يعرض بطريقة تحليليـة نقديـة للاتجـاه الماركسى فى التراث السوسيولوجى المعاصر. حيث يقدم وصفاً تحليلياً للنظريـة الماركسية، والمصادر الفكرية والأصول المنهجية التى تأثر بها «كارل ماركس». ثم عرض لوجهة نظر «ماركس» حول مفهومه عن المجتمع وما يتكون منـه مـن بنـاء تحتى وآخر فوقى ومكونات كل منهما وما يوجد بينهما من علاقة تفاعلية.

فضلاً عن ذلك، تناول الفصل أيضاً مفهوم الصراع الطبقى فـى الماركسـية والعلاقات بين الطبقات الاجتماعية التى يتكون منها المجتمع الرأسمالى محدداً لها فى الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة، والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية لكل طبقة منها، والأسباب التى تجعل الطبقة العاملة تدخل فى صراع مع الطبقـة الرأسمالية. علاوة على ذلك، عرض ها الفصـل لأسـباب الـتغير الاجتمـاعى فـى المجتمع والكيفية التى من خلالها يتم تغيير المجتمع، ومحاولة تأسيس نظام اجتماعى وإقتصادى وسياسى جديد يعتبر بديلاً للنظام الرأسمـالى الحـالى. ومـن ثـم عـرض الفصل فى هذا الصدد لملامح المجتمع الاشتراكى الذى كانت تتطلع إليه الماركسية من قبل، وذلك فى إطار علاقتـه بـالتغيرات الحديثـة التـى طـرأت علـى الواقـع المعاصر بأبعاده الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ... الخ.

ومما هو جدير بالإشارة إليه، تناول هذا الفصل أيضاً العوامل التى تتحدد فى ضوئها الطبقات الاجتماعيـة فـى النظريـة الماركسـية، وجـاء ذلـك بعنـوان: الماركسية ومحددات البنية الطبقية. بعبارة أدق حاولنا فى هذا الجزء الإجابة علـى تساؤل مؤداه: كيـف تتحـدد الطبقـة الاجتماعيـة مـن وجهـة النظـر الماركسـية التقليدية؟، وأهـم الانتقادات التـى أثارهـا الفكـر الماركسـى المعاصـر فـى هـذا الصدد. فضلاً عن، محاولة التعرض لمناقشة مقولة «الـوعى الطبقـى» وخصـائص هذا الوعى ومضمونه سواء لدى الطبقة الرأسمالية أو طبقة البروليتاريا.

★ أعد هذا الفصل د. السيد محمد الرامخ.

كما ناقش هذا الفصل مشكلة ظهور الطبقة الوسطى - والتى تجاهلتها الماركسية الكلاسيكية من قبل - فى ظل التغيرات المعاصرة التى طرأت على مختلف مجالات العمل وأشكاله المتعددة، وأشكال الحيازة والملكية التى سادت بين الطبقة الوسطى فى المجتمعات المعاصرة وأدت إلى إحداث تغيرات عديدة فى بناء الطبقات والعلاقات بين الطبقات الاجتماعية فى المجتمع المعاصر. وذلك من خلال بعض التحليلات النظرية الحديثة التى قدمها أنصار الاتجاه النقدى فى دراسة الطبقات فى النظرية السوسيولوجية المعاصرة.

وأخيراً، جاءت المناقشة والتعقيب فى هذا الفصل على نحو غير تقليدى حيث عرضنا لأوجه الشبه والاختلاف بين كل من الاتجاه المحافظ والاتجاه الراديكالى فى النظرية السوسيولوجية فى ضوء عدة محاور تحددت فى: النظرية والمنهج ومستويات التحليل بهدف إثراء الجانب المعرفى.

أولاً ـ الماركسية والصراع الطبقى:

يعد كارل ماركس من أبرز ممثلى اتجاه الصرع باعتباره احد الاتجاهات الأساسية فى النظرية السوسيولوجية، وتعتبر النظرية الماركسية فى الطبقات الاجتماعية(*) ذات مركب عام ونوعى، حيث يشير مفهوم المركب العام إلى أن

★ يرى ماركس أن الطبقة الاجتماعية هى أى تجمع من الأشخاص يؤدون نفس الوظيفة فى عملية التنظيم الإنتاج وتختلف الطبقات عن بعضها البعض على أساس أوضاعها الاقتصادية.كما يعرف لينين الطبقة على أنها «جماعات كبيرة من الناس تختلف كل جماعة منها على الأخرى عن طريق المكان الذى تشغله فى نسق الإنتاج المحدد تاريخياً، وعن طرق علاقاتها - التى هى فى أغلب الحالات ثابتة ومنظمة قانوناً - بوسائل الإنتاج، ودورها فى التنظيم الاجتماعى للعمل، وعلى هذا فالطبقات هى جماعات من الناس يمكن لواحدة منها أن تستولى لنفسها (تستغل) على عمل أخرى نتيجة للأوضاع المختلفة التى تشغلها كل منها فى نسق معين من الاقتصاد الاجتماعى».
وعلى ذلك أن تعريف الماركسية للطبقة إنما يتحدد فيما يلى:

١ - وجود جماعة من الناس تتشابه من حيث المكان الذى تشغله فى نسق الإنتاج الاقتصادى والاجتماعى.
٢ - وتتشابه فى الدخل والمنزلة وأسلوب الحياة.
٣ - كما تتشابه من حيث نصيبها فى ملكية وسائل الإنتاج.

نقلاً عن: د. غريب سيد أحمد، الطبقات الاجتماعية: النظرية والقياس، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣، ص ص ٤٨، ٥١، ٥٤.

التناقضات الداخلية التى تظهر فى المجتمعات إنما تنجم أساساً من تأثير علاقات الإنتاج على حياة الناس والجماعات الاجتماعية المختلفة التى تكون فى مجموعها الطبقات الأساسية فى المجتمع وتؤثر على أسلوب حياتها وطريقة تفاعلها مع بعضها البعض، فى كما يشير النوعى إلى المجتمع ذات النظام الاقتصادى الرأسمالى القائم على ملكية الآلات المستخدمة فى الإنتاج، وفى هذا يؤكد ماركس على قيام المجتمع الرأسمالى على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وأدواته[1].

وينظر ماركس إلى المجتمع الانسانى فى ضوء الصراع منطلقاً من بعض الأفكار الأساسية تؤلف فيما بينها المادية التاريخية باعتبارها منهجه الأساسى، الذى أخذه، أصلاً عن هيجل، حيث كان هيجل يطبقه على الفكر أى الفكرة ونقيضها ثم مركب يجمع ما بين الفكرة ونقيضها بينما قام ماركس بتطبيقه على المادة، ومع ذلك فإنه لا يوجد بينهما فواصل لأن القضايا النظرية وكذا الفروض العلمية التى تحويها المادية التاريخية، تعتبر تطوراً وامتداداً واقعياً لقضايا المادية الجدلية وفروضها، وأن كانت المادية الجدلية، تهتم بالوجود الموضوعى المستقل عن الوعى، وبتطور العالم وقوانينه العامة ، فالمادية التاريخية تهتم بالوجود الاجتماعى كواقع موضوعى مستقل عن الوعى الاجتماعى للإنسان، وبتطور المجتمع وقوانينه، وبذلك تحتل العلاقة بين الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى فى المادية التاريخية نفس المكان الذى تحتله علاقة الوجود بالوعى فى المادية الجدلية[2]

وبناء على ما سبق، يرى ماركس أن المجتمع الإنسانى يتكون من بنائين، أحدهما يطلق عليه البناء الاقتصادى أو التحتى للمجتمع، ويعرف الآخر بالبناء الفوقى الذى ينهض على الأساس الاقتصادى، و بينهما تفاعل دينامى[3]، ومن

---

(1) Norman Birnbaum, The Crisis In Marxist Sociology, In: J. David Colgex & J. roach, (Edis.), Radical Sociology, N. y., basic book, 1971, P.113.

(٢) د.عبد الباسط محمد عبد المعطى، مرجع سابق، ص ٧١.

(٣) د. محمد عاطف غيث، الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر، الطبعة الثانية، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٧، ص ٢٣٦.

ثم تؤكد الماركسية على أن أى محاولة لفهم الجماعات الطبقية وما يحدث بينهما تفاعل أنما يرتبط ذلك فى حقيقة الأمر بضرورة فهم تلك العلاقة التفاعلية بين مكونات البناء الاقتصادى والبناء الفوقى، والتى تتلازم وجوداً وعدماً، وتبدأ من تناول علاقات وقوى الإنتاج، وذلك لأن علاقات وقوى الإنتاج هى الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه أى مجتمع وتحدد فى النهاية غيرها من العوامل الاجتماعية و السوسيولوجية[1]

ونجد فى نظرة ماركس لتاريخ الإنسانية تأكيداً على أن ما يدفع بالأفراد والجماعات إلى الدخول فى علاقات اجتماعية وحدوث تفاعل اجتماعى فيما بينهم فى العملية الإنتاجية لا يكون ثمة حاجات سيكولوجية أو اعتبارات أخلاقية بل يرجع إلى رغبتهم فى الحفاظ على وجودهم فى الحياة الاجتماعية، ولكن هذا لن يتأتى إلا من خلال تبادل الأنشطة فيما بينهم فى عملية الإنتاج[2].

وعندما تناول ماركس تحليل مفهومى علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، ميز بين نموذجين أو شكلين للملكية هما الملكية الجماعية والملكية الخاصة وكذلك يؤكد على أن لكل تكوين اجتماعى اقتصادى أساس محدد وبناء فوقى يطابق هذا الأساس. فأولئك الذين يملكون وسائل الإنتاج يمارسون الاستغلال الاقتصادى على أولئك الذين يملكون القليل من وسائل الإنتاج أو لا يملكون منها شيئاً، وعلى ذلك فوفقاً لأساس الملكية الجماعية والملكية الخاصة يظهر الشكلان الرئيسيان الممكنان لعلاقات الإنتاج الموجودة فى التاريخ: الاشتراك والمساعدة المتبادلة، أو السيطرة والخضوع، وأما الأشكال التى ظهرت فيها الملكية الجماعية فى التاريخ. فهى ملكية العشيرة، القبيلة، والكوميون، والملكية العامة، أو ملكية المزارع الجماعية التعاونية...الخ.

وعن الملكية الخاصة فظهرت الأخرى تاريخياً من خلال ثلاثة أشكال أساسية هى: العبودية، والإقطاع، والرأسمالية، وهذه الأشكال تتطابق مع الأنماط

(١) أوسيوف، مرجع سابق، ص ١١٤.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣.

الثلاثة لاستغلال الإنسان للإنسان[1]. وهكذا تكمن نظرية ماركس عن الجماعات الطبقية فى نظريته عن المجتمع باعتباره ينطوى على طبقتين أساسيتين أحدهما الطبقة الرأسمالية وهى أقلية من حيث العدد وتمتلك وسائل الإنتاج، وذلك فى مقابل الجماعات العمالية أو كما يطلق عليهـا طبقة البروليتاريا و التى لا تمتلك سوى قوتها العضلية التى تعرضها فى سوق الإنتاج، وتجد نفسها بالتالى مضطرة تحت ظروف وأشكال متنوعة من الضغط إلى أن تقبل العمل فى ظل ظروف فيزيقية ونفسية ومادية صعبة بالنسبة لها، تحقق من خلالها تلك الطبقة الرأسمالية مزيداً من الكسب والربح المادى فى الوقت الذى تزداد فيه جماعات العمال بؤساً وفقراً[2].

هكذا يرى ماركس أن ما يحدث من تغير فى المجتمع إنما يتحدد مصدره فى تلك الاختلافات فى ملكية وسائل الإنتاج بين هذه الجماعات الطبقية، وتلك تدفعها إلى الدخول فى صراعات مع بعضها البعض حيث يدفع وجودهم الاجتماعى ووضعهم على بلورة وعيهم بأنفسهم، ويتحدد الدور الذى يقوم به الفرد باعتباره عضواً ينتمى إلى الجماعة فى مشاركته الأحداث الاجتماعية التى تتعلق بجماعته الاجتماعية، وتنفيذ مختلف ما يستند إليه من وظائف ومهام اجتماعية، ويرتبط ذلك فى حقيقة الأمر بتلك الأفعال والنشاطات التى يقوم بها الأعضاء الآخرون من نفس الجماعة ومن ثم فإن فعالية أدائهم، وما يتصلون إليه من نتائج مشتركة إنما تظهر من ذلك النفى الديالكتيكى لأوجه النشاطات الفردية[3].

كما يؤكد ماركس على تطور كل أشكال المجتمعات والنظم الاجتماعية من الصور البسيطة إلى الأكثر تعقيداً، وذلك من خلال استعراضه لتاريخ المجتمعات الإنسانية الذى انتهى إلى إبراز مقولته الشهيرة «أن تاريخ أى مجتمع إنسانى إنما هو فى ذاته يكون معبراً عن صراع بين ما يوجد فيه جماعات اجتماعية أحدهما تكون المسيطرة وذات سيادة، والأخرى تكون مغلوبة على

(١) عبد الباسط محمد عبد المعطى، مرجع سابق، ص ص ٧٦ - ٧٧.

(2) Michael Haralambos & Robein Heald, Sociology Themes and Perspectives, London, University Tutorial Press, 1980, P. 535.

(٣) د. محمد عاطف غيث، الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر، ص ص ٢٣٦.

أمرها وخاضعة لهذه السيطرة»، ويبدو ذلك بصفة خاصة في المجتمع الاقطاعي وكذلك الرأسمالي والتي تعبر فيهما علاقات الإنتاج عن تلك العلاقات الاجتماعية المتصارعة. وذلك الصراع الذي أعزاه بطبيعة الحال إلى العامل المادي[1]. في الوقت الذي يستثني وجوده في بعض المجتمعات مثل «الحالات التي تكون فيها الملكية جماعية سواء كان ذلك في الأشكال الأولية للملكية المشاعية الريفية، أو في الأشكال التي سيختفي فيها الصراع الطبقي كالمجتمع الشيوعي، حيث لا توجد فيه طبقات أو ملكية خاصة[2]

كما ترى الماركسية أن ثمة خصائص تتميز بها الجماعات الطبقية منها أن هذه الجماعات إنما توجد داخل نظام تاريخي واحد من العلاقات الاجتماعية، وذلك باعتبارها إحدى العناصر التي تقوم بتأدية وظائف محددة، ومن ثم فلا يمكن أن توجد تلك الجماعة خارج الكيان الاجتماعي الواحد. كما أن لها أيضاً وجود موضوعي مستقل عن أولئك الأعضاء الذين تشتمل عليهم، وأن لكل عضو من أعضائها شعوراً وإرادة حرة، ولكن إذا لم تتفق ما يقوم به من أفعال ونشاطات مع تلك المتطلبات الاجتماعية الموضوعية للجماعة، فإنه سوف يستبعد منها بقوة الظروف المحيطة بها التي تعيش فيها. علاوة على ذلك، فإن وجود الجماعة أيضاً لا ينتهي بمجرد إحلال عضو أو عدد من الأعضاء منها بآخرين.

وعلى الرغم من أن أعضاء الجماعة الطبقية يعيشون مع بعضهم البعض، وتربطهم علاقات صداقة أو تنافس وصراع، إلا أنهم في قيامهم بالوظائف الاجتماعية إنما يسلكون بطرق متشابهة، ويتشابه ما يحيط بهم من ظروف اجتماعية، وكذلك يتشابه السلوك الاجتماعي لأعضائها[3]. ويذكر «أوسيوف» أن الجماعة الاجتماعية تعتبر بمثابة كل مفرد بالنسبة لتلك الجماعات الأخرى، كما أنها في ذاتها لا تكون أقل واقعية من كل أعضائها الأفراد، ولها أيضاً خصائص اجتماعية وسيكولوجية وأفكار وقيم تعكس كل مصالحها[4].

(1) Michael Haralambos & Robein Heald, Op. Cit., Pp. 12 - 13.

(٢) د. عبد الباسط محمد عبد المعطي، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٣) أوسيوف، مرجع سابق، ص ١٩١.

(٤) المرجع السابق، ص ١٩١.

وفى هذا يرى بعض الباحثين أيضاً أنه إذا كانت الماركسية فى تحليلها للجماعات الطبقية أكدت على ضرورة البدء بعلاقات الإنتاج، إلا أنها في الوقت عينه نجدها «لا تنكر الجماعات السيكواجتماعية» التى تؤثر كل منهما فى الآخر بطريقة مباشرة ويتفاعل أعضاؤها بصورة حسية، ويكون لديهم قيماً مشتركة ويختلفون فيما بينهم أيضاً فى المراكز الاجتماعية، علاوة على ما يسود بينهم من علاقات تميز الجماعات الأولية غير الرسمية، والتى يكون لها تأثير كبير على حياة أعضاء هذه الجماعات، وعلى نظرتهم واتجاهاتهم نحو العمل باعتباره ذات نفع اجتماعى، ومن الأمثلة عليها ما يوجد بين عمال الصناعة فى أحد المصانع بمدينة «موسكو»[1].

كما أجرى فى هذا الصدد بعض البحوث والدراسات في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) يهدف التعرف على أثر بناء الجماعة الأولية على المناخ الاجتماعى للعمل، وعلى أعضائها الأفراد لتوضيح البناء الحقيقى لعلاقات الجماعة[2]. وهكذا يعد موضوع بحث ودراسة الجماعات الطبقية (على اعتبار أن كل طبقة تتكون من عدد من الجماعات) من بين الموضوعات التى كان يدور حولها البحث السوسيولوجى فى دول الكتلة الشرقية. حيث يهتم بتحليل ما يوجد من علاقات اجتماعية بين مختلف الجماعات الطبقية التى يتكون منها المجتمع وذلك فى علاقاتها مع بعضها البعض. ومن ناحية أخرى يحاول تحليل تلك الاختلافات والفوارق الاجتماعية بين هذه الجماعات وذلك مثل جماعة العمال فى المصانع، أو جماعة الفلاحين فى تلك المزارع السوفيتية الجماعية إلى جانب اهتمامه بجماعة الأسرة فى تناول طبيعة العلاقات الاجتماعية التى تربط أعضاءها بعضهم ببعض، وتلك العلاقات الاجتماعية التى تربطها ببعض الجماعات الأسرية الأخرى الموجودة فى حياتهم، وبذلك نجده «حينما يدرس العلاقات الاجتماعية، يدرس فى نفس الوقت، الإنسان، والشخصية الإنسانية، لأن بؤرة اهتمام «علم الاجتماع الماركسى هى تناول الإنسان وعلاقاته فى ذلك الواقع الاجتماعى والمادى الذى يعيش فيه، وعلاقاته المختلفة مع غيره من حوله»[3].

(١) د. كمال دسوقى، مرجع ساق، ص - ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) على عبد الرازق جلبى، مرجع سابق، ص ٢٢١.

(٣) د. عبد الباسط محمد عبد المعطى، الاتجاه السوفيتى، قراءة نقدية فى علم الاجتماع، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥، ص ٥١.

هكذا يتضح أن جوهر نظرية ماركس فى تفسير التغير الاجتماعى يرجع إلى التناقضات الواضحة، بين جماعة العمال، وجماعة أصحاب العمل التى تمتلك أدوات ووسائل الإنتاج، حيث تؤدى بكل منهما إلى الدخول فى صراع يكون من شأنه فى النهاية تغيير النظام الاقتصادى الذى ينقسم المجتمع على أساسه إلى جماعات طبقية متصارعة، ورغبة فى الوصول إلى مجتمع آخر ليس رأسمالى ولكنه مجتمع اشتراكى.

وهكذا فإن النموذج الماركسى فى تحليله لطبيعة هذه الجماعات الطبقية ودورها، إنما يقوم على التمييز بين الفاشية والشيوعية[*]، وذلك فى عملية التحول والانتقال بالمجتمع من مرحلة إلى مرحلة أخرى جديدة، على اعتبار أن هذا الانتقال يعتبر أمراً ضرورياً، وربما يرجع ذلك إلى أن وجهة نظر الماركسية تقوم على بغض وكراهية السلطة الرسمية، ومن ثم فإنها تنظر إليه وترى أن كانت ممثلة فى أشخاص فإنه يجب القضاء عليهم، إذا إن هذه السلطة إنما تمارس تأثيراً سلبياً على الأفراد فى المجتمع، لأنها مقيدة للخلق والإبداع[1]. وتلقائية المبادرة، لأن الحكام يسيطرون من خلالها على غيرهم، وتعتبر الفاشية **fascism** ذات سلطة تتميز بالطابع الرسمى وغير الودى حيث إن علاقاتها جافة، ومن ثم فهى تكون مستقلة ومغتربة، بالإضافة إلى أنها كثيراً ما تغالى أو تفرط فى الإتقان والدقة التى كثيراً ما تقود إلى التخصص وتقسيم العمل، بحيث تؤدى إلى حدوث ردود أفعال مفاجئة لما هو قائم ومتوقع، حتى وإن كانت ترغب فى النهاية الوصول إلى طبيعة

★ يشير مصطلح الفاشية إلى تلك الحركة السياسية التى قادها موسولينى فى أيطاليا، وكانت تهدف إلى محاولة تأسيس نظام سياسى استبدادى قائم على الديكتاتورية والحكم المطلق هدفه النهائى هو تمجيد الدولة. وبذلك فهى تتضمن اتجاهات عدائية نحو تلك النظم السياسية الأخرى، وذلك كالديمقراطية والليبرالية وكذلك الاشتراكية. وهكذا كانت الفاشية الإيطالية تتبنى شعاراً مؤداه «كل شئ للدولة، لاشئ ضد الدولة، لاشئ خارج الدولة»، اعتمدنا فى ذلك على: د. محمد على محمد، أصول الاجتماع السياسى، الإسكندرية، دار المعرفة الجماعية، ١٩٨٠، ص ١٠٠.

(1) Roger Hoimes, «Marxism and Nature of Groups», B. J. S., Vol. 21, No. 3, September 1970, P. 28.

محددة للواقع الاجتماعى ذات الخصائص المتميزة بالعلاقات الحميمة ومحاولة التأليف بين الأشخاص فى وحدة كلية من خلال المشاركة والعمل على ربطهم مع بعضهما البعض برباط عاطفى يقوم على التفاهم، فإنه على الرغم من ذلك إلا أن ما تنتهى إليه من نتائج فاشية إنما يكون غير ذلك[1].

وعلى الطرف الآخر الذى يعبر عنه المجتمع الاشتراكى نجد أنصار الماركسية يأملون فى وحدة الناس وتحرر المعارف لتكون فى النهاية مركباً من الصدق، ويكون ذلك الكل أو المركب أكثر تشابها من حيث التلقائية، والمعيشة فى حياة الجوار التى تغلب على حياة القرويين، ومن ثم تقوم الجماعة الاجتماعية فى الماركسية على الحب والمودة والتفاهم، وكذلك التعاون، باعتبارها أحد الجوانب الواضحة أو المرئية[2]، وأن هذه الجماعة وما تتمتع به من خصائص إنما تكون مستمدة من الواقع الاجتماعى الذى توجد فيه. والذى يتمثل فى المجتمع الاشتراكى، باعتباره مجتمعاً يخلو من التقسيم الطبقى، كما أنه لا يعرف الملكية الخاصة، ومن ثم تختفى فيه الفوارق الموجودة بين الجماعات الاجتماعية، وبذلك لا تعرف الطبقات الاجتماعية طريقها إلى الظهور.

وهكذا، يحكم ذلك المجتمع مبدأ يتحدد فى أن الكل يعمل وفقاً لطاقته الإنتاجية ويأخذ حسب حاجته.

وهكذا، لا ينكر الماركسيون ما يوجد فى ذلك المجتمع من جماعات اجتماعية مثل جماعة العمل وجماعة المثقفين. وعلى الرغم مما يبدو بينها من اختلافات، إلا أن العلاقات الاجتماعية المتبادلة بينهما لا تكون علاقات صراع قائمة على التناقض، بل هى علاقات تعاون، إذا تشترك جميعها فى موقف واحد من عمليات الإنتاج بحيث لا يسمح المجتمع الاشتراكى بتواجد أو ظهور تلك القوانين المتعلقة بالملكيات الخاصة لبعض الأفراد وجماعات المجتمع[3]. ومن هنا

---

(1) Ibid., P. 283.

(2) Rog Er Holmes, Op. Cit., P. 283.

(٣) د. السيد الحسينى، علم الاجتماع السياسى: المفاهيم والقضايا، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤، ص ١٢٨.

نجد أن ما يبدو من تباين اجتماعى بين جماعة العمال وغيرها، إنما يتضاءل حتى يتلاشى وذلك بفضل تقدم المجتمع نحو تحقيق النموذج الشيوعى[١].

هكذا، يتصور ماركس وضع الطبقة العاملة باعتبارها طبقة خاضعة يدفعها وضعها الاجتماعى والاقتصادى المستغل وإحساسها بالاغتراب عن البناء الاقتصادى للمجتمع، إلى الدخول فى صراع من أجل التحول إلى شكل جديد. إنما قد بدأ من التناقض أو نمو وتطور الصراع بين القوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى المجتمع القائم. على اعتبار أن ما يقوم بين تلك الجماعات الخاضعة والأخرى المسيطرة من علاقات إنما تتحدد فى ضوء الخصائص العامة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع ككل[٢].

ويمكن القول، بأن تناول علم الاجتماع الماركسى للجماعات الطبقية بالدراسة والتحليل لا يختلف عن تلك المداخل الأخرى التى قد اتبعها علم الاجتماع بالدراسة والتحليل لا يختلف عن تلك المداخل الأخرى التى قد اتبعها علم الاجتماع الغربى فى تناوله لطبيعة الجماعة وخصائصها، ويبدو ذلك واضحاً فى تأكيد الماركسية على تلك الخصائص المميزة للجماعة فى المجتمع الاشتراكى، باعتباره أن طابعها الأساسى هو الذى يقوم على المودة والصداقة مع الاختفاء لكل تباين أو تناقض واضح بينهما.« فالجماعات المكونة للطبقة العاملة تتميز بطابع العمل الجاد، والكيان الموضوعى، ولكنها ذات طبيعة قابلة للتغير الاجتماعى كغيرها من الجماعات الطبقية الأخرى».

كما أوضحت بعض الدراسات إن استخدام الآلية فى عملية الإنتاج جعلت المهارة الفائقة والعمل الابداعى شيئاً يبدو كأنه فى متناول جميع العاملين، بينما يظهر الواقع المعاش أن تلك الجماعات إنما تتضح أهميتها من خلال السياق السائد فى المجتمع الأكبر، وبذلك يتحدد مفهوم الجماعة فى أنها

(١) المرجع السابق، ص ١٢٨ – ١٣٧.

(2) T. Bottomore. «Marxism and Sociology», In Robert Nesbit & t. B, (edis), Sociological Analysis, London. Heinema, 1978, PP. 120 - 122.

«مجموعة من الناس توحدهم جماعية الأهداف والميول والجهود المشتركة لتحقيقها، وبذلك فهى عنصر التركيب لجهاز محدد من العلاقات الاجتماعية»[1].

ومما هو جدير بالذكر إن كانت الماركسية ترى أن الصراع بين جماعتى العمال والإدارة سوف ينتهى بمجرد إحلال الملكية الجماعية محل الملكية الخاصة. فلقد ظهرت بعض المحاولات الأخرى التى عملت من جانبها على التحقق من مدى صدق هذه القضية، حيث قام الباحث البولندى «جيرى كولاجا» Jiri Colaj بإجراء دراسته على أحد مصانع النسيج فى مدينة لودز مستخدما فيها أداة الملاحظة بالإضافة إلى إجراء بعض المقابلات مع العمال. وكان هذا المصنع يمثل مجتمع الدراسة والبحث، ويتكون مع بعض الجماعات كجماعات الإدارة، وجماعة العمال ثم نقابة العمال، والحزب.

وكانت نظرة العمال إلى الحزب تتساوى مع نظرتهم للإدارة، نظراً لاقتصار عضويته على رجال إدارة المصنع، مما يترتب عليه انعدام عضوية العمال فيه، أو النقابة فلم يكن يتعامل معها العمال إلا فى صورة فردية فى محاولة لحل مشاكل بعض الأفراد التى تخرج عن إطار العمال بالمصنع، بينما كانت هناك مشاعر الانتماء بين العمال نحو مجلس العمال[2].

وقد انتهى «جيرى كولاجا» فى دراسته هذه إلى نتيجة مؤداها أن هناك بعض العوامل الأخرى غير الملكية الجماعية تعتبر مسئولية عن خفض الصراع بين جماعات العمال والإدارة، ويبرز فيها ما تلعبه أساليب الاتصال من دور فعال فى العمل على خفض حدة الصراعات الموجودة داخل مجتمع المصنع. حيث لم يوجد توجد بين جماعات العمال فى المصنع تجاهه، وذلك فى ضوء فكرتى الملكية والمسئولية. وقد أرجع ذلك إلى عدم وجود بعض قنوات الاتصال الفعالة بين جماعات العمال والإدارة والتى يمكن للعمال من خلالها التعبير عن أهدافهم

---

(١) د. كمال دسوقى، مرجع سابق، ص ص ٨٣ - ٨٤.

(٢) د.محمد على، اتجاهات جديدة فى علم الاجتماع الصناعى، فى : د. أحمد الخشاب وآخرون، دراسات فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٥، ص ٣٢٣.

ومستويات طموحاتهم أو التأثير من خلالها على الإدارة. مما ترتب عليه أنهم لم يشعروا بكونهم جماعة متماسكة يمكن أن تواجه جماعة الإدارة، وبالتالي لا يمكن لنا القول مع الماركسي أن الصراع بين جماعات المجتمع يمكن له أن ينتهي بمجرد إحلال الملكية الجماعية محل تلك الملكية الخاصة، طالما انتهت مثل هذه الدراسة إلى تلك النتائج على اعتبار أن مجتمع المصنع جزء من البناء الاجتماعي للمجتمع الأكبر الذي يوجد فيه[1].

ثانياً ـ الماركسية ومحددات البنية الطبقية:

حدد كارل ماركس الطبقة الاجتماعية على أنها «تتكون من مجموعة من الأفراد الذين يحتلون نفس الموقع في هيكل العلاقات الاجتماعية للإنتاج». وبالنظر إلى هذا المفهوم نجده ينطوي على محاولة تحديدها في ضوء عدد من العناصر منها علاقتها الاجتماعية بغيرها من الطبقات الأخرى في المجتمع، تلك العلاقة التي تنشأ في سياق التنظيم الاجتماعي للعلاقات الاقتصادية، وتعتبر هذه العلاقات الاقتصادية بمثابة المحدد النهائي لغيرها من العلاقات الاجتماعية[2].

كما يذهب «لينين» في تحديده للطبقة بأنها «جماعات كبيرة من الناس تختلف كل جماعة منها عن الأخرى عن طريق علاقتها... بوسائل الإنتاج،ودورها في التنظيم الاجتماعي للعمل، أي عن طريق أشكال وصور حصولها على نصيبها من الثروة الاجتماعية.وعلى هذا فالطبقات جماعات من الناس يمكن لواحدة منها أن تستولي لنفسها (تستغل) على عمل الأخرى نتيجة للموقع الذي تشغله في عملية الإنتاج»[3].

وبناء على ما سبق، يمكن لنا القول أن التحليل الماركسي التقليدي للطبقة إنما يهتم بتناولها في ضوء علاقتها بملكية وسائل الإنتاج، وبالتالي ينقسم

(١) المرجع السابق، ص ٣٣٤.

(٢) إبراهيم حسن العيسوي، نحو خريطة طبقية لمصر، الإشكال النظرية والاغتراب المنهجي من الواقع الطبقي المصري، القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٨٩، ص ١٦.

(٣) غريب سيد أحمد، الطبقات الاجتماعية، النظرية والقياس، تقديم محمد عاطف غيث، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص ٥١.

الناس فى ضوء ذلك إلى من يملك ويسيطر على وسائل الإنتاج (سواء كانت رأس مال نقدى أو عينى) ويستطيع أيضاً الحصول على فائض الإنتاج، وهذا فى حد ذاته يمثل وضع الطبقة الرأسمالية. وذلك فى مقابل طبقة «البرولتياريا» التى لا تملك وسائل الإنتاج، ومن ثم فهى تلجأ إلى بيع قوة عملها فى سوق العمل نظير ما تحصل عليه من أجر يتحدد فى ضوء عملية العرض والطلب. مما يجعلها تتعرض فى النهاية للاستغلال الاقتصادى الذى تمارسه عليها الطبقة الرأسمالية. وفى إطار هذا التقسيم الثنائى للطبقات الاجتماعية كما ورد عند ماركس نجده أيضاً يعترف بإمكانية وجود جماعات أخرى كالفلاحين وصغار الملاك والفقراء، إلا أنه لا يكون لهم دور يذكر فى إحداث أية تحولات اجتماعية تاريخية[1].

وذهب ماركس إلى أن هذه الطبقات التى حددها فى نمط الإنتاج الرأسمالى تمثل فى الواقع تجمعات ملموسة وواضحة، وهى قوة اجتماعية حقيقة لديها القدرة على تغيير المجتمع، هذا التغيير الذى يأتى من جانب الطبقة العاملة وخاصة حينما يتبلور لديها الوعى بمصالحها، وتدرك أوضاعها الحقيقية فى عملية الإنتاج واهتماماتها المشتركة كطبقة، وبالتالى تحاول أن تنظم صفوفها وتدخل فى صراع مع غيرها من الطبقات الرأسمالية ذات الاهتمامات والمصالح المتعارضة معها، ومن ثم يكمن جوهر هذا الصراع فى تعارض المصالح والاهتمامات الطبقية، والذى ينتهى كما كان يتوقع ماركس بانتصار الطبقة العاملة على الطبقة الرأسمالية. وهذا ما عبر عنه فى محاولة تمييزه بين الطبقة فى ذاتها والطبقة لذاتها. على اعتبار أن الطبقة فى ذاتها تشير إلى الوضع الاقتصادى لها فى عملية الإنتاج باعتباره البعد الموضوعى لتحديد الطبقة، بينما تشير الطبقة لذاتها إلى إدراك الطبقة لوضعها وتبلور وعيها بمصالحها الحقيقية واهتماماتها المشتركة، وبالتالى تحاول تنظيم نفسها فى حزب أو تنظيم سياسى مستقل يعمل على تحقيق أهدافها التى تسعى إليها، ومن ثم يتم حسم نتائج الصراع لصالحها فى نهاية الأمر.

---

(1) Nicholas Slercromlie, Stephen Hill Bryan S. Turner, Dictionary of Sociology, N. Y: Longman, 1984. PP. 39, 42.

وهكذا نجد أن ماركس كان ينظر إلى الطبقات الاجتماعية فى أنها بمثابة قوى اجتماعية حقيقية لديها القدرة على تغيير المجتمع، ومن ثم انتهى فى ذلك إلى أن تاريخ كل مجتمع يعتبر هو تاريخ الصراع بين الطبقات. صراع بين ما يملك ومن لا يملك، وأن ما يحدث من تغير اجتماعى إنما يكون من خلال الثورات الطبقية ولذلك تعتبر الطبقة الاجتماعية بمثابة المصدر الأساسى للتغير الاجتماعى فى المجتمع وما يحدث فيه من تحولات جذرية[1].

كما أهتم ماركس أيضاً بتحديد العلاقة بين الحياة الاقتصادية والنظم الاجتماعية الأخرى، ومن ثم كان يعتقد أن الاقتصاد هو المحدد لطبيعة المجتمع، وعلى الرغم من نظرته إلى العمل الإنسانى باعتباره أساس النشاط الاجتماعى، إلا أنه يرى وجود الاستقلال النسبى للنظم الاجتماعية - كالأسرة والدولة وغيرهما - عن النظام الاقتصادى، ومع ذلك فهى فى تطورها تكون محكومة فى نهاية الأمر بالنظام الاقتصادى ومن ثم تتأثر بما يحدث فيه أيضاً، ولقد ضمن ذلك فيما يعرف بنظرته عن البناء التحتى والفوقى للمجتمع وانتهى من تحليله للمجتمعات الإنسانية وتقسيمه لها إلى طبقات بقوله، إن أساس الطبقات الاجتماعية إنما يكمن فى علاقات الإنتاج[2].

وبالنظر إلى تحليلات ماركس للطبقات الاجتماعية وما طرحه من محددات لتصنيف البناء الطبقى فى المجتمع الرأسمالى لجدها تعرضت لانتقادات عديدة وذلك كما يذهب «جون ركس» فى مؤلفه: «مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية» (١٩٧٣م) إلى أن تحديد ماركس للطبقات الاجتماعية فى ضوء علاقتها بوسائل الإنتاج ينتهى إلى حصرها فى طبقتين أساسيتين هما الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة بينهما تناقض وعداء مستمر فى المصالح الاهتمامات، ومن ثم فإن تحديده هذا كان أكثر تعقيداً وذلك نظراً لظهور الطبقة الوسطى التى لم يهتم بها ماركس فى تحليله وما تمارسه أيضاً من دور مؤثر فى مجال

(1) Zygmunt Bauman, «Social Class», In: The Social Science Encyclopedia, (ed), Adam Kuper and Jessica, London: Routledge, 1985. PP., 110 - 111.

(2) Nicholas Slercromlie, Stephen Hill Bryan S. Turner, Dictionary of Sociology, Op. Cit., 128.

العمل[1]. ومن ناحية أخرى ترى أن التقسيم الثنائى للطبقات لا يمثل واقع المجتمعات النامية، ومن ثم فإنه يضعه فى قوالب جاملة، كما أنه من الصعب أيضاً تصنيف كل من يبيع قوة عمله على أنه يدخل فى نطاق الطبقة العاملة وذلك نظراً لظهور أبعاد أخرى جديدة لتصنيف الطبقات الاجتماعية لم ترد فى إعمال ماركس وحتى الماركسية التقليدية[2].

كما يؤكد «إيرك أولين رايت» فى دراسته بعنوان: «الطبقات» (١٩٨٥) أنه على الرغم من الأهمية المحورية لمفهوم الطبقة فى عمل «كارل ماركس» إلا أنه لم يستخدمه بطريقة دقيقة ومنظمة. وانه فى مناقشته للطبقات الاجتماعية بالفصل الأخير من المجلد الثالث لرأس المال طرح سؤال عما تتكون منه الطبقة؟ إلا أنه فى نهاية الأمر لم يقدم إجابة منظمة عليه. ورغم ذلك فإن أعماله كانت غزيرة فى التحليلات الطبقية. وهى فى عمومها تتمركز حول مشكلتين هما رسم الخرائط البنائية المجردة (*) لعلاقات الطبقة، والتحليل الملموس للخرائط الطبقية بالنظر من خلالها للأشخاص كفاعلين[3]. ومن ناحية أخرى يذهب «بولانتزاس» إلى أن تفسير «ماركس» للطبقات كان تفسيراً اقتصادياً تأثر فيه

---

(١) جون ركس، مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

(٢) إبراهيم حسن العيسوى، نحو خريطة طبقية لمصر، مرجع سابق. ص ١٨ – ١٩.

★ يهتم النوع الأول من التحليلات المجردة بالطريقة التى يقوم بها التنظيم الاجتماعى تحديد بناء الأماكن الصامتة (الفارغة) فى علاقات الطبقة، والتى تكون على مستوى عالى من التجريد، ولا تتطابق كثيراً مع الواقع الفعلى بالمجتمع ويوجد هذا التحليل البنائى للطبقات فى معظم الأعمال النظرية الشهيرة لكارل ماركس وخاصة فى رأس المال الذى حاول فيه تقديم تفسير لبعض الرموز فى بناء و ديناميات نمط الإنتاج الرأسمالى. فى حين نجد أن النوع الثانى من التحليل وهو التحليل الملموس للخرائط الطبقية لا يهتم كثيراً ببناء الطبقة، ولكن بالطرق التى من خلالها ينتظم الناس داخل بناء الطبقة فى تجمعات تدخل فى صراع ونضال، ومن ثم يوجد هذا التحليل للبنية الطبقية فى كتابات ماركس السياسية والتاريخية، وذلك محاولة منه لفهم انتظام القوى الاجتماعية فى تفسير تحولات معينة، اعتمدنا فى ذلك على المصدر التالى:
Erik Olin Wright, Classes, Op. Cit., PP., 6 -7.

(3) Erik Olin Wright, Classes, London: verso, 1985. P., 6.

بتلك المفاهيم التى وردت فى الاقتصاد السياسى الكلاسيكى لدى مدرسة «ريكارود» وغيرها من مدارس الاقتصاد السياسى، كما انعكس ذلك على تفسيره الاقتصادى لمفهومى علاقات الإنتاج ونمط الإنتاج[١].

علاوة على ذلك، يرى «بولانتزاس» أنه من الخطأ التمييز بين الطبقة فى ذاتها والطبقة لذاتها كما فعلت الماركسية التقليدية، وخاصة فى تأكيدها على أهمية الدور و الوعى الطبقى[٢]. وهذا أيضاً ما عبر عنه «جورج لوكاش» بمقولة الوعى الزائف. حيث نجده يحاول التمييز بين نوعين من الوعى حدد الأول فى الوعى بالطبقة، والذى يعبر عنه من الناحية الأمبريقية فى الأفكار والمقاصد التى تظهر لأعضاء الطبقة من خلال ممارساتهم وخبراتهم بأعمال الحياة اليومية، فى حين يتحدد الثانى بالوعى الطبقى والذى يظهر فقط من خلال الإلمام بالموقف فى المجتمع ككل، وكذلك عن طريق الدراسة الفعلية لكافة الاحتمالات والمعلومات المرتبطة بالنسق الاجتماعى[٣]. وأنه بعد تمييزه هذا نجده يتساءل هل يكون ذلك الوعى الزائف مقصوراً على الطبقة العاملة فقط؟ إلا أن الإجابة تكون بالنفى، وبالتالى لن يكون قاصراً على طبقة دون أخرى لأن ما يوجد من وعى طبقى لدى «البورجوازية» إنما يمثل شكلاً من أشكال الوعى الزائف، لأنهم يريدون الاحتفاظ بكل مكاسبهم بل والعمل من جانبهم على زيادتهم. ومن ثم ينظرون إلى نمط الإنتاج الرأسمالى وأشكال الدولة البورجوازية على أنهما يمثلاً كافة الظروف الملاءمة لتحقيق مصالحهم.

وهكذا، يسعون نحو المحافظة على سلامة النسق الاجتماعى القائم دون محاولة منهم لفهم ما يحتويه من تناقضات كامنة، والعمل على حسمها. ومن ناحية أخرى أيضاً فإن ما يوجد من وعى طبقى لدى «البرولتياريا» نجده يمثل

---

(١) نيكوس بولانتزاس، السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية، ترجمة عادل غنيم، الطبعة الكاملة، القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٩و ص ٧٢.

(2) Nicos Poulantzas, Classes In Contemporary Capitalism, London: verso, 19778. P., 16.

(3) Zygmunt Bauman, «Social Class», In: The Social Science Encyclopedia, Op. Cit., P. 111

الشكل الثانى من أشكال الوعى الزائف لأنها تعتقد أنها تتميز بوعى طبقى يمكنها من اختيار قادتها وزعمائها الذين يتحدثون باسمها ويعملون على تحقيق مصالحهم الطبقية ككل، وذلك نظراً لما يتمتع به هؤلاء القادة من وعى معترف به بين أفرادها فى الحديث باسمها، إلا أنه فى حقيقية الأمر أحياناً ما يسعى هؤلاء القادة إلى أى خدمة الطبقات العمالية بالغرب باعتبارهم يحاولون خدمة الطبقة البورجوازية. كما أنه غالباً ما يكون لهؤلاء القادة أهدافهم ومصالحهم الخاصة التى يسعون إلى تحقيقها بشتى الطرق والوسائل الممكنة وبغض النظر عن نتائجها على الآخرين[١].

وعلى ضوء ما سبق، أنتهى «جورج لوكاش» إلى نتيجة مؤداها: أن ما يوجد من وعى طبقى سواء لدى «البرولتياريا» أو غيرها من الطبقات يكون بمثابة وعى زائف، ومضلل وغير موجه، نظراً لارتباطه بالخبرة المحدود ه للأفراد على المستوى الأفقى وهى غالباً ما تكون متجزئة وغير شمولية[٢].

كما أنه حينما تحدث «ماركس» عن الطبقات الاجتماعية فى ضوء نمط الإنتاج الرأسمالى الخالص فإن تناوله لها كان على مستوى عالى من التجريد، وإن تحليله لها فى ضوء علاقات الإنتاج كان قاصراً فى التركيز على الاستغلال المادى فقط، وبالتالى لم يأخذ فى اعتباره ما حدث أيضاً من تحولات فى شكل الملكية والسيطرة[٣]. وما ترتب عليها من ظهور ميكانيزمات أخرى جديدة للاستغلال ليست قاصرة على الاستغلال المادى، وغير ذلك من تحولات ارتبط بعضها بظهور الطبقة الوسطى وبعضها الأخر. بما يحدث من تغيرات فى مجال علاقات العمل والمهارة ومكان العمل وطبيعته[٤].

---

(١) جون بلاميناتز، الايديولوجيا، ترجمة إسماعيل على سعد، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠، ص ١٤١، ١٤٦، ١٤٧.

(2) Zygmunt Bauman, «Social Class», In: The Social Science Encyclopedia, Op. Cit., P. 11.

(3) Erikolin Wright, Classes, Op. Cit ., PP., 10, 65.

(4) Nicholas Abercrombie, Stephen Hill and Bryans. Turner, Dictionary of Sociology, Op. Cit., 128.

كما لم تتحقق تنبؤات «ماركس» فى تحليله للطبقات بالمجتمعات الرأسمالية، وخاصة فى تأكيده على ثورية الطبقة العاملة بالمستقبل، واتساع الفجوة بينها وبين الطبقة «البورجوازية»، إلا أنه نظراً لما حدث من تطورات كالعمل على رفع مستوى معيشة العمال من خلال إجراءات عديدة قد أثرت فى النهاية على أهدافها الثورية التى كان يتوقعها لها ماركس بأنها سوف تعمل على تغيير المجتمع. وكذلك أيضاً فإن ما حدث من تطورات أدت من ناحية أخرى إلى تضييق تلك الفجوة التى كانت تفصل بين هاتين الطبقتين والتى كان يتوقع لها ماركس أن تزداد اتساعاً بالمستقبل[1]. هكذا يمكن القول إن تنبؤات ماركس فى تحليل الطبقات لم يصادفها أو يخالفها الصواب فى أن تتحقق على أرض الواقع. وخير دليل أو برهان على ذلك تلك التطورات المعاصرة التى وقعت مؤخراً فى الاتحاد السوفيتى وأدت إلى اختفائه كقوة عظمى من على الخريطة الاقتصادية والسياسية والعسكرية على المستوى العالمى، ومن ثم تغير اسمه إلى جمهوريات روسيا الاتحادية الآن.

علاوة على ذلك، ظهور بعض المشكلات التى لا تتصل بهذا التحديد الماركسى التقليدى للطبقات الاجتماعية، وإنما ترتبط فى حقيقة الأمر بطبيعة المجتمعات النامية من ناحية، ومن ناحية أخرى بما حدث فيها من تحولات أدت إلى قيام القطاع العام فى بعضها بما فى ذلك المجتمع المصرى وغيره، وما ترتب عليها من ظهور ميكانيزمات أخرى للاستغلال والسيطرة ، ويمكن من خلالها أن تستحوذ احدى الطبقات على فائض العمل الذى أنتجته الطبقة الأخرى نظراً لما تحتله من مواقع مؤثرة فى هيكل بناء السلطة سواء داخل العمل أو خارجه على مستوى المجتمع الأكبر، وكذلك أيضاً نظراً لتبعية هذه المجتمعات النامية[*]. لغيرها من المجتمعات الرأسمالية المتقدمة، وما مرت به المجتمعات النامية من مراحل تطور مختلفة جعلها فى نهاية الأمر تتميز بخصوصية واضحة وذات مستويات متعددة[2].

---

(١) السيد الحسينى، علم الاجتماع السياسى «المفاهيم والقضايا»، ط٣، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤. ص ٨٧.

★ أن طبيعة المجتمعات النامية وخصائص بنيتها الطبقية ومدى اختلافها عن غيرها فى المجتمعات الصناعية المتقدمة، وعوامل هذا الاختلاف ونتائجه على مكونات بنائها الطبقى. فإن هذا سوف يتناوله الباحث فى دراسة أخرى مستقبلية.

(٢) إبراهيم العيسوى، نحو خريطة طبقية لمصر، مرجع سابق، ص ص ٢٢، ٢٤.

ثالثاً - الطبقة الوسطى والتغيرات فى مجالات العمل وشكل الملكية.

يذكر «رايت» أن المشكلة التى ظهرت فى تحليل البناء الطبقى بالمجتمعات الرأسمالية المتقدمة هى «عقبة الطبقة الوسطى» حيث إنه من الواضح أن وجود أو ظهور الطبقة الوسطى الجديدة كان يمثل فى حد ذاته المحور الأساسى الذى تدور حوله معظم الانتقادات التى وجهت إلى الماركسية الكلاسيكية فى تناولها للطبقات الاجتماعية، الأمر الذى دفع بأصحاب الاتجاه النقدى فيما بعد إلى الاهتمام بالطبقة الوسطى، ومحاولة وضع خط - تصورى - يفصل بين حدود طبقة البرولتياريا، وغيرهم من العاملين فى الطبقة الوسطى ويحصلون على أجر[1].

ويؤكد كل من «جون آرى، نيكوس» فى مؤلفهما: رأس المال، العمل والطبقات الوسطى (١٩٨٣) على أهمية تحديد وضع تلك الطبقات التى تتوسط رأس المال والعمل، ومن ثم فإن تناول تلك العلاقات والاختلافات الهامة لأصحاب السلطة وحائزيها من بين ذوى الياقات البيضاء الماهرة، وعمال الخدمات إنما يمثل أهمية أكثر من محاولة تصنيفهم لطبقات. وبصفة عامة اهتموا فى تحليلهما للطبقات فى الرأسمالية المعاصرة بصفة خاصة على تحليل وضع الطبقة الوسطى(*). وبالتالى يرون أنه من الخطأ أن نطلق عليها الطبقة الوسطى الجديدة.

---

(1) Erik Olin Wright, Classes, Op. Cit., P. 13.

★ ترجع بداية ظهور المصطلح إلى ما حدث من اختلافات فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأول من استخدمه رف، توماس جزبورن Rev. Thomas Gisborn عام ١٧٨٥ للإشارة إلى طبقة الملاك والملتزمين التى تجمع بين أصحاب الملاك الأراضى من ناحية، وعمال الصناعة بالحضر والملل الزراعيين من ناحية أخرى فى ذلك المجتمع الذى هو فى طريق التحول بينما يستخدم هذا المصطلح فى الوقت الحالى للإشارة إلى مهن ذوى الياقات البيضاء المتنوعة من بين المهنيين فى المستويات العليا منهم، وأولئك العاملين فى المهن الكتابية التى تخضع بصفة عامة لروتين نسبى.

وقد اعتمدنا فى ذلك على المصدر التالى: Ibid., P. 1.

كما ظهر أول استخدام لمصطلح الطبقة الوسطى فى القاموس الإنجليزى عام ١٨١٢، وكان يرى الباحثين من قبل أن المجتمع يتكون من جماعتين مختلفين، وذلك مع وجود تنوع بينهما، إلا أنه مع حدوث التغير السريع فى المجتمع، وخاصة فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع فقد تطلب هذا استخدام مصطلح جديد ليحل محل ذلك المصطلح القديم. واعتمدنا فى ذلك على:

- Roger King And John Roynor, The Middle Class, 2 rd Edition, London, Iongmainc., 1981. P., 44

عموماً، لقد أصبحت هذه الطبقة الوسطى فى المجتمعات الصناعية والرأسمالية أكثر تبايناً واختلافا من الناحية المهنية. ومن ثم يوجد الآن العديد من المهن يمكن وصفها بأنها طبقة وسطى، والتى تتنوع فيما بينها فى المهارات، والمؤهلات وغيرها. وهكذا أصبحت الآن تضم بين مكوناتها أجزاء عديدة ليست متجانسة، وهذا مما يثير مشكلات نظرية تتعلق بكيفية تعيين الحدود أو الفواصل بين الطبقات وكذلك الجماعات الطبقية التى تدخل فى نطاق هذه الطبقة الوسطى، وفى ذلك نجد وجهتى نظر أحدهما ترى أنها أكثر تبايناً واختلافاً فى المهنة، وبالتالى أصبحت أكثر استقطاباً نحو العمل اليدوى، ومن ثم فهم يتحولون فى النهاية إلى طبقة «البروليتاريا» فى حين تؤكد الأخرى على أنهم يمثلون تجانس نسبى، ويختلفون فى أوضاعهم عن الطبقة «البروليتاريا» بما يتمتعون به من قدرات وسيطرة فى مجال العمل، ومن ثم فهم يمثلون الطبقة الوسطى التى تتوسط ما بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة(١).

وفى الحقيقة أن التمييز بين وجهتى النظر السابقة يعد تمييزاً بين تحليلين أحدهما يؤكد على أنها مجرد فئة أو درجة وسيطة، ومن ثم لا يكون لها خصائص طبقية محددة. بينما يرى التحليل الثانى أنها تمثل طبقة متميزة وبالتالى يكون لها اهتمامات ومصالح خاصة. إلا أنه بغض النظر عن ذلك فإن المشكلة الجديرة بالاهتمام هو علاقتها بغيرها من الطبقات الاجتماعية، وعلى الأخص الطبقة العاملة. ومن أجل التوصل إلى ذلك يذهب البعض إلى ضرورة تناول وجهة نظر كارل ماركس فى الطبقة الوسطى وخاصة فيا أكده فى بيان الحزب الشيوعى الذى أصدره كل من ماركس وانجلز بأنه فى ظل النظام الرأسمالى كانت توجد طبقة وسطى تتوسط بين أثنين من المعسكرات العدائية وهما طبقة البورجوازية، والطبقة العاملة. وإن البورجوازية الصغيرة التى كانت تتكون من صغار المنتجين، والفتانين، وأصحاب الحرف اليدوية قد اختفت تدريجياً من حيث وجودها كطبقة ومن ثم كان الصراع أكثر وضوحاً من جانب العمال ضد الرأسماليين، وبالتالى فإن ما يوجد من طبقة وسطى فإنه سوف يلحق بأى من

(1) Nicholas Abercrombie & Jonhn Urry, Capital, Labour and Middle Classes, London: George Sllen & Unwin, 1983, PP., 2 - 7.

هاتين الطبقتين (الرأسمالية أو الطبقة العاملة) [1].لأنـه بـالنظر لطبيعـة النظـام الرأسمالى نجده غالباً ما يهدف إلى إنجاز مجموعتين من الوظائف هما تـراكم رأس المال، وإنتاج فائض القيمة. وأن أحدهما تكـون معتمـدة علـى الأخـرى، حيـث تعتبر الأولى بمثابة وظيفة للشخص الرأسمالى، فى حين تتمثل الثانية فـى العمـل الذى يقوم به الطبقة العاملة[2].

كما وجه نقداً إلى وجه النظر الماركسية التقليديـة هـذه نظـراً لتجاهلـها أهمية نمو وتطور ما يسـمى بالطبقـة الوسـطى الجديـدة والتـى ظهـرت داخـل المجتمعات الرأسمالية المتطورة، وكان ظهورها فى الوقت نفسه نتيجـة للتطـورات التى حدثت فى مجـال الصـناعة وغيرهـا، وتزايـد الانفصـال بـين عمـل الإدارة وملكية رأس المال، ومن ثم كان عمل الإشـراف مشـروطاً بجـيش مـن المكتسبين والمديرين، علاوة على ذلك، ظهور الشركات متعـددة الجنسيات عـابرة البحـار وفرض سيطرتها على عملية العمل وذلك فى شـكل رأس المـال. والأكثـر مـن ذلك ما حدث من تزايد فى التجارة والخدمات، وظهور تلك الشركات التجارية المباشرة للإنتاج الرأسمالى، وأخيراً ما حدث انخفاض فى عدد السكان العاملين فى مجال الإنتاج، وتزايد العاملين فى مجال الخدمات من بين الطبقات الوسـطى. كـل هذه العوالم أسهمت فى ظهور هـذه الطبقـة الوسـطى الجديـدة، والتـى ارتـبط ظهورها بتطور الرأسمالية بصفة عامة[3].

وعلى الرغم من تلك الانتقادات السابقة التى وجهت إلى مـاركس نجـد أيضاً أن ماركس قد وجه نقداً إلى نظرة «مالتس» نحو العمال غير المنتجين الـذين وجدهم يستهلكون الفائض، وذلك اعتقاداً منه بأن «مالتس» كـان يأمـل فـى أن الطبقة الوسطى سوف تزداد فى حجمها وتكون برولبتاريـا عاملـة فـى النهايـة

---

(1) Nicholas Abercrombie & Jonhn Urry, Capital, Labour and Middle Classes, Op Cit., P. 49.

(2) Jon Urry, «A Highly Significant Intermediate Class», In: The New Working Class?, (ed), Richard Hyman And Robert Price, London: Macmillan Press, 1983, P. 104.

(3) Nicholas Abercrombie & Jonhn Urry, Capital, Labour and Middle Classes, Op. Cit., P. 50.

وبذلك يتناقص حجمها بين إجمالى السكان، كما كان أيضاً ريكاردو Ricardo من ناحية أخرى متناقضاً مع المالتسية لأنه كان يتجاهل ذلك التزايد المستمر للطبقات الوسطى التى تقع فى المنتصف بين العمال من جانب، والرأسماليين وملاك الأرض من جانب آخر.

وهكذا يبدوا واضحاً بأن ماركس كان على وعى بتزايد حجم الطبقة الوسطى ومع ذلك لم يهتم بها اهتماماً كافياً وخاصة فى تحليله النتائج المترتبة على تطورها، وكان ينظر لها على أنها تمثل حاجزاً بين الطبقتين الرئيسيتين فى النظام الرأسمالى وأنها تؤدى إلى طمس المعالم والحدود بين الطبقات القائمة، ويمكن تفسير ذلك فى أنه كان مهتماً بصيرورة النظام الرأسمالى مما جعله يتغاضى عن تناول الطبقة الوسطى. كما يرى أيضاً بعض الماركسيين أن الطبقة الوسطى مجرد جماعات غير مستقرة ومتباينة أساساً، ولا تحوز قوة ومن ثم ليس لها إرادة فى إحداث تحولات أساسية تؤدى إلى تغيير المجتمع لأنها بلا مضمون حقيقى. وبالتالى فإن تقسيم العمل فى المكتب، ونمو التعليم العام سوف يقلل من قيمة أصحاب ذوى الياقات البيضاء[١].

كما تأثرت الطبقة الوسطى بأحداث القرن العشرين، خاصة الأحداث الهامة منها كالحروب، والنضال المدنى، وظهور الوفرة والأزمات الاقتصادية والتناقضات الاجتماعية، والتحولات فى القوى السياسية. وقد انعكس أثر ذلك كله فى نهاية الأمر على تكوينها الطبقى وعلاقاتها الطبقية أيضاً، و بالتالى تركت هذه الأحداث جميعها آثارها الكمية والكيفية الواضحة على هذه الطبقة الوسطى[٢].

أما إذا تناولنا وضع الطبقة الوسطى باعتبارها تحوز سلطة وفى الوقت ذاته لا تمتلك رأس المال، وذلك عند مقارنتها بالطبقة العاملة فى مختلف مواقف العمل. نجد جوانب اختلاف عديدة تسود بينهما[٣]. إلا أننا نجد كلا من

---

(1) Nicholas Abercrombie & Jonhn Urry, Capital, Labour and Middle Classes, Op. Cit., PP. 50 - 51.

(2) Roger King & John Raynor, The Middle Class, Op. Cit., P. 57.

(3) Ibid., P. 145.

«روجر كينج، جون رينور» يحذران من تلك المقابلات الزائدة فى البساطة حينما نحاول المقارنة بينهما وذلك لأمرين أولهما. يتضح من تزايد نقاط الالتقاء فى كلتا الطبقتين فى جوانب ومؤشرات عديدة منها السلطة، بيئة العمل، والممارسات السياسية، إلا أنه على الطرف المقابل نجد بيّنها تبايناً واضحاً يبدو بصفة خاصة فى الطبقة الوسطى ذاتها التى لم تشكل وحدة متجانسة حتى فى عصر البورجوازية الكلاسيكية فى القرن التاسع عشر(١). ومن ثم قد نشأت فى معظم الدول الأوروبية . من عناصر كانت تعمل فى المهن الحرة والحرف والصناعات والتجارة فى المدن وبالتالى تحتوى هذه الطبقة المتوسطة الآن على قطاع كبير من السكان فيه أصحاب أعمال وحرف ومهن حرة، ومثقفون وموظفون، وزراع، وبعض العمال المهرة (٢). ومن ثم فهى تمثل جماعات متباينة، ويرجع هذا التباين فى حقيقة الأمر إلى ما حدث من تغيرات فى البناء المهنى، ومعدلات الحراك الاجتماعى لدى بعض الجماعات، وكذلك دخول المرأة إلى مجال العمل خارج المنزل(٣).

ومما هو جدير بالذكر، أننا إذ نظرا إلى المهنة وما يرتبط بها من مكافآت يحصل عليها أصحاب العمل العقلى فى مقابل أصحاب العمل اليدوى نجد أيضاً تبايناً واضحاً بين كل من الطبقة الوسطى ذاتها، وبينها وبين الطبقة العاملة أيضاً. كما أنه فيما يتعلق بظروف العمل فإننا إذا اعتبرنا جماعات الأشخاص الذين يقومون بإعمال على الآلة الكتابية «Tpists» يمثلون الطبقة الوسطى لأنهم يعملون بالمكاتب ويرتدون لياقات بيضاء، إلا أنه من ناحية أخرى نجد إن ظروف عملهم تكون كئيبة وروتينية، وأن ما يحصلون عليه من أجور تكون منخفضة، كما لا يوجد لديهم سلطة وتكاد تنعدم آمالهم فى إحراز تقدم أو إحداث حراك اجتماعى، وذلك نظراً لضآلة الفرص المتاحة أمامهم(٤).

---

(1) Ibid., P. 142.

(٢) إبراهيم مدكور وآخرين، معجم العلوم الاجتماعية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥، ص ٣٦٥.

(3) Roger King & John Raynor, The Middle Class, Op. Cit., P. 146.

(4) Ibid., P., 243.

كما يذهب «كورى» Corey فى مؤلفه الطبقة الوسطى (١٩٣٥) إلى وجهة نظر محدودة ترى أن الطبقة الوسطى الذى كان لها أسهام واضح فى الماضى وتحقق حضارة الرأسمالية أصبحت الآن غير مالكة، وتزايد عدد العاملين منها فى مجال الخدمات وأعمال البيع. كما لم تعد الأزمة ببساطة فى أزمة الملكية لرأس المال التى تحدث عنها ماركس من قبل حيث تغير معها أساليب الاستغلال، ومن ثم استبدل الاستغلال الاقتصادى بالاستغلال القائم على السيطرة الآن[1].وهكذا أصبح فى مقدور هؤلاء ممارسة الاستغلال على الأشخاص الآخرين الخاضعين لهم فى إطار عملية العمل دون أن يمتلكون رأس المال. وهم يمثلون الأغلبية من جماعات الطبقة الوسطى إذا ما تم مقارنتها بغيرهم من الخاضعين فى الطبقة العاملة أو حتى مع باقى الجماعات الخاضعة من الطبقة الوسطى ذاتها - وبالتالى يجد هؤلاء جميعاً من الضرورى عليهم تكوين وحدة مع طبقة البرولتياريا نظراً لما يجمعهم من صفات مشتركة كالإحساس بعدم الأمان فى العمل وإنجازهم لمهام روتينية نسبياً داخل التنظيمات الصناعية الضخمة، ونظراً لاتصاف عملهم بالطابع الجماعى، وأن كان البعض يرى أن الطبقة الوسطى تختلف عن الطبقة العاملة فيما تتملكه بعض الجماعات المكونة لها من سيطرة داخل مجال العمل، إلا أن «كورى» يعترها سيطرة محدودة فى نهاية الأمر[2].

وثمة تحفظات على وجهة نظر «كورى» يثيرها «جون آرى» فى نقاط محددة هى:

١ - أن كورى يركز أساساً على ما حدث من تغير فى بناء الرأسمالية الغربية عموماً، والتى تعبر عما حدث من تحول فى موقف السوق لموظفى أعمال البيع أو القائمين بأعمال المبيعات، ومن ثم فإنه لم يشير إلى كثير من التغيرات التى حدثت فى عملية وانعكاساتها على هؤلاء العاملين.

(1) Nicholas Abercrombie & Jonhnurry, Capital, Labour and the Middle Classes, Op. Cit., P., 51.

(2) . Ibid., 52.

٢ - إنه نظر لهذا التطور فى ضوء مجموعة من العوامل منها تزايد أهمية التوزيع، هذا فضلاً عن الإنتاج وكذلك نمو التخصص وتقسيم العمل فى عمليات الإنتاج مما أدى إلى حدوث تدرج فى مستويات العمالة الفنية القائمة بإعمال البيع ، وذلك إلى جانب تزايد استخدام الإدارة العلمية والتخطيط فى عملية الإنتاج، وتزايد وظائف السيطرة ونمو بعض التنظيمات والنقابات استجابة لتحيق مصالح جماعية خاصة.

٣ - وأخيراً تأكيده على نتائج هذا التطور وخاصة فيما حدث من تزايد فى حجم هذه الفئات الوسطى وتناقص فى مستواها الاجتماعى.

كما يؤكد «كليندر» Klingende على أن العاملين بالطبقة الوسطى لا يمثلون طبقة حقيقية، بل هم مجرد فئة تتوسط بين الرأسماليين والعمل نظراً لأنهم لم يتجزوا وظيفة اقتصادية متميزة إلا أنه يؤخذ على وجهة النظر هذه بعض نقاط الضعف منها أن ما ينجزه هؤلاء من وظائف الضبط والأشراف والمراقبة بفعل ما يحوزونه من سلطة تجعلهم يتميزون فى بعض الجوانب عن إنتاج الطبقة العاملة، وذلك رغم ما يجمعهم من ظروف عمل تكاد تكون متشابهة إلى حد ما وخاصة فى طابع العمل الجماعى داخل التنظيمات الضخمة والمعقدة فى أدوارها. كما يعانى هذا التراث أيضاً من قصور فى بعض جوانب منها أنه لم يشير إلى ما يسمى بمصالح البرولتياريا ولم يتابع مناقشة الوضع الاقتصادى للطبقة الوسطى، ولذلك أهمل مناقشة جوانب أخرى مما جعل تحليله فى النهاية قاصراً على تحليل عملية العمل لأصحاب الياقات البيضاء وذات مستوى محدود أيضاً[1].

علاوة على وجهات النظر السابقة نجد «برافيرمان» Braverman يركز فى مناقشته لأوضاع الطبقة الوسطى على علاقاتها بالرأسمالية الاحتكارية وينتهى إلى القول بإنها أصبحت تتميز بعدم المهارة، وأن تراكم رأس المال هو المحدد الأساسى لتنظيم عملية العمل الرأسمالى وأدى ذلك إلى جعله مجرداً من المهارة وتزايد الانفصال بين العمل العقلى والعمل اليدوى، وخاصة فى مرحلة

(1) Ibid., 53 - 55.

الرأسمالية الاحتكارية[1]. ومن ناحية أخرى نجده يحاول تحليل التغيرات فى عمليات العمل بالنسبة لعمال الخدمات بما فى ذلك تجار التجزئة. وانتهى إلى أنهم أصبحوا غير مهرة «وبروليتاريا» من الناحية الاقتصادية، وذهب أيضاً إلى أنه فى مجتمع المعلومات والمعرفة يصبح العمل فى جوانب وقطاعات كبيرة منه يتخطى حدود المؤهل، ومن ثم يكون هذا بمثابة عقبة أمام الباحثين التقليديين الذين يعتمدون فى تصنيفهم على المهنة والمؤهل الدراسى[2].

ويوجه «جون أرى» ملاحظات على الإسهام الذى قدمه «برافيرمان» منها إنه لم يحدد بالتفصيل «الميكانيزم» الذى يتم من خلاله تجريد العمل من المهارة، وأن كان يفترض أنها تنبع من عملية تراكم رأس المال، إلا أنه افتراض نسبى وغير مميز هذا من ناحية. كما أنه لم يوضح لنا من ناحية أخرى الكيفية التى من خلالها تسهم العلاقات الاجتماعية فى الإنتاج الرأسمالى إلى خفض مستوى المهرة، واتجاه متطلبات العمل إلى أن تصبح غير ماهرة. وكذلك أيضاً ما يربط بفشله فى تفسير الأسباب المرتبطة بعدم المهارة وانخفاضها فى كل أشكالها وصورها والتى ترتبط فى جانب منها بمظهر وشكل النضال الذى ينبع من الممارسات الطبقية وليس التراكم المباشر لرأس المال.

فضلاً عما سبق، أنه لم يوفق من الناحية الاقتصادية فى ربط تغيرات عملية العمل بالتطورات فى الدولة والنضال السياسى على نطاق واسع، وهذا ما يمثل ثغرة أساسية فى تحليله لعلاقات الطبقة الوسطى حيث إنه يمكن للكثير من الأشخاص أو بعض الجماعات التى تمثلها من التواجد داخل قطاع الدولة مما يجعلهم يحوزون سلطة وسيطرة وإن كانوا لا يملكون رأس المال. ولهذا العوامل السابقة يمكن القول إن ما قدمه «برافيرمان» حول «بروليتارية» الطبقة الوسطى كان بسيطاً، وإن افتراضه هذا كان يقوم أساساً على ضرورة العمل غير الماهر، ومن ثم لم يبرهن لنا عن فهم يناسب الطبقة الوسطى الجديدة[3].

(1) Harry Braverman, «The Middle Layers of Employment», In: The New Warking Class, Op. Cit., P., 102

(2) Ibid., P., 103.

(3) Nicholas Abercrombie & Jonhnurry, Capital, Labour and The Middle Classes, Op. Cit., P., 58 - 59.

وأخيراً يرى بعض الباحثين أن هذه التحليلات السابقة للطبقة الوسطى فى ضوء علاقتها بما حدث من تغيرات فى مجال العمل وشكل الملكية. أنه رغم تنوعها فيما بينها من حيث وجهات نظرها إلا أنها جميعاً ركزت على تحديد وضع الطبقة الوسطى إما فى ضوء تطابقها مع طبقة البروليتاريا أو فى ضوء اختلافها عنها. كذلك أبرزت بعض وجهات النظر السابقة نقاط جديرة بالاهتمام وهى أهمية ما تحتله أو تشغله بعض الجماعات الطبقة الوسطى من مواقع قيادية داخل أجهزة ومؤسسات قطاع الدولة. وذلك بحكم ما تتمتع به من سلطة تمكنها من ممارسة الضبط والسيطرة والتوجيه على عمليات العمل المختلفة، وما يترتب عليها من ظهور ميكانيزمات أخرى جديدة للاستغلال حيث لم يعد الاستغلال الاقتصادى هو الشكل الوحيد فقط كما عبر عنه ماركس من قبل فى مناقشته لطبقة البروليتاريا فى علاقاتها بالطبقة الرأسمالية. وكذلك التنوع أو التدرج فى مستويات السلطة والإشراف، وأخيراً ربط ما يحدث من تغييرات فى الدولة بما يحدث أيضاً من تغيرات فى الجانب الاقتصادى. أو بعبارة أخرى التركيز على العلاقة بين التغيرات على المستوى السياسى وانعكاسها على المستوى الاقتصادى.

علاوة على ذلك، أن كانت بعض وجهات النظر السابقة تعارضت أو تباينت فيما بينها فى الإجابة على ما إذا كانت الطبقة الوسطى تمثل طبقة أم لا؟ فإننى أتفق مع الرأى القائل بأنها تمثل طبقة وسطى ما بين الرأسمالية والبروليتاريا، وهى وإن كانت تعرضت للتغير فى بعض الفترات فهذا أمر يرتبط بطبيعة المجتمعات الرأسمالية فى المرحلة المبكرة لتطورها. وأنها فى المرحلة المعاصرة التى تتصف بالاحتكارية فهى تمثل طبقة وسطى أيضاً ولكنها أخذت صفة الجديدة وتعرضت لتغيرات عديدة بعضها إيجابى والآخر سلبى. ومن ثم يمكن القول إن هذه تحليلات لم تنبع من واقع مجتمعاتنا النامية التى تختلف بالطبع عن المجتمعات الرأسمالية المتقدمة، ومع ذلك يرى الباحث أن هناك طبقة فى مجتمعنا تقع ما بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة إلا أنها تختلف فى سماتها وظروف نشأتها وتكوينها أيضاً عن تلك السائدة بالمجتمعات الصناعية المتقدمة.

مناقشة وتعقيب

تتحدد المناقشة فى هذا الجزء فى محاولة إجراء مقارنة بين كل من الاتجاه البنائى الوظيفى والاتجاه المادى التاريخى:

نجد أنه من بين الأسباب التى جعلتنا نقارن بين كل من الاتجاه المحافظ الذى يؤكد على التوازن وما ظهر فيه من بدائل نظرية ومنهجية والاتجاه الراديكالى الذى يؤكد على الصراع وما ظهر فى إطاره من اتجاهات محدثة. نظراً لأنهما الاتجاهان الأساسيان فى النظرية السوسيولوجية المعاصرة فى معظم محاولات التصنيف هذا من ناحية، وكذلك نظراً لسيطرتهما دون غيرهما هذا من ناحية ثانية. وأخيراً حتى يمكن عقد مقارنة بين كل منهما من حيث أوجه الشبه والاختلاف سواء كان هذا فى نظرتهم للمجتمع وتفسيرهم لمختلف الظواهر وطريقتهم فى تفسير هذه الظواهر الاجتماعية، وكذلك المقارنة بينهما من حيث تلك التصورات المستخدمة من جانب كل منهما. ومجمل القول حتى يمكن عقد المقارنة بين بعض المتشابهات والمتناقضات من حيث النظرية والمنهج ومستويات التحليل مما يكون له فائدة فى إثراء الجانب المعرفى.

أوجه التشابه بين الاتجاه المحافظ والاتجاه الراديكالى.

وعن جوانب الاتفاق بين كل من الاتجاه المحافظ والاتجاه الراديكالى نجد أن كلاً منهما ظهر مرتبطاً بإحدى النزعات الفلسفية. فإذا كانت جذور الاتجاه المحافظ فى علم الاجتماع ترجع إلى تلك الفلسفة ذات الطابع الرومانسى فى القرن التاسع عشر، فإن الاتجاه الراديكالى إنما يرتبط بفلسفة التنوير التى كان لها السيادة والسيطرة فى القرن الثامن عشر وهذه الجذور الأولى التى أفرز كل منهما أفكاره الأساسية [1].

ومن ناحية أخرى، نرى أن كلا من الاتجاه المحافظ والاتجاه الماركسى قد ارتبط كل منهما منذ البداية ببعض الجماعات الاجتماعية ذات الاتجاهات

---

(١) د. محمد الغريب عبد الكريم، اتجاهات فكرية فى نظرية علم الاجتماع المعاصر، الطبعة الثالثة، الإسكندرية ، المكتب الجامعى الحديث، ١٩٨٣، ص ٣٨

المتميزة. فلقد ارتبطت الماركسية بتلك الجماعات العمالية المناضلة ، التى دخلت فى صراع مع غيرها من الرأسمالية فى الواقع القائم[1].

أوجه الاختلاف بين الاتجاه المحافظ والاتجاه الراديكالى.

فإذا كانت هذه هى بعض جوانب الاتفاق. فهناك أيضاً بعض الجوانب الاختلاف التى سادت بينهما، فإذا كانت الوظيفية تركز على التماسك فإن الماركسية أنما تؤكد على الصراع الاجتماعى، وفى الوقت الذى يهتم فيه ذلك الاتجاه البنائى الوظيفى فى النظر إلى البناء الاجتماعى للمجتمع على أنه فى حالة ثبات وتماسك باستمرار، يقدم الاتجاه الماركسى نظرته للمجتمع فى ضوء التاريخ، ومن ثم يرى أن تاريخ أى مجتمع إنما هو تاريخ الصراع بين جماعات أحدهما مستغَل والأخر مستغِل، هذا إلى جانب أن الاتجاه الوظيفى يركز على ضرورة تنظيم الحياة الاجتماعية من خلال الجانب المعيارى المتمثل فى القيم والمعايير الاجتماعية السائدة فى المجتمع. وفى حين يركز الاتجاه الماركسى على الصراع والتناقض بين الاهتمامات والمصالح والقيم داخل المجتمع، ويرى أن المحافظة على النظام الاجتماعى العام سواء كان ذلك لمدة طويلة كانت أم قصيرة إنما يتأتى من خلال مال يطلق عليه «بوتومور» بدور المنظم[2].

بالإضافة إلى ذلك، نجد أن الاتجاه المحافظ إنما يتميز بطابع رومانسى ويبالغ فى التأكيد على دور الصفوة فى إحداث التطور الاجتماعى للمجتمع، ويسعى أنصاره إلى تفسير الظواهر الاجتماعية تفسيراً بيولوجياً أحياناً أو سيكولوجياً أحياناً أخرى. و يتضح هذا فى تلك التعددية المميزة له فى مداخله وما يعرف فيها بالمدرسة البيولوجية و السيكولوجية، ويغفلون فى تفسيرهم هذا تلك الطبيعة النوعية والمميزة للظاهرة الاجتماعية، هذا إلى جانب رفضهم لتبنى المدخل التاريخى. كما أنهم ينظرون إلى علاقة الفرد بالمجتمع على اعتبار أن المجتمع يتألف من كل عضوى وأن ما يتعرض له المجتمع مع مشاكل سوف تحل بالتدريج وعلى مراحل، وأن الدور الذى يلعبه الأعضاء إنما يكون محدوداً فى

---

(١) د. محمد عاطف غيث، الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٢) بوتومو، علم الاجتماع والنقد الاجتماعى، ترجمة وتعليق د. محمد الجوهرى وآخرين، مرجع سابق، ص ٨٦.

عملية التغيير وذلك لأن أدوارهم محدودة أصلاً. بينما على العكس من هذا نجد الاتجاه الماركسى إنما يؤكد على ضرورة تبنى المدخل التاريخى فى تفسير الظواهر الاجتماعية، وأن الإنسان هو صانع التاريخ وذلك من خلال عمله الخلاق الذى يسعى نحو تغيير الطبيعة من حوله، ومن ثم فإن هؤلاء الأفراد هم الذين يشكلون المجتمع، وعلى عاتقهم تقع مهمة تغيير المجتمع وذلك للوصول إلى أشكال اجتماعية أخرى يتطلعون إليها من أجل تحقيق احتياجاتهم ومصالحهم، حيث يعد هذا التغيير هو قانون الحياة [1].

وإلى جانب هذا نجد أن ثمة اختلاف بينهما أيضاً من حيث الأهداف فإذا كان علم الاجتماع البورجوازى مثلاً فى أفكار بلحثيه يسعى نحو التعبير عن مصالح الطبقة الرأسمالية المسيطرة فى المجتمع، ومن ثم يحاول تقديم تبرير ايديولوجى للحفاظ على مصالحها، وإضفاء عليها أو إعطائها طابع الشرعية والرسمية. نجد فى مقابل ذلك يسعى علم الاجتماع الماركسى نحو التعبير عن مصالح جماعات العمل المحرومة والتى يعترها مغلوبة على أمرها، وهكذا يبتعد الاتجاه المحافظ عن الموضوعية نظراً لتبنيه نظرة ذات طابع رومانسى وأيديولوجية محافظة، وذلك فى الوقت الذى يقترب فيه الاتجاه الماركسى من الموضوعية لأنه لا يعمل على تزيف وعى هؤلاء الأفراد أو الجماعات الموجودة فى المجتمع نحو بلورة مصالحهم وأهدافهم التى يتطلعون إليها [2].

علاوة على ذلك، يحاول علم الاجتماع الغربى أن يصور الوضع الاجتماعى القائم فى المجتمع على أنه هو الأفضل ومن ثم يسعى إلى توجيه الإنسان فى حياته الاجتماعية بالمجتمع الغربى نحو ما يتفق وأسلوب الحياة السائدة فيها، بينما يسعى الاتجاه الماركسى نحو النظر إلى تغيير هذا المجتمع وذلك من خلال تبنى المفهوم المادى للتاريخ على اعتبار أن تغيير هذا المجتمع أمر ضرورى لا بد منه لتغيير حاضر الإنسان ورسم ملامح مستقبله [3].

---

(١) د. محمد الغريب عبد الكريم، اتجاهات فكرية فى نظرية علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص ٢١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٨.

(٣) أوسيبوف، مرجع سابق، ص ٦٦.

كما أنه على الرغم من وجود تماثل بين بعض أنصار الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع - «هومانز» على سبيل المثال - فى تحليل السلوك الإنسانى فى بحث ودراسة الجماعات الاجتماعية وذلك مع ماركس يتحدد فى أن كلاً منهما حلل عناصر هذا السلوك فى ثلاثية. إلا أنه من ناحية أخرى نجد أن هناك اختلافاً واضحاً بينهما يبدو فى تحليل ماركس لذلك السلوك الإنسانى حيث يتحدد فى العمل الذى يتقابل مع النشاطات عند «هومانز» وكذلك علاقات الإنتاج باعتبارها تقابل التفاعل لدى «هومانز» وأخيراً يتقابل الوعى فى الماركسية مع تلك العواطف والمشاعر لدى وظيفية «هومانز».

أما عن تلك الاختلافات الأخرى بينهما من حيث المنهج ومستويات التحليل نجد أن الوظيفية تحاول محاكاة العلوم الطبيعية فى عملية التحقق من صحة القضايا والفروض وترى ضرورة إتباع منهجها فى دراسة الظواهر الاجتماعية فى علم الاجتماعية بينما تعتمد الماركسية على المادية الجدلية ومن ثم تعتمد على منهج الجدل وتعتبر التاريخ هو مادة التحليل والإثبات فيها. وفى الوقت الذى تركز فيه الوظيفية على تفسير علمى متعدد ويفسر الجزء فى ضوء الكل والظاهرة بعلاقاتها بكل مكونات النسق. هذا بعكس الماركسية التى ترتبط بقضايا النظرية وبحوثها من حيث التعميم سواء كان محدودا أو ممدوداً[1]. كما يتميز مدخل الاتجاه المحافظ أيضاً بالنظرة الجزئية التى تعنى بالتنظيمات والأشكال الفردية ، فى الوقت الذى يهتم فيه الاتجاه الماركسى بالنظرة الشمولية التى تشمل تنظيم المجتمع ككل طبقاً لما يحدد من أهداف من خلال تلك الخطط الموضوعة على المدى الطويل ، ومن ثم فإنه على الرغم مما يمكن ملاحظته حول تقدير الاتجاه الماركسى لبعض المناهج المعروفة فى البحث والدراسة فى أطار علم الاجتماع الغربى وذلك فيما يتصل بمناهج بحث ودراسة الجماعات الأولية، إلا أن اتجاهات الدراسة فى الاتجاه الماركسى تحرص باستمرار على نظرتها الشاملة فى الدراسة والتفسير وليست النظرة الجزئية [2].

---

(١) د. غريب سيد أحمد وآخرين، المدخل إلى علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص ١٥٢.
(٢) د. على عبد الرازق جلبى، دراسات علم الاجتماع الصناعة، مرجع سابق، ص ٢٤٤.

وإلى جانب تلك الاختلافات المنهجية والنظرية، إن ثمة اختلافات أخرى تتعلق بالمستويات التى يجرى كل منهما تحليلاته عليها، ولذلك نجد أن الدراسة التى تكون منطلقة من الاتجاه الوظيفى تقدم تحليلاتها فى النهاية إما «على مستوى الفرد أو الجماعة أو التنظيم»، بينما نجد على العكس من ذلك فى الدراسات التى تتخذ من الاتجاه الماركسى منطلقاً لها فهى لا تجرى تحليلاتها على مستوى دون آخر بطريقة منفصلة، ولكن تحاول دوماً العمل على الربط بينهما، وذلك على سبيل المثال فهى تحاول فى دراستها للجماعة التأكيد على ضرورة النظر إليها من خلال البناء الاجتماعى للمجتمع الأكبر الذى توجد فيه وتعمل عل تفسير نتائجها التى تتوصل إليها فى ضوئه[1].

وأخيراً فمن خلال النظر إلى تلك المفهومات الخاصة بكل منهما نجد أن الاتجاه الوظيفى لو مفهومات وتصورات تسبق تصورات ومفهومات الأفراد، وهى فى النهاية تدور جميعها حول التماسك والتجانس، والاستمرار أو الثبات والتكامل. ومن ثم فهى ليست استاتيكية ولكن ديناميكية وتاريخية أيضاً، وذات تكوين اجتماعى واقتصادى وفى ضوء كل ما سبق نجد أن سبب هذا الاختلاف المتعدد الجوانب إنما يكمن فى الأيديولوجيا التى يتبناها كل اتجاه ويعمل جاهداً على تحقيقها وإضفاء طابع الشرعية عليها[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥.

(٢) د. غريب سيد أحمد وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص ١٥٣ - ١٥٤.

الفصل الثالث

نظرية التبادل الاجتماعى

- مقدمـــة.

١ - القضايا الأساسية.

٢ - أنصار نظرية التبادل الاجتماعى.

أ - جورج هومانز.

ب - بيتر بلاو.

- مناقشة وتعقيب.

الفصل الثالث
نظرية التبادل الاجتماعى(*)

مقدمـــة :

ظهرت نظرية التبادل الاجتماعى فى الخمسينيات من القرن العشرين، وهى تقوم على مجموعة من الأفكار الأساسية. يتمثل بعضها فى أن الناس فى عملية التفاعل الاجتماعى إنما يتبادلون أنماط السلوك. حيث ترجع هذه الفكرة إلى القرن التاسع عشر. ولقد نبعت تلك النظرية من بعض المصادر الأساسية والتى تتمثل بعضها فى المصدر الاقتصادى، والذى يكون مثلاً فى تلك المتغيرات التى صاحبت ظهور الثورة الصناعية، وما يترتب عليها من اتساع النطاق التجارة بين الدول أوربا، وازدهار المشروعات الصناعية والتجارية التى عملت بدورها على إعادة التنظيم الحياة الاقتصادية بطريقة مباشرة.

كما أدى تشجيع المنافسة إلى ظهور النزعة الفردية والتأكيد على الاهتمام من الناحية الاقتصادية بما يعرف باسم «اقتصاد السوق» 'Market - Economics'(1). وترجع فكرة التبادل هذا إلى علم الانثروبولوجيا أيضاً، حيث ينظر إلى المجتمع باعتباره شبكة من التبادلات المنظمة عن طريق معيار تبادلى، ومن ناحية أخرى يتمثل ذلك المصدر الآخر لها فى علم النفس التجريبى واهتمامه بقيم الناس وسلوكهم الفردى الملموس والذى تعبر عنه بحوث «سكينر» B. F. Skinner(**). حيث يحاول أنصار علم النفس التجريبى إخضاع تلك الجوانب غير الملموسة فى الفعل الإنسانى للاختبار: ومن ثم فإنهم يحاولون بدلاً من ذلك بناء أو تشييد نظرية متكاملة عن السلوك تتصل بالاستجابات الواضحة والناتجة عن تلك المثيرات القابلة للملاحظة : وذلك على عكس ما أكد عليه بعض

★ أعد هذا الفصل د. السيد محمد الرامخ.

(1) د. محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، الطبعة الثانية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية،١٩٨٤، ص ٤٨٦.

★★ وردت معالجات مستفيضة حول إسهامات سكينر فى علم لنفس التجريبى وخاصة بالفصل الثالث فى جورج غازدا، ريموند جى كورسينى، نظريات التعليم: دراسة مقارنة، ترجمة د. على حسين حجاج، د.عطية محمود مهنا، سلسلة عالم المعرفة، العدد٧٠، الكويت، ٩٨٣.

أنصار التفاعلية الرمزية من أمثال «ميد» من ضرورة الاهتمام بالمعانى والجوانب الداخلية غير القابلة للملاحظة. وبذلك يتشابه علم النفس التجريبى مع الانثروبولوجيا فى ذلك المنظور التبادلى وتأكيد كل منهما على ما يعرف باسم «أخلاقية التبادل الاجتماعى» Morality of Social Exchange[(1)].

علاوة على ذلك، يرتبط علم النفس التجريبى أيضاً بما يعرف «بمذهب اللذة» Hedonism والذى يقوم على اعتقاد يكمن فى قدرة الأفراد على التمييز بين اللذة والألم، وتصور العالم باعتباره عالماً يسعى إلى تحقيق مزيد من إشاعات اللذة والسرور مع تفادى كل مصدر من مصادر الألم. وبذلك يمكن القول إن النظرية التبادلية إنما ترجع أسساً إلى تلك المصادر الأساسية التى نبعت منها مسلماتها الاجتماعية والتى اشتقت من النظرية الاقتصادية، وهى ترتبط بإسهامات أثنين من علماء الاجتماع وهما «جورج هومانز» و«بيتربلاو»، وتعتبر هذه النظرية أن الفرد هو حدة التحليل فيها وأنه من خلال فهم سلوك التبادل للأفراد تتكون لديهم المعرفة بالجماعة التى نكتسب صفاتها وخصائصها من أعضائها الأفراد، ومن ثم فهى ليست ذات كيان مستقل[(٢)].

١ - القضايا الأساسية لنظرية التبادل الاجتماعى:

كما تنحصر القضايا الأساسية لنظرية التبادل الاجتماعى فى علم الاجتماع فى خمس قضايا وهى:

أ - قضية النجاح وتعنى أنه إذا ما كوفئ شخص نتيجة لقيامه بنشاط معين، فإن ذلك الشخص يكون أكثر رغبة بعد ذلك لإنجاز هذا النشاط والقيام به.

ب- قضية الحافز أو المثير وتعنى أنه لو حدث مثير فى الماضى وأدى إلى خلق ظروف تشابه كبير بين ذلك المثير فى الماضى والحاضر لكان من المحتمل قيام الشخص بنشاط مماثل، لما قام به فى الماضى وحصل منه على مكافأة.

---

(1) Rutho A. Wallace & W., Contemporary Sociological Theory, U. S. A., N. Y., 1980, PP. 171 - 174.

(٢) د. محمد على، تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، مرجع سابق، ص ٤٨٧ - ٤٨٨.

أى أن تلك القضية تعبر عن فكرة مؤداها هى أن الناس دائماً ما تربط بين الأفعال التى يقومون بها فى الحاضر وبين التى قاموا بها فى الماضى وحصلوا من خلالها على مكافآت.

ج - قضية القيمة تعنى أنه كلما انطوت نتيجة فعل شخص أو نشاط على قيمة كلما زاد احتمال قيامه بذلك النشاط الذى يعد فى نظره ذا قيمة أكبر بالنسبة له. وكذلك تتحدد القضية الرابعة فى العقلانية وترتبط بالاختيار بين أفضل الأفعال البديلة: حيث أن الشخص يقوم بالاختيار من يين أفعال بعضها الذى يكون ذا قيمة ويدركها بنفسه.

د - قضية الشبع والحرمان The Deprivation وهى تنقسم إلى شقين: الأول منها ويعنى أنه حينما لا يتمكن الشخص من خلال أفعاله التى يقوم بها الحصول على تلك المكافأة التى كان يتوقعها فإنه سوف يغضب: ومن ثم يكون أكثر ميلا لحو القيام بسلوك عدوانى وتصبح نتائج هذا السلوك بالنسبة له فيما بعد أكثر قيمة. ويتحدد الثانى فى: أنه حينما يقوم الشخص بفعل معين يتوقع له مكافأة، ومن ثم يحصل على مكافأة أكبر من التى كان يتوقعها، ولم يحصل على العقاب الذى كان يتوقعه، فانه يصبح مسروراً ويكون أكثر رغبة فى القيام بإنجاز سلوك مقبول وتصبح نتائج هذا السلوك أكثر قيمة بالنسبة له، وذلك حينما ينطوى الموقف على عدالة فى توزيع المكافآت.

هـ- كما تقدم القضية الأخيرة البديل السوسيولوجى «لقانون تناقص الغلة» Declining Marginal Utility - كما يعبر عنه الاقتصاديون - فى أنه إذا حصل الإنسان على شئ ذى قيمة فإن اهتمامه بذلك الشئ سوف تتناقص قيمته تدريجياً وذلك لمجرد حصوله على وحدات أخرى منه، وتكمن أهمية تلك القضية بالنسبة لعلم الاجتماع فى التأكيد على أن كثيراً من توقعاتنا أنما تكون ذات جذور عميقة وتنبع أصلاً من العادات والتقاليد والمعايير الاجتماعية والتى تكون مصدراً للحكم على ما يحدث هل هو عدل وحق أم غير ذلك؟ [1].

(1) Rutho A. Wallace & Alison Wolf, Op. Cit., P. 165 - 180.

ومن خلال النظر إلى القضايا الأساسية لها لجد أن تلك النظرية تفترض أن الأهداف والحاجات الخاصة هى المحرك الأساسى للأفراد، نظراً لما تحققه لهم من إشباع عاطفى يفوق بكثير التضحية بالذات، وهذا الإشباع لا يحدث فى فراغ ولكن يتبادلونه من خلال عملية التفاعل فيما بينهم. حيث يحسب الفرد العائد والتكلفة فى تلك العلاقات الموجودة بينهم و يقدم بعد ذلك سلوك يتمثل فى الاختيار بين أفضل البدائل المطروحة والذى يطلق عليه «بالفعل الطوعى» **Voluntary**، ويطلق على الأشياء التى تحقق لهم المكافأة بالفعل الاجتماعى، ومن ثم فإنهم يقبلون أو يستبعدون بعضهم البعض على أساس القبول أو النقد[1].

٢ ـ أنصار نظرية التبادل الاجتماعى.

(أ) جورج هومانز[*]. G. C. Homans.

«ففى الجماعة الإنسانية يتجلى المذهب بتركيزه على الغاية أكثر من ارتكازه إلى الوسائل. وقد وضحت النظر هذه الأعمال هومانز»[2].

ويعتبر «جورج هومانز» من بين ممثلى نظرية التبادل الاجتماعى. ويتضح ذلك من خلال إسهاماته العديدة فى مجال بحوث الجماعات الاجتماعية ، ولقد تأثر جورج هومانز بأعمال كل من «باريتو» و«هندرسون» **Henderson**، وكذلك أيضاً تأثره ببحوث سكينر فى علم النفس التجريبى[3].

(١) د. محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع، الرواد والاتجاهات المعاصرة، مرجع سابق، ص ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

★ ولد هومانز فى عام ١٩١٠ فى ظل أسرة جمهورية بوستون Boston، وتخرج من جامعة هارفارد التى قضى فيها كل عملة الاكاديمى، وذلك ما عدا أربع سنوات ونصف قضاها فى نافيا Navy وبعد ذلك تولى رئاسة الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع، ولم يكن معروفاً فى أمريكا قبل ذلك كعالم اجتماع. ولكن حينما، قبل الدعوة للاشتراك مع باريتو فى سيمينار، تم اختياره فى العام التالى عالم اجتماع بجامعة هارفارد.

(٢) د. غريب سيد أحمد، المدخل فى دراسة الجماعات الاجتماعية، مرجع سابق، ص ١٨٦.

(3) Ruth A. Wallace & Alison Wolf, Op. Cit., PP. 165 - 180.

وقـد أهـتم «هومـانز» بالتـاريخ الاجتمـاعى الإنجليـزى، وأخـرج فـى عـام (١٩٤١)مؤلفاً بعنوان «القرى الإنجليزية فى القرن الثالث عشر» English Villager of the Thirteenth Century، ومن بين مؤلفاته التى تعبر عن اهتمامـه بدراسـة الجماعات الاجتماعية مؤلفه بعنوان «الجماعة الإنسانية (١٩٥٠)» Human Group ، وكذلك فإنه فى نشره لذلك المؤلف قد تعرض لانتقادات عديدة حـاول بعـد ذلـك تلاشيها فى مؤلفه الذى أخرجه بعنوان مقدمة «فى علم النفس الاجتماعى» Hand Book of Social Psychology، وأخـيراً مؤلفـه بعنـوان «السـلوك الاجتمـاعى وأشكاله الأساسية» (١٩٦١) [1]. Social Behavior: Its Elementary Forms

كما يمكن مناقشة فى إسهامه فى مجال دراسة الجماعات الاجتماعيـة مـن خلال تناولـه مؤلفـه «الجماعـة الإنسـانية»، والـذى حـدد فيـه مفهـوم الجماعـة الاجتماعية، وأوضح فيه الأسباب التى دفعته إلى دراسة تلك الجماعات، وكذلك يتضح إسهامه فى مؤلفه «السلوك الاجتماعى وأشـكاله أو عناصـره الأسـاسـية». حيث عمل فيه على بلورة مجموعة من القضايا العامـة لتفسـير سـلوك الأفـراد داخل الجماعات الاجتماعية، وذلك بهدف التوصل فى النهاية إلى صياغة نظريـة ملائمة لدراسة الجماعة. وقد تحدد إسهامه من خلال ثلاث خطوات أساسية قـام بها، تمثلت الخطوة الأولى فى حصر الدراسات السـابقة والتـى تناولـت دراسـة الجماعة فى حالة ثباتها وتغيرها. وحدد هذه الدراسات فـى عـدة دراسـات هـى الدراسة التى أجريت على غرفة الملاحظة بشـركة ويسـترن ليكتريـك، ودراسـة التغير فى بناء المجتمع القروى الإنجليـزى، والثالثـة قـد أجريـت علـى محـددات الروح المعنوية فى إحدى الشركات الصناعية والتى أجراها «ارنسـبرج» وغـيره، وأخيراً دراسة النسق القرابى فى المجتمعات البدائية[٢]. ثم قام بمراجعـة النتـائج التى انتهت إليها هذه الدراسات من أجل صياغة نسـق مـن التصـورات حـول السلوك الأفراد فى الجماعات الاجتماعية[٣].

---

(1) Lewis Acoser, Masters of Sociological Thought, Op. Cit., P. 565.

(٢) د. محمد على عبد الرازق جلبى، مرجع سابق، ص ١٠٥.

(3) G. C. Homans Social Behavior: Its Elementary Forms, Routledge & Kegan Paul, London, 1961, P. 8.

ولقد حاول فى الخطوة الثانية وضع مجموعة من المفاهيم المرتبطة بسلوك الإنسان فى الحياة اليومية وهى: النشاط Active ويعنى تلك الأشياء التى يفعلها الناس مع ما هو إنسانى مثال قيادة السيارة، والكتابة، والعمل ... إلخ، ويشير التفاعل Interaction إلى تلك العلاقة التى تنشأ بين أعضاء الجماعة أو بين أحد أعضائها مع الجماعات الأخرى. أما العواطف Sentiments فإنها تشير إلى الاحساسات والمشاعر «مثل الحزن والغضب، والسعادة» الداخلية والاتجاهات أو المعتقدات تلك التى تتكون لدى أعضاء الجماعة نحو ما يقومون به من نشاطات مختلفة، وكذلك فإنه يعنى «بالمعايير» Norms تلك القواعد المنظمة لسلوك أعضاء الجماعة فيما يقومون به من أنشطة والتى تحكم سلوكهم تجاه الآخرين، وأخيراً فإنه اعتبر الجماعة بمثابة نسق اجتماعى يتكون من جزئين هما النسق الداخلى والذى يشتمل على النشاط والعواطف والتفاعل والمعايير وما بينهما من علاقة تتحدد تلقائياً بواسطة أعضاء الجماعة والذى يظهر إلى حيز الوجود قبل وجود الجماعة أما النسق الخارجى فإنه يعنى به علاقة الجماعة بالبيئة التى توجد فيها وتلك القوى الخارجية التى تفض عليها(١).

كما انتقل «هومانز» بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة والتى إنتهى فيها بناء على المحاولة السابقة إلى بلورة مجموعة من الفروض المرتبطة فيما بينها، حيث وجد فى ذلك الصدد أن مستوى التفاعل بين أعضاء الجماعة إنما يرتبط بسلطة القائد فيها فإذا كانت ديكتاتورية يقل التفاعل بين أعضائها، وذلك على العكس حينما يكون ذات سلطة «ديمقراطية» وحاول أيضاً التعرف على الظروف التى تحيط بالجماعة والتى تشتمل على البيئة الاجتماعية والسيكولوجية، وكذلك أيضاً حاول توضيح دور العوامل الأخرى مثل حجم الجماعة وتكوينها وتاريخها الماضى، وأثر كل تلك العوامل مجتمعة على الجماعة: لأنه وجد أن التغير فى العلاقة بين أعضاء الجماعة إنما يؤثر على تغير الجماعة ككل، ووجد كذلك أن هناك نوعان من الاعتماد المتبادل فى العلاقة بين النسق الداخلى والخارجى(٢). حيث أنه يمكن

---

(1) Clovis R Shepherd, Op. Cit., 37. 37. 38, 41.

(٢) د. على عبد الرازق جلبى، مرجع سابق، ص ص ١٠٦ – ١٠٧

C. R. Shepherd. Op. Cit., PP. 39 - 40.

النظر إلى النسق الداخلى على اعتبار أنه مصدر التغير فى النسق الخارجى والعكس بالعكس، كما وجد أن أى جماعة إنما تميل إلى تطوير نسق داخلى لها، وانه يوجد فى عملية النمو هذه ثلاثة طرق مميزة هى «الاتفاق» Elaboration والاختلاف Differentiation والقياس Standardization.

أما أسلوب الاتفاق فإنه يشير إلى تلك العملية التى بواسطتها يحاول أن يزين أعضاء الجماعة نشاطاتهم بالطرق الواضحة والكامنة والتى يتطلبها منهم النسق الخارجى، ويشير الاختلاف إلى ما يوجد بين أعضاء الجماعة من اختلافات فى الأوضاع والمراكز والأدوار التى يقومون بها. ويشير القياس إلى العواطف والأنشطة والتفاعل الذى ينشأ من خلالها النسق الداخلى للجماعة، الذى يكون فى حالة ثبات وانه إذا تعرض لأى تغير سرعان ما تقوم الأجزاء الداخلة فى تكوينه على إعادته إلى حالة التوازن التى كان عليها من قبل[١].

ويشير لويس كوزر فى إطاره حديثه عن إسهامات جورج هومانز بأنه ظهرت لديه إضافات جديدة فى مؤلفه بعنوان «السلوك الاجتماعى وعناصره الأساسية»، ويتمثل هذا فى تحوله من الاهتمام التحليلى بمدخل النسق إلى اهتمامه بمنظور التبادل الاجتماعى والسيكولوجى، ويتضح ذلك فما أكد عليه هومانز من أن التفسير والفهم الشامل للسلوك الإنسانى لا يكون ممكناً على المستوى السوسيولوجى ما لم يتصل ذلك التفسير بالمنظور السيكولوجى، ويظهر فى ذلك مدى تأثره بالسلوكية والتى طورها أتباعه من جامعة هارفارد وعلى الأخص سكينر وذلك كما لو كانت بمثابة شكل مذهب المنفعة Utilitarianism[٢]. ومن ناحية أخرى يتضح تأثره بالاقتصاد الكلاسيكى فى وجهة نظره عن التبادل الاجتماعى للأفراد فى عملية التفاعل ولقد حدده فى تبادل النشاط بين اثنين من الأشخاص، وذلك طبقاً للمكافأة أو العقاب الذى يحصل عليه من الشخص الآخر، وهذا التبادل

(١) د. على عبد الرازق جلبى، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(2) Lewis Acoser, Masters of Sociological Thought, Op. Cit., P. 572.

لا يقتصر على الجوانب المادية فقط ولكنه يشمل أيضاً تبادلات أخرى غير مادية . مثال العواطف والاحترام، والقبول الاجتماعى الذى يكون مترتباً على ذلك التبادل[1].

وفى تحليله لدور القبول الاجتماعى حاول مقارنته بدور النقود فى الاقتصاد وتبادلات السوق، لأنه يعتبر التبادل الاجتماعى أحد جوانب أو أشكال التبادل الاقتصادى إلا أنه لا يمكن قياسه أو حسابه بسهولة، ويذكر هومانز أن ذلك القبول الاجتماعى يعالج كل النشاطات والعواطف من خلال استجابة شخص واحد لسلوك الأخر الذى يكون أكثر أو أقل عقاباً أو أكثر مكافأة، وذلك لأن استجابة الشخص لسلوك الآخر إنما تحدد فى ضوء ما يحصل عليه من مكافأة أكثر أو عقاب أقل.

علاوة على ذلك، قد استخدام هومانز قيمة القبول لدى الناس فى مناقشة مفهوم الامتثال للمعايير الخاصة غير الرسمية حيث وجد أنه يمكن لأعضاء أى جماعة لأن يمدوا كل شخص آخر بالقبول الاجتماعى، وذلك لأن أفضل طريقة للسلوك هى قبول أصدقائهم والامتثال لرغباتهم من أجل حصولهم على الاحترام والقبول ، وذلك على اعتبار أن هذا القبول الاجتماعى هو أفضل ما يقدمه الناس حينما لا يملكون أى شئ آخر مرغوباً للتبادل، كما أجرى هومانز فى ذلك الصدد دراسة عن ديناميات الصداقة والامتثال فى الجماعات الأولية أوضحت نتائجها أن الامتثال يأتى من رغبة الناس فى استمرار علاقتهم بأصدقائهم: ومن ثم يكونوا أكثر قبولاً وامتثالاً لرغباتهم[2].

ومن ناحية أخرى حاول توضيح السلوك فى ضوء مفاهيم القوة والمكانة ومن ثم فإنه قد نظر إلى القوة على أنها تكمن أصلاً فى التبادل وتعنى القدرة على الامتداد بمكافآت مرغوبة، وأنها تنعكس فى الثمن الذى يمكن أن يحصل عليه الناس مقابل الخدمات، وهذا الثمن الذى يمكن أن يدفع بطريقة مباشرة

(1) G. C. Homans Social Behavior: Its Elementary Forms, Op. Cit., P. 572.

(2) Ruth A. Wallace & A. Wolf, Op. Cit., PP. 183 - 185.

فى شكل بعض التبادلات الملموسة كالنقود أو فى أى شكل آخر كالامتثال للنظام، وميز فى تحليله للقوى بين القوى القهرية وغير القهرية، ووجد أن التغير فيما يحصل عليه الشخص من مكافآت أكثر من شخص آخر إنما يترتب عليه التغير فى القوى، وبذلك فإنه يفسر القوى بالطريقة التى يفسر بها علماء الاقتصاد ثمن أى شئ ما، ومن ثم يكون متأثراً بما يعرف «بالاقتصاد الجزئى» **Micro - Economy**

وهكذا، لم يعالج هومانز المكانة على أنها انعكاس مباشر للقوى كما فعل الكثيرون من أنصار نظرية الصراع، لأنه يؤكد على أهمية مكانة شخص ما للقبول الاجتماعى، ويرى أنه على الرغم مما يسهم به «احترام الذات» **Esteem** فى المكانة إلا أنه لا يحددها، أنها تتحدد من خلال أحد «الجماعات الاثنية» **Ethnic** ومن خلال تراكم الخبرة، لأنه أحياناً ما يشير الناس فى بعض المجتمعات إلى التقدم فى العمر باعتباره رمز للمكانة، وذلك كما يتضح فى التعامل مع كبار السن، كما أن هناك بعض الأوضاع المهنية ذات المستوى الرفيع التى يشغلها بعض الأفراد تدخل أيضاً فى تحدي المكانة، إلى جانب ما يتميز به بعض أعضاء الجماعات عن غيرهم من أعضاء الجماعات الأخرى فى المجتمع فى جوانب مثل المعرفة والمهارة والثروة أو المستوى التعليمى[(1)].

وأخيراً، وجد هومانز فى مناقشته لقضية عدالة التوزيع وما يترتب عليها من شعور بالغضب أو السعادة ضرورة الاهتمام أساساً بتلك الطرق التى يظهر فيها ردود أفعال الأشخاص حينما تأتى توقعاتهم كما يرغبونها أو حينما تكون مخيبة لآمالهم، ومن ثم وجد أن الناس يقيمون الموقف فى ضوء بعض المعايير الاجتماعية الخاصة بهم، حيث إنه إذا كانت المكافآت التى يحصلون عليها ذات قيمة وكما توقعوها فإن الموقف بالنسبة لهم يعنى «عدالة فى التوزيع» **Distributive justice** مما يترتب عليه الشعور بالسعادة، وذلك على العكس ما إذا كانت تلك المكافآت التى يحصلون عليها فى مقابل ما يقومون به من نشاط

---

(1) Ibid., P.P. 85 - 87, 189 - 190.

غير متوقع بالنسبة لهم وبالتالى فإنهم يشعرون بالغضب، ومن ثم يعنى الموقف أنه لا تنطوى على عدالة فى التوزيع نظراً لانخفاض مكافأتهم[1].

ويذكر «جولدنر» أن تبادلية هومانز إنما تكون ذات معنى مختلف تماماً عن البارسونية وذلك فيما يتصل باستقرار وثبات النظم التى لا تعتمد على الشرعية ولكنها تعتمد على تبادل الاشباعات، وهى أيضاً تكون متميزة وذات خصائص فريدة عن النموذج الوظيفى وذلك فيما تقوم عليه من مسلمات اجتماعية نابعة من النظرية الاقتصادية، والنظر إلى السلوك الإنسانى فى ضوء مفهومات السوق والعرض والطلب. وكان يهدف هومانز من ذلك إلى الكشف عما يتضمنه البناء الاجتماعى والثقافى من أدوار، ثم أنه من ناحية أخرى نجد تشابها بين علم النفس السلوكى عند «هومانز» وموقف «جوفمان» فى وعيه بعدم ثبات واستقرار الأشياء، ويتشابه أيضاً مع «جارفنيكل» فى تحديده للدور والنشاط الذى يقوم به الإنسان فى بناء ووظائف النظم الاجتماعية وأنه ليس ببساطة يرسلها أو يعطيها ويستقبلها، ومن ثم فإنه يكون بمثابة شكل مختلف تماما عن الميكانيكية.

وأخيراً يتحدد أوجه الاختلاف بين ما عبر عنه هومانز فى التبادل الاجتماعى وبين المدخل المسرحى عند جوفمان وذلك باعتباره نموذج لفهم الحياة الاجتماعية فى أن كل منهما يعكس حساسيته لفئات مختلفة فى الحياة الاجتماعية، ففى الوقت الذى يتجه فيه جوفمان إلى أفراد الطبقة الوسطى الجديدة يميل هومانز إلى مسلمات وعواطف طبقة القدامى، ومن ثم لم يتراجع هومانز فى تأكيده على أهمية ما يحصل عليه الإنسان وما يمنحه لإنسان آخر لما فيه من فوائد متبادلة وكمصدر للتضامن الاجتماعى، وفى الوقت الذى ينظر فيه جوفمان على أن ذلك يكون بمثابة أوهام تعلو أو تحسب واستقرت على أنها عملية القبول المتبادل للوهم وذلك لأن جوفمان يرغب فى قبول واقع الحياة الاجتماعية بدون أوهام أخلاقية كما فى وجهة نظره[2].

---

(1) Ibid., PP. 190 - 191.

(2) A. Gouldner, Op. Cit., PP. 395 - 396.

ب - بيتر بلاو(*) Peter Blau

حاول بيتر بلاو تركيز اهتمامه فى البداية على عرض وتحليل تلك العمليات الاجتماعية التى تحدث بين الأفراد فى المجتمع، وذلك باعتبارها خطوة أولى نحو بناء نظرية اجتماعية أكثر تعقيداً فى البناء الاجتماعى تقوم على اعتقاده فى إمكانية تفسير البناء الاجتماعى الأكثر تعقيداً من خلال تلك العمليات الاجتماعية التى تحدث بين الأفراد(1). ويعد مؤلفه بعنوان «القوة والتبادل فى الحياة الاجتماعية» (١٩٦٤) Exchange and Power in Social Life معبراً عن إسهامه المباشر فى نظريته عن التبادل الاجتماعى. هذا الإسهام الذى يكون بمثابة شكل مختلف عن اهتمام هومانز نظرا لاهتمامه بالخصائص العامة للبناء الاجتماعى والنظم الاجتماعية التى تتعلق فقط بالمواقف الاجتماعية أو المجتمعات المحلية وليس بالأفراد. ولقد حدد هذه الخصائص فيما أطلق عليه «بالانبثاق» Energent حيث يذهب فى هذا إلى أنه يمكن وصف التباين فى المجتمع فى ضوء الخصائص المختلفة والمميزة لعدد من الجماعات المهنية أو الدينية، تلك الخصائص التى تكون اجتماعية أساسا وملائمة للبناء الاجتماعى ومناقضة لما هو سيكولوجى، وهى تنبثق فقط من سياق التفاعلات المعقدة والتى تميز المجتمعات المحلية والجماعات الأولية.

ويتضح من عنوان مؤلفه هذا، أنه يعكس اهتمامه الأول بالدور الذى يلعبه التبادل باستمرار فى خلق الاختلاف فى القوى، وتوضيح ما بينهما من علاقة، وأنه فى اهتمامه بالقوى حاول توضيح أصولها وتحديد تلك العمليات

★ ولد بيتر بلاو فى فيينا Vienna عام (١٩١٨)، وتعلم فى جماعة كورنيل Cornell، وحصل عى درجاته العلمية من جامعتى كولومبيا والهرست Elahurst Colimbia وبعد أن قضى سنوات قليلة فى جماعة شيكاغو أصبح أستاذ فى علم الاجتماع بجماعة كولومبيا عام ١٩٧٠، وفى عام ١٩٧٤ تولى رئاسة الجمعية الأمريكية للم الاجتماع وقام بتحليل للبيروقراطية فى بعض الشركات الفيدرالية. اعتمدنا فى هذا على:

Rutho W. & Alison Walf. Op. Cit., P. 173

(1) J. K. Chadwick, Social Exchange Theory, London, Academic Press, 1976, P. 277.

التى تكون من خلالها شرعية أو غير شرعية، ومن ثم يعتقد بأن القوة إنما تنشأ من عدم التوازن فى امتلاكها، حيث أنه عندما تكون عملية الإمداد بالخدمات القيمة من جانب واحد فقط فإنه يترتب عليه نوع من الاختلاف وكما يتضح الإرغام أو الإجبار فى أن ما يمتلكه الشخص من قوة إنما تمكنه من إخضاع الآخرين له هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يتمثل الجانب الثانى لها فى «الاحتكار» Monopoly [1]. وفى مناقشة «بلاو» لعملية التبادل الاجتماعى ونظرية الثمن نجد أنه قد وضع تصور لها ناثر فيه أساسا بالنظرية الاقتصادية وبعض المفهومات الاقتصادية منها العرض والطلب والتكاليف، حيث أكد «بلاو» على أن التبادل يتم عن طريق وسيط كالنقود، كما أن الناس تجد فى القبول الاجتماعى والشكوى والاحترام نوعاً من التنافس فيما بينهم من أجل حصولهم على ما هو مرغوب حتى ترتفع مكانتهم أيضاً، وأنهم دائماً يتنافسون فى هذا التبادل، وذلك فى ظل مسلمة أساسية وهى أن الناس التى تحصل على المكافأة إنما سوف تظل تحصل عليها باستمرار[2].

كما يتشابه «بيتر بلاو» مع «جوفمان» فى اهتمامه «بلاو» بانطباعات الهيئة الإدارية فى عملية التبادل الاجتماعى، وكذلك بالطريقة التى يعرض بها الناس أنفسهم للآخرين من خلال دور متميز ... ذلك الدور الذى أكد عليه جوفمان فى مدخله المسرحى والذى يكون أكثر ارتباطاً بالمنظور التفاعلى الرمزى فى تأكيده على الأشكال أو الصور الخلاقة للسلوك ، ومن ثم يضع فى اعتباره أهمية تلك الطرق التى من خلالها يتصور الناس ما يقوم به الآخرون من أدوار متميزة ويؤدونها بسهولة حيث يعتقد «بلاو» أن مفهوم «تميز الدور» يكون ذات صلة وثيقة بالتبادل الاجتماعى، وذلك لأن الناس ترغب فى تحديد مهاراتهم وما يحصلون عليه من خدمات. ومن خلال تلك الدراسات التى قام بها على البيروقراطية فى بعض الشركات الصناعية أكد على أن التبادل الاجتماعى إنما يختلف عن التبادل الاقتصادى وذلك لأن الالتزامات فى التبادل الاجتماعى لا يمكن تحديدها مقدماً.

---

(1) Rutho W. & Alison Walf., Op. Cit., P. 174, 206, 207.

(2) Lewis Acoser, Masters of Sociological Thought, Op. Cit., P. 543.

علاوة على ذلك، نجده فى تحليله لبعض الجماعات الأولية مثال جماعة الأصدقاء التى يتفاعل فيها الأشخاص بطريقة مباشرة يربط نظرية التبادل بمسلمة أساسية معقولة وهى أن الناس يختارون بين الأفعال البديلة وذلك فى ضوء مسلمات معقولة وظاهرة ومن ثم فإنهم يكونون عقلانيين، وذلك الفهم الذى يقابل مع ما أكد عليه هومانز فى تحليله للامتثال وحدده بقيم القبول الاجتماعى ولقد انتقل بعد ذلك لتناول والتكامل الاجتماعى على مستوى المجتمع الكبير، وذلك من خلال تحليله للسيطرة والخضوع والامتثال لمعايير الجماعة وتطوير قيم جمعية[1].

ويرى «بلاو» أن هناك اختلاف أساسياً بين الناس فى القوة والمكانة، لأن الدافع الرئيسى الذى يحركهم وهو حصولهم على مزيد من القوة والمكافآت باعتبار أن هذا من أحد خصائص التنظيمات الكبرى. حيث يسعى الأشخاص ذوى المكانة العليا - الذين يملكون القوة - إلى محاولة إخضاع الأشخاص الآخرين لهم والذين لا يملكون القوة «أى الخاضعين» مما يترتب على ذلك هو سعى الأشخاص الخاضعين إلى محاولة إيجاد طرق أخرى بديلة تحقق لهم نوعاً من امتلاك القوة والمكانة، وذلك من خلال الانتماء إلى جماعات أخرى تعمل من جانبها على تطوير المعايير التى تساعد أعضائها على الخضوع والامتثال من جانبهم، ومن ثم يترتب على ذلك نوع من التكامل[2].

وفى ضوء ذلك ناقش «بلاو» تحول تلك القوة إلى سلطة شرعية من خلال الأوامر التى يصدرها القائد فى الجماعة من أجل إنجاز الأهداف العامة والتى تمثل بالنسبة لأعضائها معياراً جمعياً، ومن ثم فإنهم يعملون على طاعة هذه الأوامر من أجل الحفاظ على تحقيق أهداف جماعتهم، وعلى الرغم من ذلك إلا أنه فى بعض الأحيان تنمو أيديولوجيات معارضة من جانب الأشخاص الخاضعين فى جماعات منعزلة نتيجة لشعورهم بالظلم الواقع عليهم، وبالتالى يكون لديهم رغبة فى مناقشة هذه الأمور التى ينجم عنها معارضة للآخرين. وفى

(1) Rutho W. & A. Wolfe, Op. Cit., PP. 200 - 202.

(2) Ibid., P. P. 210 - 212.

ذلك الصدد يؤكد بلاو على مدى الارتباط بين العزلة وظهور تلك الاتجاهات السلبية، وبذلك يختلف عن هومانز حيث أنه يرفض محاولة تفسير المتغيرات السوسيولوجية فى ضوء تفسيرات سيكولوجية، وذلك لأن التبادل لديه يعنى محاولة تفسير التغيرات السوسيولوجية فى عملية التبادل فى ضوء خصائص الانبثاق التى تميز المجتمعات والأفراد والتى غالباً ما تظهر فى عملية التبادل[1].

ونجد ثمة ملاحظة على بعض جوانب الشبه والاختلاف بين «بلاو» وأصحاب نظرية الصراع، والنظرية الوظيفية، حيث ينحصر التشابه فى اهتمام أنصار نظرية الصراع بما يطلق عليه أصحاب نظرية التبادل «بالاحتكارات» Monoplies أو بالطرق الهامة التى تحافظ فيها الجماعات على وضع السيطرة والتمييز، والذى يكون أكثر تطابقاً مع تحليل «بلاو» لبعض الأوضاع التنظيمية التى تتميز بامتلاك القوة. ويتمثل الاختلاف فى تأكيد بلاو على أن الاختلاف وعدم المساواة يوجد أساسا فى علاقات التبادل وأنه يعطى مزيداً من الاهتمام لأشكال القوة المتمثلة فى الاحتكار والإجبار وما ينتج عنها من عدم المساواة، وذلك بخلاف معظم أنصار النظرية الوظيفية فى تفسيرهم للتدرج الاجتماعى حيث يعطون مزيداً من الاهتمام لتلك الحواجز التى توجد أمام الحراك الاجتماعى للجماعة، والتى ترى أن المكافأة يجب أن تقدم باستمرار لأولئك الأشخاص الذين يشغلون الأوضاع المهنية العليا، نظراً لما يتميزون به من امتلاك لبعض المهارات والمواهب التى تمكنهم من القيام بمتطلبات تلك الأوضاع المهنية[2].

مناقشة وتعقيب:

أنه على الرغم مما أسهمت به نظرية التبادل الاجتماعى فى محاولة فهم وتحليل السلوك الإنسانى فى الجماعات الاجتماعية من جانب إسهامات هومانز وكذلك أيضاً محاولة تحليلها للسلوك الإنسانى على المستوى التنظيمى أو المستوى الأكبر من خلال التحليلات التى قدمها بيتربلاو للسلوك الإنسانى،

---

(1) Ibid., PP. 213 - 215.

(2) Ibid., P. 209.

إلا أن هناك بعض أوجه القصور التى تؤخذ عليها منها: أن نظرية هومانز قد ارتبطت بمجموعة من المصادر التى قد نبعت أصلاً منها وهى علم النفس، والاقتصاد كما أن ما قدمه هومانز فى كتابه الجماعة الإنسانية من فروض وقضايا ومفاهيم، حددها فى النشاطات، والتفاعلات وغيرهما كانت مستوحاه أصلاً من بعض الدراسات السابقة ولم يتأكد من مدى صحتها(١).

ومن ناحية أخرى أغفل هومانز فى نظريته التبادلية طبيعة استخدام الرموز بالنسبة للإنسان وان تفسيره لعالم القيم والمعايير التى تحدد طريقة الفعل الإنسانى كان غير ملائم، كما أنه أيضا تجاهل فى تحليله خصائص البناء الاجتماعى التى لا ترجع إلى نزعات الفرد(٢).

- ومن ناحية ثالثة فإن تفسيره السيكولوجى لعدد كبير من الظواهر الاجتماعية يكون أساساً نوعان أحدهما سيكولوجى، والآخر اقتصادى. وأنه قد عبر عنهما فى صيغة رياضية هى أن الربح يساوى المكافأة ناقص التكاليف Profi = Reword - Cost، ومن ثم يكون فى ذلك متأثراً بمذهب اللذة الذى يصور أن دافعية الأفراد هى التى تحركهم، وذلك للحصول على كل ما هو مرغوب . ويبعث السرور فى نفوسهم مع محاولتهم تجنب كل مصدر الألم، أو العقوبة(٣).

كما أن ما قدمه هومانز حول ديناميات الصداقة والامتثال فى الجماعات لا يكون تفسير ملائم للتكامل الاجتماعى بالمعنى الواسع، وذلك لأن الامتثال لمعايير المجتمع الأكبر إنما يتطلب أكثر من رغبة الناس للصداقة والقبول. ويمكن أن ينطبق ذلك أيضاً على بيتر بلاو رغم محاولته لتفادى أخطاء هومانز(٤).

---

(1) C. R. Shepherd. Op. Cit., PP. 39 - 215.

(2) Lewis Acoser, Masters of Sociological Thought, Op. Cit., P. 573.

(3) Bengt. Abrahamson, Homans on Exchange: Hedonism Revived, A. J. S., Vol. 76, No. 2, 1970, P. 273.

(4) Rutho W. & Alison Walf., Op. Cit., P. 215.

وبصفة عامة يمكن القول أيضاً أن نظرية التبادل الاجتماعى كانت لديها نظرة زائدة «مفرطة» فى النظر إلى الشىء ذو القيمة وعلى الأخص فى محاولة تفسير أفعال الناس على المستوى التنظيمى كما أن مسلماتها التى تقوم عليها إنما تنبع من علم النفس التجريبى ، مذهب اللذة وكذلك أيضا من الاقتصاد ، ويبدوا ذلك واضحاً فى بعض المفاهيم التى استخدمها أنصارها مثال العرض، والطلب، والتكاليف. وغير ذلك من مفاهيم، وإن مسلماتها حول القيم إنما تكون أكثر ارتباطاً مع مسلمات نظرية الصراع حول المصلحة الذاتية Self Interest(1).

علاوة على ذلك، فإن تلك النظرية التبادلية، إنما تكون بمثابة تعبير حى عن الواقع السائد فى المجتمع الأمريكى، ومن ثم فهى تعكس ما فيه من نزعة فردية وأنها تتصور إن العلاقات بين أفراد الجماعة إنما تقوم أساسا على محاولتهم تحقيق مكاسب، ومنافع شخصية. حيث ينتمى العضو إلى الجماعة أساسا لاعتبارات تتعلق بالمنفعة الخالصة(٢).

وفى ضوء ما سبق يمكن القول إنه يمكن لنا أن نجد تشابها واضحا بين تحليل كل من ماركس و هومانز للسلوك الإنسانى حيث سيطر على تحليليهما ثلاثية واضحة، وتمثلت عند ماركس فى تأكيده على ضرورة النظر إليه فى ضوء علاقات الإنتاج، والعمل ثم الوعى، وتحددت عند هومانز فى النشاط، والتفاعل- ثم العواطف أو المشاعر. وبهذا يتقابل الوعى عند ماركس مع المشاعر والعواطف لدى هومانز، وأن ما حدده هومانز فى التفاعل إنما يعرف بعلاقات الإنتاج عند ماركس، وذلك علاوة على تقابل النشاط فى تحليل هومانز مع العمل لدى ماركس.

---

(1) Ibid., P. 185.

(٢) د. محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص ٥٠٣ - ٥٠٤.

الباب الثانى

بدائل نظرية ومنهجية فى نظرية علم الاجتماع

الفصل الرابع
الاتجاه النقدى فى نظرية علم الاجتماع

- مقدمـــــة:

أولاً - اليسار الجديد.

١ - المقصود باليسار الجديد.

٢ - نشأة اليسار الجديد و تطوره.

٣ - قضايا اليسار الجديد.

ثانياً - الماركسية المحدثة:

١ - جورجان هابيرماس.

٢ - ماكس هوركهايمر.

٣ - جورج لوكاش.

٤ - أنطونى جرامش.

٥ - هربرت ماركيوز.

- مناقشة وتعقيب:

الفصل الرابع
الاتجاه النقدى فى نظرية علم الاجتماع(*)

مقدمـــة:

من الملاحظ أن هناك اتجاهات نظرية منهجية متعددة ظهرت فى إطار نظرية علم الاجتماع واتجاهاتها الأساسية، التى كانت مسيطرة على علم الاجتماع فى فترة محددة، وكانت تقوم على أفكار محددة أيضاً، عبر عن بعضها الاتجاه البنائى الوظيفى فى تحليله للمجتمع باعتباره نسق اجتماعى فى حالة توازن مستمرة، وهذا النسق يتكون من أجزاء أو أنساق أخرى فرعية كل منها يؤدى دور ووظيفة محددة من أجل الحفاظ باستمرار على حالة التوازن التى عليها النسق، وذلك على الرغم مما يتعرض له أحياناً من تغير، إلا أنه سرعان ما يعود إلى حالته الأولى وهى حالة التوازن.

وعلى الطرف المقابل كان هناك الاتجاه المادى التاريخى أو ما يطلق عليه أحياناً باتجاه الصراع الذى ينظر إلى المجتمع فى ضوء ما يتكون منه بنائه الذى حدده فى البناء الاقتصادى التحتى والبناء الفوقى ويكون بناء هذا المجتمع فى حالة تغير مستمرة تنجم فى البداية عما يحدث من تغيرات فى البناء الأساسى أو التحتى وما يترتب عليه من إحداث تغيرات أخرى فى البناء الفوقى وكل ما يتضمنه ذلك البناء.

كما كان لكل اتجاه من هذا الاتجاهات نظرة مختلفة فى تحليله للمجتمع، فإذا كانت نظرة الاتجاه الوظيفى له على أنه فى حالة استاتيكية فإن نظرة الاتجاه المادى التاريخى للمجتمع إنما تعتبره فى حالة ديناميكية مستمرة. وعلى الرغم من اختلافهم فى ذلك إلا أن كل منهما قد تعرض لأزمات وانتقادات عديدة سواء كان هذا على مستوى النظرية أو التطبيق، وذلك نتيجة لما حدث من تغيرات اجتماعية وسياسية، وكذلك تغيرات أخرى اقتصادية وأظهر كل منهما عجزه وعدم قدرته على تحليلها ومحاولة استيعاب ما ظهر من تناقضات فى الواقع الاجتماعى.

★ أعد هذا الفصل د. السيد محمد الرامخ.

ولقد ظهر الاتجاه النقدى فى النظرية السوسيولوجية نتيجة لمجموعة من العوامل والظروف المتشابكة فيما بينها، وفى مجتمعات عديدة، وكان أكثر وضوحاً فى بداية الأمر فى أعمال «س. رايت ميلز» و«الفن جولدنز»، كما وجه نقداً إلى الاتجاهات الأساسية فى النظرية السوسيولوجية، عبرت جماعات اليسار الجديد عن أحد أشكاله فى تلك القضايا التى طرحتها للمناقشة وسعت لنحو تحقيقها من خلال إتباعها لأساليب متميزة، وتبينها لبعض المفاهيم التى تعبر عن نقدهم للواقع الاجتماعى السائد ومحاولة تقديم تصور آخر بديل له تعبر عنه خصائص الجماعات الأولية.

كما عبرت الماركسية المحدثة من ناحية أخرى عن هذا التيار النقدى، وعملت على توجيه النقد للنظام الاقتصادى والسياسى فى تلك الدول المتقدمة صناعياً فى علاقتها بغيرها من الدول النامية، علاوة على نقدها للواقع الاجتماعى السائد، ومحاولة تقديم بديل آخر له تعبر عنه تلك الملكية الجماعية، والجماعات الأسرية الممتدة والقضاء على العمل المأجور وغير ذلك من خصائص أكد عليها هذا الاتجاه النقدى بصفة عامة وتبدو - من وجهة نظرنا - أكثر واقعية.

ولقد عبر «جولدنر» فى مؤلفه: «الأزمة المقبلة لعلم الاجتماع الغربى» عما تعرضت له النظرية السوسيولوجية متمثلة فى اتجاهاتها الأساسية من أزمة أدت إلى ظهور تيارات أخرى بديلة أهمها الاتجاه النقدى أو الراديكالى فى علم الاجتماع[1]. وأنه على الرغم من تباين تلك المسميات التى أطلقت على الاتجاهات المعاصرة التى ظهرت حديثاً فى نظرية علم الاجتماع، إلا أنها تشترك جميعها فى التأكيد على النقد باعتباره عنصراً أساسيا فى كتابات معظم أنصارها سواء كان نقداً يتعلق بالأفكار والأيدلوجيات السائدة أو بالنظرية، أو يتصل بنقد المجتمع ذاته، وحتى نقد علماء الاجتماع لأنفسهم. وكانت تهدف فى

(١) أحمد سليمان أبو زيد، الاتجاه الراديكالى فى النظرية السوسيولوجية، رسالة ماجستير غير منشورة، تحت أشراف أ.د. محمد عاطف غيث، أ.د محمد على محمد، مكتبة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ٢٩.

النهاية إلى محاولة تقديم نظريات أخرى بديلة تكون أكثر تطابقاً وملاءمة مع الواقع الاجتماعى القائم[1].

ويحدد لنا «سمير نعيم أحمد» فى مؤلفه: النظرية فى علم الاجتماع (١٩٧٧) أهداف على الاجتماع الراديكالى فيما يلى:

١ - «فهم المجتمع والعلاقة بين الإنسان والمجتمع على أساس علمى سليم وذلك بتطبيق المنهج العلمى تطبيقاً سليماً ورفض العبودية للمفهومات التى يروج لها علما الاجتماع التقليديين، مع التركيز على آليات التغير الاجتماعى الجذرى».

٢ - «عدم تقبل النظريات السائدة بشكل آلى وإخضاعها الدائم للنقد والتحليل والكشف عن مضمونها السياسى».

٣ - «الالتزام الصريح والواضح بالقيم الإنسانية وجعل علم الاجتماع وسيلة تساعد على تنمية قدرات الإنسان الحقيقية عن طريق خلق الظروف الملائمة لإشباع احتياجاته وتحريره من الاستغلال»[2].

كما لم يقتصر ظهور هذا التيار النقدى على مجتمع دون غيره، بل نجده ظهر فى ألمانيا حيث تطورت فيها نظرية نقدية عبرت عنها مدرسة فرانكفورت للبحث الاجتماعى، وكذلك تفاعل النقد الاجتماعى فى فرنسا أيضاً مع تلك الاتجاهات الفكرية السائدة فيها كالاشتراكية، وتفاعل أيضاً مع الحركة الاجتماعية للطلاب. كما كان ظهوره كذلك فى الولايات المتحدة أقل حدة، ويرجع هذا فى حقيقة الأمر إلى عدم ارتباطه بالحركات الاجتماعية فيها، وكذلك إلى عدم تأثره بالفكر الماركسى من ناحية أخرى[3].

ولقد ساعد على ظهور هذا التيار النقدى مجموعة من العوامل منها ما يتعلق بطبيعة التقدم العلمى والتكنولوجى وما ترتب عليها من تغيرات

---

(١) د. عبد الباسط محمد عبد المعطى، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، العدد٤٤، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون، ١٩٨١، ص ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) د. سمير نعيم احمد، النظرية فى علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، ١٩٧٧، ص٢٧٣.

(٣) د. أحمد أبو زيد، مرجع سابق، ص ص ٣٥٩، ٣٦٣ - ٣٦٦.

اجتماعية واقتصادية فى بناء المجتمع، وظهور مشكلات جديلة مرتبطة بنمو المجتمع البرجوازى وكل جوانب الحياة الاجتماعية فيه، وخاصة ما يتعلق بتدنى الأوضاع الاقتصادية للطبقة العاملة، هذا بالإضافة إلى ظهور حركة الإصلاح الدينى، ومحاولة تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على موضوعات الدراسة فى العلوم الإنسانية[1]. كما نجد ثمة عامل آخر يرتبط بعلم الاجتماع ذاته «وما يتضمنه من تناقض داخلى بين مثالياته وسلوكه الفعلى، ففى الوقت الذى يدعو إلى التحرر من القيم ومحاولة تحقيق أكبر قدر من الموضوعية فى سعيه نحو فهم وتفسير سلوك البشر، يسعى إلى الارتباط الوثيق بالسياسية وينحرف بأهدافه الإنسانية نحو خدمة أهداف لا إنسانية»[2]. ولذلك أكد «معظم أنصار الاتجاه النقدى فى علم الاجتماع على وظيفته الاجتماعية الإنسانية التى تتمثل فى البحث وكذلك الفهم بهدف تشخيص الواقع وتجاوزه نحو مستقبل» أفضل يكون أكثر إشباعاً لحاجات الإنسان[3].

بناء على ما سبق، يمكن القول أن الاتجاهات الأساسية فى النظرية السوسيولوجية تعرضت لأزمة عبرت عن بعض جوانبها تلك الجماعات اليسارية التى كان معظم أعضائها من بين الشباب والطلاب وغيرهم ممن أطلق عليهم اليساريون الجدد، التى ظهرت نتيجة لمجموعة من العوامل والظروف، ومن المؤكد أنها اتبعت فى سبيل تحقيق أهدافها والتعبير عن قضاياها وسائل معينة دون غيرها. كما عبر عن بعضها الآخر جماعة أخرى يطلق عليها الماركسية المحدثة، وكان لها أفكار ومسلمات واضحة حاولت التعبير عنها، وكان ظهورها يرجع إلى مجموعة من العوامل والظروف المتشابكة فيما بينها، علاوة على ما قدمته من تفسير لظهور الجماعات الاجتماعية غير الرسمية نتيجة لما يتعرض له أعضاء المجتمع من سيطرة وضغوط فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية.

---

(١) د. أحمد أبو زيد، مرجع سابق، ص ٤.

(٢) د. أحمد أبو زيد، مرجع سابق، ص ٢١٣.

(٣) د. عبد الباسط محمد عبد المعطى، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

أولاً - اليسار الجديد.

من المؤكد أن ثمة مجموعة من العوامل والظروف المتشابكة فيما بينها قد ساهمت جميعاً في ظهور جماعات اليسار الجديد سواء داخل الولايات المتحدة الأمريكية أو خارجها بحيث يمكن القول بأنه لا يعتبر ظاهرة محلية فقط بل صار ظاهرة عالمية سادت في فترات زمنية محددة.

١ - المقصود باليسار الجديد.

أنه نتيجة لعجز البنائية الوظيفية - باعتبارها الاتجاه النظري الذي كان سائداً في المجتمع الأمريكي في حقبة الستينات من القرن العشرين عن فهم طبيعة النسق الاجتماعي وما يحويه من تناقضات قد شجع هذا على ظهور مجموعة من علماء الاجتماع الشبان أطلق عليهم اليساريون. وكان ظهورهم يعتبر إستجابة مضادة لخصائص المجتمع الأمريكي التي تمثل بعضها في طبيعة المناخ السوسيوثقافي لذلك المجتمع، وما حدث فيه من تقدم كبير في جوانب الثقافة المادية، وظهور النزعة الفردية نتيجة لسيطرة تلك التنظيمات البيروقراطية المعقدة على الأفراد والجماعات مما أدى بهم في نهاية الأمر إلى إحساسهم بالاغتراب عن ذلك المجتمع هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى ظهر هذا الاتجاه كرد فعل للتأكيد الثقافي في المجتمع الأمريكي على القيم الإيجابية والتي تبدو ممثلة في النجاح كهدف مع إغفال القيم السلبية والتغاضي عن نوعية الوسائل التي تساعد على تحقيق هذه الأهداف ومدى مشروعيتها وتطابقها مع قيم المجتمع وتشريعاته المختلفة. أو بعبارة أدق كان نتيجة للصراع بين قضيتي العقلانية والقيم الإنسانية، وسرعة حدوث معدلات التغير في معظم مجالات الحياة الأمريكية. حيث ركزت الجماعات اليسارية على تلك الجوانب السلبية في الحياة الاجتماعية داخل المجتمع[1].

فضلاً عن ذلك، هناك عوامل أخرى أسهمت في ظهور الجماعات اليسارية منها ما يكون ذات طابع اقتصادي تمثل في سعي الاقتصاد الأمريكي للسيطرة على الأسواق في الداخل على المستوى المحلي، وفي الخارج على

---

(١) زينب شاهين، مرجع سابق، ص ص ٥٩ - ٦٤.

المستوى العالمي والحفاظ على الاقتصاد الرأسمالي في توسعه نحو خلق أسواق عالمية له عبر البحار من أجل تصريف منتجاته في العالم الثالث، وذلك بعد حصوله على مواردهم الأولية بأسعار زهيدة، ثم القيام بتصنيعها وإعادتها إليهم مرة أخرى بأسعار خيالية، في صورة سلع استهلاكية تعمل بدورها على خلق حاجات استهلاكية أخرى، وبذلك تمكن الاقتصاد الأمبريالي من السيطرة على أسواق العالم، وبالتالي أصبح من خصائصه تعبئة الموارد من أجل الحروب، وقيامه على المنافسة الحرة، والعمل على النمو السريع للمؤسسات الصناعية والعسكرية، واقتصاديات دولة الرفاهية[1].

وهكذا لجأت الولايات المتحدة الأمريكية من أجل الحفاظ على نسق الاقتصاد الرأسمالي إلى إتباع سياسة الحرب الباردة، باعتبارها الشكل الممكن والملائم لرفض كل الأشكال أو الصور الأخرى البديلة للمجتمع، ومن ثم عملت على توجيه الموارد الاقتصادية نحو توفير متطلبات الحرب ضد الشيوعية باعتبارها العدو الحقيقي للنظام الأمريكي. وفي هذا الصدد وجه «ماركيوز» نقداً للمجتمع الأمريكي في مؤلفه عن الإنسان ذو البعد الواحد[2].

علاوة على ذلك، هناك عوامل ذات طابع سياسي تمثلت في سيطرة المجتمع الأمريكي على كل العمليات السياسية فيه من خلال السلطة السياسية التي تتركز في أيدي جماعات الصفوة، وذلك لقمع أي معارضة حقيقية تظهر. كما أن الصراع بين كل من الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي (سابقاً) أدى إلى اتجاه الولايات المتحدة الأمريكية إلى إدخال بعض التعديلات على نسقها الرأسمالي، والتي بدت واضحة في إجراءات رعاية المسنين وغيرها، مما يعرف بدولة الرفاهية، والتي أخذت في النمو باعتبارها وسيلة للسيطرة والضبط الذاتي والمجتمعي على حد سواء: ومن أجل الحفاظ على البناء الرأسمالي لنسق الاقتصاد الأمريكي[3].

---

(1) Ronal A. & John C. Cowley, The New Left In The United States, In: The Philosophy Of The New Left, Arthur Lothstein (ed.), U. S. A., Capricom Book, N. Y., 1971, PP. 29 - 30.

(2) Ibid., P.P. 28, 33, 43.

(٣) أحمد سليمان أبو زيد، الاتجاه الراديكالي في النظرية السوسيولوجية، مرجع سابق، ص ص ١٤٧ – ١٤٨.

وفى ظل هذه الظروف ظهر اليسار الجديد بالولايات المتحدة الأمريكية باعتباره استجابة مضادة للخصائص المتناقضة لهذا المجتمع، وكان ظهور جماعات اليسار فى هذا المجتمع وخارجه بمثابة مؤشر يعكس طابع واتجاه المجتمع الأمريكى المعاصر القائم على التسلط والاستبداد والقمع وسلب الحرية وإرادة الاختيار ومن ثم اتجهت بعض جماعات اليسار إلى الكليات الجامعية بهدف إضفاء الطابع السياسى على الحرم الجامعى. علاوة على، الانتقادات التى وجهوها إلى الوظائف التقليدية للجامعة وهذا ما يعرف باسم اليسار الأكاديمى باعتباره أحد جماعات اليسار الجديد.

كما اتجه شاب اليسار الجديد نحو تغيير القيم الثقافية ، من خلال محاولة إيجاد قيم أخرى بديلة تمثلت فى اهتمامهم بقيم الفنان وعمله[1]. وذلك رغبة منهم فى تغيير تلك القيم التقليدية السائدة. ويعبر شباب اليسار هذا عن جماعة مجال اهتمامها ومسلماتها الأساسية هو التطلع نحو بناء جديد من العواطف والواقع الشخصى الذى يتضمن الحرية ورفض الحروب، والتأكيد على التلقائية والكرامة والابتكار والمساواة، وذلك بعكس النظرية الوظيفية التى تؤكد على التوازن الاجتماعى: ويتطلع شباب اليسار نحو تحقيق كل ذلك بدون عنف ويؤكد أنصاره على التغيير الاجتماعى باعتباره ذات أهمية كبرى بدلاً من التأكيد على النظام الاجتماعى القائم[2].

ومما هو جدير بالإشارة إليه، إن تطلعات هؤلاء الشباب كانت تعبر فى مجموعها عن علاقات الجماعات الأولية وما فيها من ارتباط عاطفى عميق بالآخرين، والإحساس بمشاعر الألفة والمودة والتعبير عنه بطريقة مباشرة من خلال التفاعل مع الآخرين من أعضاء الجماعة، بدلاً مما يسود فى تلك التنظيمات البيروقراطية ذات الحجم الكبير من علاقات وتفاعلات غير مباشرة. كما أن هذه الحركة وإن كانت قد ارتبطت بأفكار ماركس من ناحية، إلا أنها من ناحية أخرى رفضت العمليات السياسية فى الماركسية التقليدية وما وجدته من تأييد لها فى الطبقة العاملة.

---

(1) A. Gouldnar, Op. Cit. Cit., P. 400.

(2) Ibid., P. 401.

كما إرتبط اليسار الجديد بجماعات إجتماعية متنوعة منها جماعات الطلاب البيض والسود، وبعض الأغنياء والفنانين، منهم شباب جامعى وغير جامعى يعبر عن تلك الجماعات(★). المتطلعة نحو تطور دولة الرفاهية والتغيير الاجتماعى من خلال وسائل سليمة إصلاحية، وتوجيه النقد إلى كل من السياسات الأمريكية الداخلية والخارجية معاً، علاوة على معاداتهم للسلطة فى محاولة التمييز بين جماعات البيض والسود من سكان المجتمع[١].

وتتشابه الجماعات اليسارية مع ما يطلق عليهم بالهيبز فى رفضهم للثقافة الأمريكية، كما أنها لم تهتم بعلم الاجتماع باعتباره جزءاً من الثقافية الأوسع التى يرفضونها أيضاً[٢]. وهناك بعض جوانب التشابه الأخرى تتضح فى تبنى أنصار جماعات اليسار الجديد أيضاً تلك الطرق التى تساير أساليب الهيبز فى الزى أو الملبس والشعر، والحديث، وتركيزهم على تعاطى العقاقير والمخدرات باعتبارها صوراً معبرة عن معارضتهم ورفضهم للأشكال الثقافة السائدة فى المجتمع الأمريكى[٣].

وقد أكد أنصار اليسار الجديد على بعض المفهومات مثل مفهوم ديمقراطية المشاركة سواء كان ذلك فى العمليات السياسية أو فى المؤسسات الجامعية وغيرها على مختلف المستويات بالمجتمع، كما أكدوا على الحياة المشاعية فى الجنس وعالجوا الفوضى النقابية، وضبط العمال، والمجتمع المحلى. وفى بعض الأماكن الأخرى من تراث الحركة اليسارية ظهرت محاولة من جانبهم لفهم العالم الأكبر أو الأوسع. علاوة على ذلك، ظهرت فيه بعض الجماعات التى

★ ونطلق على أنصار اليسار الجديد لفظ جماعة نظراً لاشتراكهم فى أيديولوجية واحدة من الناحية الفكرية، وهذا إلى جانب أهدافهم المشتركة التى يتعاونون جميعاً فى تحقيقها، بالإضافة إلى توحدهم فى الأساليب والوسائل التى يرونها مناسبة لتحقيق الأهداف التى رسموها لأنفسهم منذ البداية.

(١) د. على جلبى، نظرية علم الاجتماع، فى: مجالات علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٢) د. أحمد زايد، مرجع سابق، ص ٣٢٦.

(3) George R. Vickers, The Formation of The New Left, U.S.A. Health & Compan, 1975, P. 131

ترفض التعصب للرجل وتنادى بتحرر المرأة وكان أعضاؤها من اليساريين البيض، وحدث ذلك فى عام (١٩٦٩) حينما إهتم الوطنيين من الرجال بالتعصب للذكور والتمييز فى المعاملة بينهم وبين الآخرين من النساء[١].

كما ينتمى الشباب اليسارى إلى أسر يتمسك بعضها بقيم علمانية، ويتمسك البعض الأخر بقيم دينية، وفى ظل هذه البيئة الاجتماعية الأسرية الدينية أو العلمانية تبنى هؤلاء الشباب قيم جماعاتهم الأسرية، التى تشجع الأعمال الفنية والقراءة، وتعطى اهتماماً وعناية بالإصلاح الاجتماعى والنزوع نحو التسامح، والتأكيد على ضرورة الاستقلال وتطوير الذات الفردية للإنسان. وأن ما تبناه هؤلاء الشباب من قيم ثقافية بديلة لتلك الخاصة بالطبقة الوسطى يرجع إلى محاولتهم جعل شخصياتهم متميزة عن غيرها فى المجتمع وأصبحت القيم التى تبنوها معبرة عن قيم معظم المفكرين والفنانين فى القرن التاسع عشر[٢].

٢ ـ نشأة اليسار الجديد وتطوره:

أنه لا يمكن تناول اليسار الجديد وتاريخ ظهوره، دون محاولة تناول اليسار القديم أو البعيد وما كان يتكون منه الأخير من جماعات يسارية عبرت عن شكله آنذاك، حيث يقتضى منا ذلك ضرورة تناول هذه الجماعات اليسارية منذ البداية فى ضوء العوامل الذاتية وذلك باعتبارها كائنات إنسانية من ناحية، وفى ضوء العوامل الموضوعية من ناحية ثانية باعتبار أن ظهورها إلى حيز الوجود كان بمثابة إستجابة مغايرة أيضاً للظروف التى كانت سائدة. وذلك نظراً للتفاعل بين كل من هذه العوامل الذاتية والموضوعية وهذا ما أكد عليه بعض الباحثين بصدد دراسته لليسار الجديد من أمثال «بيرتل أولمان» Bertell Olman وذلك فى وجهة النظر العلائقية[*] Relation Alise حول العالم[١].

---

(1) Staughton Lynd, Towarda History Of The New Left, In: The New Lef: Collection of Essay, S. Lynd. (et. Ol) «Edis». U. S. A. Poston Ser - Gent, 1969, P. 11.

(٢) أحمد سليمان أبو زيد، مرجع سابق، ص ص ١٥١ - ١٥٢.

★ ننظر إلى ما يوجد فى العالم من تغير وتطور باعتباره ذات حدث دائم ومستمر وبذلك يصبح الحاضر ما هو إلا امتداد للماضى. ويساعد على التنبؤ بالمستقبل

يتكون اليسار القديم من بعض الجماعات اليسارية منها جماعة الطلاب وغيرها التى أخذت أشكالاً عديدة منها حركة الشباب الثورى (R. U. M.)، وكذلك حزب العمل التقدمى فى نيويورك الذى كرس جهوده للدفاع عن الثورة الماركسية، وكان معظم أعضائه من بين الجنس الأبيض فى الطبقة الوسطى وجماعة الدارسين الراديكاليين والمتمردين(٢).

كذلك أيضاً من بين تلك الجماعات المكونة لليسار القديم كان الحزب الشيوعى الأمريكى الذى يرجع تاريخه بالولايات المتحدة إلى عام (١٩١٩)، وهو فى الحقيقة الأمر كان بمثابة امتداد للحزب الشيوعى الدولى الذى كانت تأتى سياسته مباشرة من موسكو. حيث كان ينظر ذلك الحزب أيضاً إلى السياسية الأمريكية باعتبارها أداة النسق الرأسمالى الهادفة إلى تحقيق مزيد من الربح والسيطرة، وهو فى ذلك إنما كان يؤكد على بعض أهداف تلك الجماعات اليسارية القديمة، التى حاولت معه وبطرق متنوعة توجيه النقد ضد إدارة ذلك النسق الأمريكى(٣). والسعى نحو إلغاء الملكية الخاصة بهدف إقامة مجتمع قائم على المساواة والتأكيد على عملية المشاركة فى القرارات وغير ذلك من أهداف حاول تحقيقها من خلال وسيلة الفعل المباشر، وأحياناً أخرى من خلال الفعل غير المباشر أيضاً مثل الاهتمام بعملية أو سياسة الانتخابات.

علاوة على هذه الجماعات اليسارية السابقة أيضاً كان هناك جماعة تعرف باسم «تروتسكى» Trotsky، عبرت عن تحالفها مع الشباب الاشتراكى بهدف تأييد النظريات الماركسية اللينية. وهذه الجماعة كانت بقيادة «نيلسون»، ومعظم

- أيضاً. حيث أكد (أولمان) على وجهة النظر الجدلية هذه فى مناقشته لكل من العمليات الذاتية والموضوعية، وعلى الأخص فى تحول التغيرات الكمية - فى ضوء عدد من الأنصار، أو فى ضوء التغيرات فى البناء المهنى - إلى تغيرات أخرى كيفية مثل طبيعة اليسار وخصائصه البنائية.

(1) George R. Vickers, Op. Cit., PP. 11 - 12.

(2) A. U. S. New & World Report Book, Communism and The New Left, London, The Macmillan Company, 1969. P. 26.

(3) Ibid., P., P. 17, 172.

أعضائها كانوا من بين الطلاب البيض فى الجماعات الراديكالية المعادية للحرب والفاشية دون تأكيد منها على الثورة كوسيلة[1].

ومما هو جدير بالذكر، أن تلك الحركات والجماعات المعبرة فى مجموعها عن شكل اليسار القديم فى الخمسينات لم تستمر فى الوجود لفترات طويلة، نظراً لأنها كانت غير منظمة من ناحية، ونتيجة لرفض أعضائها حياة الترف التي كانت تتمتع به الطبقة الوسطى، هذا إلى جانب رفضهم للامتثال من ناحية أخرى، وكان أيضاً من بين أسباب إختفاء هذه الجماعات اليسارية القديمة هو قلة عدد أعضائها وظهور سلطة ستالين فى روسيا[2]. علاوة على، الاستقرار السياسى الذى حققته الدول الرأسمالية فيما بعد الحرب العالمية الثانية كل هذا أدى إلى تقلص أو إختفاء اليسار القديم[3].

كما نجد شبه اتفاق بين معظم الباحثين فى النظرية السوسيولوجية على أن اليسار الجديد قد ظهر فى بداية الستينات من القرن العشرين، وذلك كقوة بدأت تأخذ طريقها إلى الظهور فى دول أخرى غير أمريكا، كان من بينها دول شرق وغرب أوروبا وغيرهما أيضاً، وذلك مع ظهور كثير من الجماعات اليسارية فى صور وأشكال عديدة منها حركة الحقوق المدينة، وحركات التمرد التى ظهرت بين الطلاب فى الجامعات وغيرها من الحركات التى نادت بتحرير المرأة والحركات المعادية للحرب والداعية للسلام[4].

علاوة على ذلك أيضاً ظهر اليسار الجديد مع ظهور تلك الجماعات اليسارية[*] التى كان يتكون منها، وتحددت بعضها فى حزب النمر الأسود، ولجنة

---

(1) Ibid., P., P. 23, 24, 178.

(٢) أحمد سليمان أبو زيد، مرجع سابق، ص ص ١٤١، ١٥١.

(٣) أحمد أبو زيد، مرجع سابق، ص ٢١٩.

(4) George R. Vickers, Op. Cit., PP. 11 - 172.

★ حيث نجد فى ذلك المؤلف الذى بعنوان: الشيوعية واليسار الجديد توضيحاً لبعض هذه الجماعات اليسارية منها ما يطلق عليه (حزب النمر الأسود) Black Panther Party ويرجع تاريخه إلى عام (١٩٦٨) وكان يسعى نحو أحداث تغيير فى الولايات المتحدة ومعظم أعضائه كانوا من بين الأعضاء =

التنسيق القومى التى تكونت من الطلاب، وكذلك مما يطلق عليهم بحركة الفعل الثورى، وحزب الشباب الدولى أيضاً[1]. وكذلك أيضاً مع ظهور تلك الأفكار والصيغ السياسية والاجتماعية النقدية، والتى بدت واضحة فى تلك المؤلفات التى نشرها «س. رايت مليز» بعنوان «صفوة القوة»، و«الخيال السوسيولوجى»، حيث أن ما قدمه فيهما من تحليلات نظرية قد لفتت أنظار كثير من الباحثين آنذاك نحو التناقضات القائمة فى المجتمع الأمريكى وتلك الأيديولوجية الإمبريالية السائدة فى المجتمع الأمريكى ، وسعيها نحو الحفاظ على الوضع الراهن، كما حاول «ميلز» أيضاً الكشف عن ذلك الوعى الزائف بين الأفراد فى المجتمع الناجم عن تسلط الصفوة السياسة فى ممارسة السلطة واتخاذ القرارات[2].

كما ظهرت إلى جانب ذلك مؤلفات أخرى من جانب «بول جودمان» Paul Goodman بعنوان النمو الأعلى والمنافى للعقل (١٩٥٦)، وكذلك أيضاً

= السود الثائرين، وكذلك أيضاً هناك جماعة الطلاب من دارسى لجنة التنسيق القومى(S. N. C. C.) بقيادة (جيمس فورمان) J. Forman سعت نحو تدعيم ثورة السود القومية وحصولهم على كافة حقوقهم فى المجتمع الأمريكى، وتميزت عضويتها بسيطرة الشباب الزنجى الثائر ضد عملية التمييز بينهم وبين جماعات الشباب البيض، وظهرت هذه اللجنة فى عام (١٩٦٠) وذلك من خلال تكاملها مع حركة الحقوق المدينة أيضاً.

أما حركة الفعل الثورى (R. A. M.) فكانت بقيادة (روبرت وليمز) وظهرت فى نيويورك عام (١٩٦١) كما عبرت عن مساندة أنصار ثورة السود فى تحررها ومحاولة حصولها على حقوقها . وأصبحت ذات طابع دولى حيث ظهرت خارج الولايات المتحدة فى مساندة جمهوريات أفريقيا فى عمليات التحرر السياسى ورفض التفرقة العنصرية فيها أيضاً.

وأخيراً كانت رسالة حزب الشباب الدولى(Yuppies) موجهة إلى مناشدة الشباب فى أمريكا ومختلف مدنها. وهو يعد بمثابة تنظيم غير رسمى يعبر عن جماعة صغيرة من البيض الراديكاليين والذى يرجع تاريخه إلى عام(١٩٦٧) واعتمدنا فى ذلك على اقتباسات متفرقة من المصدر التالى:

A. U. S. New & World Report Book, Op. Cit., P., P, 28, 98, 100, 102.

(1) A. U. S. New & World Report Book, Op. Cit., P., P, 98, 100, 102.

(٢) د. السيد محمد الحسينى، نحو نظرية اجتماعية نقدية، القاهرة، مطابع سجل العرب، ١٩٨٢، ص ص ٢١٢ - ٢١٣.

مع نشر «وليام أبليمان» لمؤلفه بعنوان: تراجيديا الدبلوماسية الأمريكية (١٩٥٩)، وانه فى ذلك الوقت، وفى بداية الستينات أيضاً شرع «س. رايت ميلز» فى كتابة خطاب حاول توجيهه إلى اليسار الجديد، وذكر فيه إذا لم يحدد اليسار الجديد أيديولوجيته واتجاهاته المختلفة بوضوح. فإنه أمر يترتب عليه التدخل من جانب الآخرين، وإلى جانب ذلك أيضاً نشر «جان بول سارتر» مؤلفه له بعنوان «الأيديولوجية الثورية»، ومن ثم اهتمت كل تلك الدراسات والمنشورات التى ظهرت آنذاك جميعها بمناقشة موضوعات مشتركة تعبر فى مضمونها عن تلك التناقضات السائدة فى الواقع الاجتماعى بالمجتمع الغربى من ناحية، ومعبرة أيضاً عن تلك الخصائص المميزة لفكر اليسار الجديد من ناحية أخرى[١].

ويمكن تقسيم تلك الفترة الزمنية لتاريخ اليسار الجديد من بداية الستينات وحتى نهايتها أيضاً بما ظهر فيها من حركات متنوعة إلى مراحل حيث تتحدد **المرحلة الأولى**: من بداية الستينات حتى عام (١٩٦٣) والتى ساد فيها سيطرة القضية الليبرالية وانتشار الوسائل العامة للتسلية والراحة وقضاء أوقات الفراغ، والتفجير النووى. كما ظهر فيها أيضاً تلك الاعتداءات المتفرقة على الحرية الأكاديمية. حيث كانت كل هذه الحركات الجماعية إنما تعبر عن قضايا فردية تعمل من خلالها على نشر الشكوك فى الأيديولوجيات السياسية السائدة، وبذلك قام إتحاد دراسى السلام بتنظيم احتجاجا ضخماً ضد الحروب وتوجيه الاقتصاد نحو الاستعداد لها والخوض فيها كما ناقش ذلك الإتحاد الرافض للحروب أثرها على التجرد من كل الحقوق المدنية فى الحياة الاجتماعية بالمجتمع آنذاك[٢].

كما تنحصر **المرحلة الثانية** من تاريخه فى الفترة من عام (١٩٦٤)، (١٩٦٥) وذلك حيث برزت فيها قضية المشاركة الديمقراطية، والتى عبرت عنها الجماعات اليسارية ذات النشاط والحيوية وكان من بينها جماعة طلاب المجتمع الديمقراطى، واحتجاج جماعة الطلاب أو الدرسين من لجنة التنسيق القومية ضد

(1) Staughton Lynd, Op. Cit., P. 4.

(2) Ibid., P. 7.

العنف، وكانت كل هذه الجماعات تؤكد فى هذه المرحلة على ضرورة خلق حركة تعطى للناس العاديين فى المجتمع الحق التصويت السياسى والمشاركة فى عملية اتخاذ القرارات. تلك التى تنفرد بها جماعة الصفوة القيادية فى الحكومة.

أما **المرحلة الثالثة** فهى تبدأ بتحالف الأنصار السود مع البيض داخل المجتمع الأمريكى، وذلك حينما اشتدت الحرب الأمريكية ضد فيتنام وعلى الأخص فى عام (١٩٦٥)، حيث أنهم حاولوا فى ذلك الوقت تركيز جهودهم على النشاط الراديكالى المعادى للسياسة الأمريكية القائمة ع على خوض المعارك والحروب وهى سياسة توسعية حاولت تنفيذها خارج حدودها وذلك لتحقيق أغراضها التى تسعى إليها. ونظراً لذلك ظهرت هذه الجماعات متحالفة مع بعضها بهدف مقاومة نشاط الحكومة وامتد نشاطها أيضاً إلى خارج الولايات المتحدة نحو دول العالم الثالث ومساندتها فى تحررها ومحاولة رسم سياستها بنفسها.

وأخيراً تعبر **المرحلة الرابعة** فى تاريخ اليسار الجديد - عام (١٩٦٦) - عن صياغة مفهوم القوة السوداء الذى برز إلى حيز الوجود، وذلك من خلال الدخول فى عملية الائتلاف بين معظم الحركات، والتى أدت فى النهاية إلى نمو الوعى بينهم وضرورة دخولهم فى نشاط متحرر من السيطرة الحكومية[١]. بينما قد حدثت بعض التغيرات السياسية فى نهاية الستينات تمثل بعضها فيما واجهته الرأسمالية أصبحت بمثابة مشاكل أساسية لها تهدد وجودها فى الداخل والخارج، كان من بينها ظهور فائض كبير من العمالة المدربة وانتشار ظاهرة البطالة وذلك رغم محاولتها آنذاك فى العمل على حل هذه التناقضات من خلال افتراضها بأنها تسعى نحو اشتراكية الوفرة باعتبارها تمثل الهدف الذى يأملون في الوصول إليه إلا أنها فشلت فى ذلك[٢].

وتحددت بعض التغيرات الأخرى أيضاً فيما واجهها اليسار الجديد من إنفصال للمعارضة السياسية عن المعارضة الثقافية حيث أدى ذلك به إلى فشله أيضاً فى إعادة حل التناقضات القائمة فى الرأسمالية، ومن ثم قد عبر عن هذا س. رايت

(1) Ibid., PP.78 - 79.

(2) George R. Vickers, Op. Cit., P. 137.

ميلز حيث يذهب إلى أن فشلهم هذا إنما يرجع إلى فقدانهم للوعى الذاتى بالتاريخ وما به من أحداث وعبر وقوانين تحكمها مما ترتب على ذلك أن ظهرت تناقضات داخلية بين هذه الجماعات اليسارية فى محاولتها التى حددتها منذ البداية[1].

كذلك نجد بعض المحاولات الأخرى التى تعبر من جانبها عن الوضع الحالى لليسار الجديد، وترى أنه قد تعرض لأزمة راجعة إلى طبيعة الأزمة السياسية التى تعرض لها المجتمع البريطانى على وجه الخصوص، وكان من بين مظاهر هذه الأزمة هو تحدى يسار العمل، حيث أن ما حدث من فشل لحكومة العمل فى منتصف السبعينيات إنما يكون متشابهاً إلى حد ما لنفس الفشل التى تعرضت له تلك الإجراءات فى يسار العمل فى الفترة من (١٩٦٤)، حتى (١٩٧٠)، وما بعدها أيضاً.

ومن ناحية أخرى نجد أن تحول اليسار الجديد إلى الماركسية أدى به أيضاً إلى فشل وذلك لتأثره بجيل القدامى، كما أن هناك بعض الأسباب الأخرى التى أدت به إلى تعرضه للأزمة التى يعانى منها ذلك اليسار حالياً. هى أن محاولته لتعدي أو تغيير وتنقية النظرية،وتغيير البناء الطبقى فى المجتمع أدى به إلى نوع من التناقض راجعاً إلى ارتباطه بجانبين من الخبرات السياسية المختلفة، تمثلت أحدها فى راديكالية الطبقة الوسطى واتجاهها نحو الوفرة، وتمثلت الأخرى فى تراث المجتمعات الاشتراكية وقدامى الطبقة العاملة المقهورة، وكان من نتيجة ذلك هو النجاح الأيديولوجى لليمين وانتشاره الذى أصبح بمثابة ظاهرة عامة معبرة عن فشل اليسار الجديد وفشل معادل للحركة فى بريطانية أيضاً[2].

٣ - قضايا اليسار الجديد:

يمكن تناول هنا تلك المطالب والأهداف الأساسية لدى كل أعضاء جماعات اليسار الجديد والتى أبرزوها فى صورة قضايا أساسية تمثلت فى رفض الحروب والدعوة إلى السلام، رفض التفرقة العنصرية والمساواة بين جماعات المجتمع وغير ذلك من مطالب.

---

(1) Ibid., P., P., 133. 135.

(2) Mechael Rustin, The New Left And The Present Crisis; New Left Review. (May - Joune0, Vol., 1980, P., 63, 64, 70.

أ - **الدعوة إلى السلام:**

كانت الحرب التى قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية ضد فيتنام بمثابة عامل هام من بين العوامل التى أدت بالجماعات اليسارية نحو الدخول فى تنظيم مظاهرات معادية للحروب بصفة عامة والحرب الأمريكية فى فيتنام بصفة خاصة، ومن ثم ركزت فى مظاهراتها هذه على الدعوة إلى السلام ورفض الحرب. كذلك أيضاً أدى استخدام الأمريكان لبعض الأسلحة الحربية، مثال «النابالم» Napalm آنذاك فى الحرب الدائرة بينها وبين شعب فيتنام، إلى أن كسب اليسار الجديد تأييداً له من جانب المعتدلين وظهرت كثير من المنشورات والمجلات المعبرة عن دعوة هذه الجماعات اليسارية نحو رفض هذه الحروب الدامية وآثارها المدمرة على كل من الجماعة والمجتمع.

ومن ناحية أخرى أدى ذلك إلى دفع حركة جماعات الدارسين فى المجتمع الديمقراطى (S. D. S.) نحو العمل على تحويل اهتمامات العاملين بهذه المصانع التى تقوم بتصنيع الأسلحة الحربية وتوجيهها نحو الاهتمام بالبناء وذلك بدلاً من الهدم[1]. وفى عام (١٩٦٥) قام «كارل أوجليزلى» Carl Oglesly باعتباره قائداً لحركة الدارسين فى المجتمع الديمقراطى بوضع الدساتير المعادية للحرب، إلا أن هذه الحركة قد واجهتها صعوبة تمثلت فى أنها لم تكن على وعى بكل الحركات اليسارية فى الأقطار الأخرى مثال تركيا وكوريا وغيرهما[2].

كما ظهرت جماعات شيوعية أخرى لعبت دوراً بارزاً فى هذه الحركة المعادية للحرب وعملية التسليح، ومن ثم قادت بعض المظاهرات فى أحدى كليات جماعة كاليفورنيا عام (١٩٦٤)، ووجدوا أنهم فى حاجة إلى ضرورة توسيع نطاق الحركة من خلال العمل على زيادة حجم الأعضاء فيها وخلق بينهم نوع من الوحدة حتى يتمكنوا فى النهاية من تجنب أى محاولة تهدف إلى عزلهم عن اليسار. هذا علاوة على تلك الأدوار المعادية للحرب وتمثلت فيما قامت به لجنة أصدقاء الخدمات الأمريكية، ولجنة التجمع القومى للدارسين، وكذلك أيضاً

---

(1) A. U. S. New & World Report Book, Op. Cit., P., P, 61, 27.

(2) Staughton Lynd, Op. Cit., P., P., 9, 6.

ذلك الدور الذى قامت به جماعة لجنة التنسيق القومية من بين الدارسين، كانت جميعها أدوار تعبر عن معاداتها للحرب من خلال تنظيم مظاهرات الاحتجاج والتى امتدت أيضاً إلى جماعات أخرى فى الجنوب. حيث وصفت تلك الجماعات المتظاهرة جميعها أن هذه الحرب تكون بمثابة حرب عنصرية تقوم بها جماعات الأغلبية من البيض ضد جماعات الأقلية من الزنوج(١).

ب - معارضة الإمبريالية(*). والتأكيد على ديمقراطية المشاركة:

أظهر أنصار اليسار الجديد معارضتهم للنظام السياسى والاقتصادى السائد بالمجتمع الأمريكى، حيث أنهم وجدوا أن النظام السياسى يقوم أساساً على الديكتاتورية، ويتركز فى أيدى أقلية يطلق عليهم جماعة الصفوة الحاكمة، التى عملت بدورها على تزيف الوعى بين أفراد وجماعات المجتمع من خلال اعتناقها لبعض الشعارات الجوفاء كالديمقراطية الشكلية، ومحاولة تحقيق العدالة والسلام الاجتماعى بين جميع أفراد وجماعات المجتمع(٢).

كما رفض أنصار اليسار الجديد الإمبريالية والنظام الاقتصادى الرأسمالى بما يتضمنه من مؤسسات ذات سلطة استبدادية ونظام بيروقراطى وغيرها من

---

(1) A. U. S. New & World Report Book, Op. Cit., P., P., 43 - 44.

★ الشخص الإمبريالى هو الذى يدافع عن دولته أو إمبراطوريته ويسعى إلى امتدادها وتوسيعها على حساب الدول الأخرى، ويأمل فى أن يراها أكثر وحدة، ولقد ظهرت إستخدمات متعددة لمصطلح (الإمبريالية) Imperialism يشير أولها إلى وصف نظام الحكم الذى كان متبعا فى الإمبراطورية الرومانية، كما يشير الاستخدام الثانى له فيما حققه هذا المصطلح فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر من انتشارا كبيراً فى بريطانيا للتعبير عن تلك السياسات التوسعية التى تهدف للحفاظ على مصالح الإمبراطورية البريطانية فى سعيها نحو المنفعة وتفضيل الحرية السياسية. بينما نجد أن الاستخدام الثالث إنما ظهر فى الفترة من (١٨٨٠ - ١٨٩٠) لوصف ما تسعى إليه السيطرة الأوروبية فى سياساتها التوسعية عبر القارات أو البحار كما ظهر له استخدام حديث أيضاً من جانب (لينين) فى تحديده له بالاحتكار، وأخيراً يعنى هذا المصطلح حديثاً السيطرة التى تمارسها دولة على أخرى. واعتمدنا فى هذا على:
د. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) د. سمير نعيم أحمد، مرجع سابق، ص ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

سلبيات معوق للإبداع والتلقائية والحرية تعتبر ضرورية وملازمة للنسق أو النظام الاقتصادى الرأسمالى فى مراحله الأخيرة، ولقد رفضوا كل تلك الأسس التى يقوم عليها ذلك النظام من تحقيق أكبر ربح ممكن، والملكية الخاصة، وضبط ملكية ووسائل الإنتاج من خلال حكم وسيطرة قلة من المديرين وغيرهم من الرأسماليين، وغير ذلك كالعمل المأجور وما يترتب عليه من إحساس بالاغتراب وانتشار الفردية، وفقدان للمعايير. وحاول اليسار إعادة بنائها على أسس أخرى جديدة تمثلت فى إحلال الملكية الجماعية محل الملكية الخاصة، وإيجاد مواقف التفاعل المباشر داخل تلك المؤسسات، وتبادل المساعدات والآراء الشخصية مع العاملين ورؤسائهم ومحاولة إيجاد أشكال إجتماعية أخرى كالأسرة الممتدة لكى تحل محل الأسرة النواة[1].

أما فى معارضتهم للنظام السياسى وديكتاتورية حكم الصفوة وما تروج له من شعارات غير حقيقية. قد أكدوا فى ذلك الصدد على محاولة نشر الديمقراطية، وضرورة الالتزام بها فى عملية اتخاذ القرارات على كل المستويات، وفى كل مجالات الحياة الاجتماعية، ومن ثم قد تبنوا مفهوم ديمقراطية المشاركة، ولذلك يرون ضرورة أن يتدرب الناس جميعاً على كيفية ضبط حياتهم بأنفسهم، وأن تكون مشاركتهم إيجابية وفعالة وذات معنى على كل المستويات والمجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وأن تكون هذه الديمقراطية ذات إستراتيجية واضحة وممثلة لكل طبقات وأفراد المجتمع حتى يمكن لهم العودة إلى أوضاعهم الاجتماعية الحقيقية.

وبناء على ذلك حاول هؤلاء الأنصار العمل على استبدال النسق السياسى الحالى فى تلك المجتمعات الرأسمالية المتقدمة والقائمة على الاستبدادية، والقيادة الكاريزمية بنسق آخر يقوم على المشاركة والتفاعل المباشر فى عملية اتخاذ القرار، وأيضاً على المسئولية الجماعية، وما يتضمنه من حرية فى الاختيار والتصويت الإنتخابى، ومن ثم تصبح ممارسة السلوك السياسى غير المقيد

(1) Jefferson Airplane, Itroduction, In: The Philosophy of the New Left, A. Lothstein, (ed,), U. S. A. Capricorn Book, 1971, P. P. 13 - 14.

بمجالات معينة فى الحياة اليومية، وتنبع هذه الممارسة من مؤسسات ديمقراطية ومن خلال الانتماء للأحزاب السياسية وبعض الإتحادات والجامعات والنوادى وبعض الجماعات الأخرى التى تعمل على تكوين وبلورة الوعى الذاتى والاجتماعى وتنمية القدرات والمهارات الشخصية[١].

ج - المساواة والتكامل الاجتماعى بين جماعات المجتمع:

يتسم المجتمع الأمريكى بما يحتوى عليه من جماعات عديدة مغايرة من حيث السلالة Race والموطن، فهى جماعات مهاجرة إليه منذ البداية، وينحدر كل منها عن خصائص اجتماعية وثقافية ولغوية مختلفة، علاوة على أنها قد جاءت أيضاً من أقطار مثل (ألمانيا، أيطاليا، والصين، ثم اليابان، وكذلك بولندا وأيرلندا). وعلى الرغم مما بذله أعضاء هذه الجماعات من محاولات عديدة لتحسين مستوى معيشتهم إلا أنهم قد عانوا كثيراً من الفقر والحرمان وأخطار البطالة، وانتشار الأمراض المعدية، حتى أن طبيعة الأعمال التى كانوا يقومون بها إنما كانت أعمال يدوية وموسمية وذات دخل منخفض وكانوا يقيمون فى مناطق محددة ومعظمها فى الريف جنوباً، وفى الحضر كانوا يتركزون فى أطراف المدينة، وخاصة فى الشمال والغرب وكانت معظمها أحياء فقيرة فى مستوى الخدمات التى تقدم لهم[٢].

وإن كان ذلك هو وضع جماعة الزنوج أو جماعات الأقلية فإنه أمر نجم أصلاً عن ذلك التمييز بينهم وبين جماعة البيض فى الحقوق والواجبات فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ومن ثم فإنهم كانوا يتمتعون بمكانة إجتماعية منخفضة أو أقل من مكانة البيض، وكانت تورث هذه المكانات لأبناء الزنوج فيما بعد ومن هنا فإنهم فى ممارستهم لحقوقهم الشرعية سواء كان ذلك فى مجال التعليم أو العمل إنما كانوا يحصلون على نصيب غير متكافئ مع جماعة البيض. حيث ترجع جذور هذه التفرقة العنصرية إلى تلك النظرة التى سادت بين جماعات البيض. تجاه جماعات الزنوج على إعتبار أن الأخيرة لا يحرص أعضائها

(1) Ibid., PP. 15 - 16.

(2) Irving M. Zitlin. Op. Cit., P., P., 178, 181.

على تنمية قدراتهم وأنهم يميلون إلى الكسل والتراخى، وذات طابع عدوانى علاوة على، أنهم يميلون إلى ممارسة الجنس، والتناسل بطريقة غير مألوفة[1].

كما جاءت نظرة أعضاء جماعات البيض - الأغلبية - إلى أعضاء جماعات الأقلية من الزنوج تصفهم بأنهم جنس(★) معاد للإنسانية ويفتقرون إلى القدرات والكفاءات التى تمكنهم من ممارسة الأعمال المهنية وتحمل المسئولية، وهى فى عمومها تعتبر نظرة غير صحيحة ومن ثم فهى لم تبنى على أساس واضح وذلك نظراً لأنه لا يمكن لنا أن نحكم على قدرات وكفاءات أى جماعة ما. ما لم نعط لهم فرص متكافئة مع غيرهم من الآخرين حتى يكون حكمنا عليهم فى النهاية صحيحاً، علاوة على ذلك، نجد أن تلك النظرة إنما هى كانت مقيدة بالزمان والمكان[2].

---

(1) J. Milton Yinger, A Minority Group In American Society, U. S. A., McGraw - Hill, 1965, P., P., 40, 45.

★ حاول الكثير من العلماء فى القرنين التاسع عشر والعشرين تحديد مفهوم (الجنس) Race، ومن ثم وضع علماء الأنثروبولوجيا فى الخمسينات تصنيفاً جغرافياً للجنس البشرى يقوم أساساً على تلك السمات الفيزيقية التى تميز جماعات السكان وانتهوا فى تصنيف الأجناس إلى القوقازى ثم المغولى، والزنجى والبيض والسود. حيث يوجد النوع الأول فى أوربا، والثانى فى آسيا، والثالث والأخير فى أفريقيا، والأبيض فى استراليا. فى حين يرى علماء الجغرافيا أنه يمكن تصنيف الأجناس طبقاً للظروف المناخية وأثرها على لون البشرة ومدى تكيف الأفراد مع البيئة ومن ثم يؤكدون على أن الجنس الزنجى إنما يوجد فى المناطق الحارة وخاصة الغابات والصحراء ولديهم من القدرة وقوة التحمل ما يفوق غيرهم من البيض الذين يعيشون فى المناطق الباردة. بينما يرى فى ذلك الصدد علماء الوراثة أن تحديد لون البشرة يرجع أساساً إلى تلك العمليات الو راثية وما يحمله الأبناء فيها من صفات عن الآباء. بينما استخدم علماء الاجتماع هذا المصطلح للإشارة به إلى أنماط متنوعة من الفئات والجماعات الاجتماعية المقهورة والتى ليس لديها القدرة على التكيف مع غيرها من جماعات المجتمع. كما أشتق هذا المصطلح أيضاً من الكلمة اليونانية Ethnos حيث تشير إلى مجموعة من الناس تعيش معاً ولها ثقافة ولغة مشتركة: ولقد اعتمدنا فى ذلك على :

Irving M. Zitlin. Op. Cit., P., 174 - 176.

(2) Irving M. Zitlin. Op. Cit., P., 177.

وأنه نتيجة لهذا التناقضات التى بدت واضحة فى المجتمع أمريكى وما ظهر فيها من فجوة بين الحديث والممارسة أو القول والفعل، وتأكيد البعض على المساواة دون محاولة تطبيقها من جانبهم. ومن هنا ظهرت حركة الحقوق المدينة فى الستينات، بهدف الدعوة إلى تكامل الزنوج مع غيرهم من جماعات البيض فى المجتمع وحصولهم على كافة حقوقهم المشروعة فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها مع القضاء على العزلة والتفرقة العنصرية بينهم وبين جماعات البيض[1]. ومحاولة تحرير الزنوج داخل وخارج الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم قد نتج عن هذه الحركة أيضاً ما يعرف باسم حركة تحرر السود[2].

ولقد ساعد إنتشار حركة الحقوق المدينة وذلك كما ظهر فى الحركات الصينية والنازية على ظهور السخط الكبير من جانب جماعة الفعل المباشر على نطاق أوسع، حيث أعطى لها فرصة لكسب مزيد من الأنصار من ناحية، ومن ناحية أخرى أيضاً قد ساعد هذا على وضوح الإستراتيجيات والخطط والانتشار للأيديولوجيا التى قامت عليها جماعة الفعل، وذلك مما ساعد على زيادة فعاليتها واستمرارها، وأخيراً تلك القيادة الكارزمية التى لعبت دوراً هاماً فى كسب ثقة أنصار وأتباع الحركة[3].

هكذا اتحدت أيضاً حركة الحقوق المدينة مع غيرها من حركات السود واللجان اليسارية. وتزايد نشاط معسكرات قادة السود بين قوات الجيش، وكذلك إتحاد كل من السود والبيض فى أمريكا ونضالهم جميعاً بعد الحرب العالمية الثانية من أجل الدفاع عن الديمقراطية، والتعبير عن المساواة المفقودة بين جماعات السكان فى المجتمع، وعلى الرغم من ذلك كله إلا أنها قد فشلت فى نهاية الأمر نظراً لانخفاض المكانة الاقتصادية لهؤلاء السود أو الزنوج، ونظراً لعدم وجود خبرة كافية لديهم عن كيفية العمل على تغيير المجتمع ومحاولة تقديم صورة بديلة لما هو

(1) George R. Vickers, Op. Cit., P. 399.

(2) A. U. S. New & World Report Book, Op. Cit., P., 63.

(3) Irving M. Zitlin. Op. Cit., P., 290, 299.

قائم. مما أدى بهم كل هذا فى النهاية إلى ميلهم نحو الاهتمام بالإصلاح وذلك فى ضوء النسق القائم. مما كان له أثره المباشر على إصابتهم بنوع من اليأس فى عملية التغيير الشامل التى كانوا يتطلعون إليها(١).

د - حركة التحول الإجتماعى:

يرى بعض القادة فى بعض المنظمات والجماعات الإنسانية الجديدة من أمثال «مارتن لوثر» و«فاير Feuer» أن كل الحركات الطلابية وغيرها من الحركات الأخرى التى ظهرت فى الستينات وتمثلت فى حركة البيض والسود قد أظهرت جميعها اعتراضها التلقائى على تلك الأجيال القديمة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أيضاً قد اتصلت هذه الحركات فى عام (١٩٦٥) بحركة الحقوق المدينة وعبروا عن تلك القضية الأساسية التى تتصل بجماعات الزنوج ومحاولة إدخال تعديلات على التشريعات القانونية من أجل حصول جماعات الزنوج على حقوق متساوية مع جماعات البيض، هذا إلى جانب محاولة تطوير أحياء الفقراء من اليهود فى المجتمع الأمريكى والعمل عل مكافحة تلك الأمراض المعدية والمنتشرة فيها، ومقاومة الفقر والحرمان الاجتماعى والمادى فى كل صورة وأدنى مستوياته. حيث أنهم كانوا يعتبرون هذا التحول بمثابة مؤشر للتغير فى المجتمع(٢).

وهكذا تركزت مناقشة قادة(*) كل هذه الحركات حول تحسين الأوضاع الاقتصادية للزنوج والفقراء ومحاولة التظاهر ضد الحروب والتسابق على التسليح، والعمل على لفت أنظار الجميع نحو إعادة توجيه ما ينفق فى مال الحروب وصنع الأسلحة وترشيد تعبئة من أجل الحرب حتى يمكن إستثمارها فى

(١) احمد سليمان أبو زيد، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(2) George R. Vickers, Op. Cit., P. 5

★ ويعد (مارتن لوثر كنج) ذلك الرجل الذى حمل على عاتقه النضال من أجل جماعة الزنوج والدفاع عن حقوقهم، وبعد أن حقق مارتن لوثر نصراً فى ٢١ ديسمبر عام (١٩٥٦) تحرك ناحية المحيط الأطلسى وقاد جماعة تطلق على نفسها جماعة الفعل المباشر. وتتحدد إستراتيجيته هو وجماعته للدفاع عن السود فى مناهج هى: الفعل المباشر وغير العنيف، والإصلاح الرسمى، وحق الاقتراع أو التصويب، ورفض اقتصاد المقاطعات. وقد اعتمدنا فى ذلك على:

Irving M. Zeitlin, Op. Cit., PP. 292 - 293.

إطعام الفقراء، وإشباع احتياجاتهم الأساسية بهدف النهوض بمستويات معيشتهم وذلك حتى يمكن العمل على زيادة قدراتهم وكفاءاتهم في مواجهة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها التى تواجههم فى حياتهم الاجتماعية[1].

هـ - فكر الجامعة وبناؤها:

علاوة على، تلك القضايا السابقة التى حظيت باهتمام أعضاء الجماعات اليسارية الجديدة ومعظم حركاته التى يتكون منها، فلقد امتد نشاطهم أيضاً إلى الجامعات، حيث تظاهرت جماعات الطلاب داخل الحرم الجامعى وعبرت عن تذمرها وسخطها التى عبرت عنه فى الانتقادات الموجهة إلى بناء الجامعة على اعتبار أنها ذات تنظيم بيروقراطى يتزايد تعقيداً فى نموه، وتتصف العلاقات الاجتماعية داخلها بالطابع اللاشخصى وذلك نظراً لما بدى لهم من تزايد فى إعداد الدارسين بصورة كبيرة من ناحية.

كما أنه من ناحية أخرى أيضاً نظراً لانخراط أعضاء هذه الجماعات فى العمل بتلك النشاطات العسكرية المتمركزة معظمها على إمكانية تطوير برامج للتسليح وبحوث الدفاع وغير ذلك من نشاطات أخرى تتصل بعمليات الحرب. كما انتقدت تلك الجماعات الطلابية المتظاهرة العلاقة بين الحكومة والجامعات، وما تقوم به الحكومة من فرض ضغوط عديدة عليها، وفى ذلك حاول هؤلاء الطلاب من جانبهم لتأكيد على عملية استقلال الجامعات عن الحكومة وتوجيه نقد إلى ما تقوم به الجامعات من وظائف تقليدية، وبناء على هذا وصفوا الجامعات على أنها بمثابة مصانع للمعرفة الإنسانية، ومراكز أيديولوجية للدفاع عن النسق الرأسمالى الاحتكارى. وحدث أول هجوم موجه نحو بناء الجامعات وذلك فى عام (١٩٦٤) فى جامعة بيركلى بكاليفورنيا[2].

وكانت هذه الجماعات الطلابية وما أطلق عليها باليسار الأكاديمى ينحصر هدفها فى الاتجاه إلى الجامعات، وذلك رغبة من جانبهم لمحاولة إعداد أنفسهم داخل هذه الجامعات مما يمكنهم فيما بعد من تولى بعض الأدوار

---

(1) A. U. S. New & World Report Book, Op. Cit., P., 5.

(2) Ibid., P. 29

القيادية، وكذلك أيضاً محاولتهم لتأسيس تلك الحركة اليسارية داخل الجامعة حتى يمكن لها أن تشكل فكر قوى ينتشر خارجها، ويمارس تأثيرا قويا على المستوى المجتمعى، وأخيراً ضرورة العمل من جانبهم على محاولة تغيير أو تعديل بعض اللوائح الجامعية حتى تعطى للطلاب حق المشاركة فى وضع سياساتها[(١)].

وهكذا، هناك عوامل عديدة ساعدت على نجاح هذه الحركات التى ظهرت داخل أمريكا منها أنها أخذت صفة عالمية حيث انتشرت فى غرب أوربا، وفى اليابان وامتدت أيضاً إلى دول شرق أوربا وأخذت بعض أشكال متنوعة فى بلدان العالم الثالث، علاوة على ظهورها فى انجلترا، وعبرت هذه الحركات عن نفسها من خلال الفعل المباشر واشتركت جميعها فى رفض النسق الرأسمالى والبيروقراطية التنظيمية له وأطلقت على نفسها أسم العالم الحر، كما عملت على نشر الوعى بأشكاله بين الدارسين من خلال مناقشة المنشورات داخل الكليات الجامعية[(٢)]. وكذلك كانت حركات الطلاب فى المجتمع الفرنسى عام (١٩٦٨) بمثابة ظاهرة تعكس قلق هؤلاء الشباب، وبداية لانغماسهم فى ممارسة الحياة السياسية الأمر الذى بدى فيه واضحاً أنه لا يمكن بأى حال من الأحوال تجاهل هذه الفئات أو الجماعات من الشباب اليسارى ذات التأثير والفعالية فيما تمارسه من أنشطة[(٣)].

وكذلك كان من بين تلك العوامل التى ساعدت على نجاح تلك الحركات الطلابية هو ما تولد بينهم من إحساسهم بأنفسهم كجيل له هوية متميزة هذا إلى جانب معارضتهم للحرب فى فيتنام والدفاع عن الثورة الكوبية. علاوة على ذلك، ما حدث من تقدم تكنولوجى فى تلك المجتمعات الصناعية. فضلاً عن زيادة أعداد هؤلاء الطلاب الجامعيين جعلتهم يعتبرون أنفسهم مؤهلين لشغل مكانات هامة داخل المجتمع فى المستقبل[(٤)].

---

(١) بوتومور، علم الاجتماع: منظور اجتماعى نقدى، ترجمة د. عادل مختار الهوارى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥، ص ٢٦٦.

(2) Staughton Lynd, Op. Cit., PP. 2 - 3.

(٣) د. حازم الببلاوى، مرجع سابق، ص ١٨.

(٤) بوتومور، علم الاجتماع والنقد الاجتماعى، ترجمة وتعليق د. محمد الجوهرى وآخرين، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١، ص ص ٢٦٩ - ٣٥٧.

وبذلك نستطيع من خلال تناولنا لليسار الجديد رصد بعض الملاحظات التحليلية والتى يمكن تحديدها فى النقاط التالية:

١ - يتكون اليسار الجديد فى حقيقة الأمر من عدد من الجماعات الاجتماعية بعضها محلى والآخر عالمى ظهرت داخل وخارج الولايات المتحدة الأمريكية. تمثل بعضها فى تلك الجماعات اليسارية من بين الطلاب فى المجتمع الديمقراطى، وأيضاً فى جماعات أخرى من الدارسين بالكليات الجامعية.

٢ - أن هذه الجماعات اليسارية كان لها أهداف مشتركة تعمل على تحقيقها تمثلت فى الدعوة للسلام والتظاهر ضد الحروب، وكذلك العمل على تكامل جماعات الزنوج مع غيرها من الجماعات الأخرى التى يتكون منها المجتمع الأمريكى وغيره، وذلك حتى يمكن لها الحصول على كافة حقوقها المشروعة فى الحياة الاجتماعية، من خلال أتباعها لوسائل معينة عبرت عن بعضها فى التظاهر والتمرد ضد السلطة السياسية والنظام الرأسمالى، وكانت هذه جميعاً بمثابة وسائل سلمية تميل إلى الإصلاح دون الثورة.

٣ - كما أكدت هذه الجماعات اليسارية للسلطة السياسية آنذاك على ضرورة تبنيها لديمقراطية المشاركة القائمة على الحوار والإقناع والاشتراك فى إصدار القرارات المتعلقة بشأن الجماعة والمجتمع على حد سواء، وذلك حتى يمكن للجماعة فى ظل هذه القيادة الديمقراطية أن تعمل بكفاءة، وذلك إذا ما قورنت بظروف عملها فى ظل القيادة الاستبدادية القائمة على تحكم وانفراد جماعة الصفوة السياسية فى إصدار قراراتها الموجهة بدون مناقشة أو اشتراك من جانب أعضاء الجماعات الأخرى الخاضعة. وهذا ما أكدته نتائج دراسات كيرت ليفين على الجماعة.

٤ - كذلك أيضاً أوضحت تلك الجماعات اليسارية طبيعة العلاقة التى تربط بين جماعة الأغلبية من البيض بجماعة الأقلية من الزنوج حيث أن هذه العلاقة كانت تقوم فى الأساس على التمييز بينهم من حيث الجنس أو السلالة من ناحية. والقوة والمكانة من ناحية أخرى، هذا فضلاً عن تحديد أماكن الإقامة داخل المجتمع الأكبر الذى توجد فيه.

٥ - وأخيراً أكدت هذه الجماعات اليسارية الثائرة والمتمردة على ضرورة العودة إلى ما تتميز به الجماعات الأولية من خصائص يتحدد بعضها فى العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الشخصى والتفاعل المباشر، كمال يتحدد بعضها الآخر فى المبادرة بالفعل، التلقائية فى الحركة والسلوك تلك التلقائية التى تسمح بتطوير الذات الفردية وتسهم فى تكامل شخصية الفرد مع جماعته، ولذلك رفضت التنظيمات البيروقراطية التى تتسم بالحجم الكبير والمعقد والعلاقات ذات الطابع اللاشخصى.

ثانياً - الماركسية المحدثة:

تناول معظم الباحثين من أصحاب النزعة المحافظة فى علم الاجتماع الجماعات الاجتماعية باعتبارها نسقاً اجتماعياً وأكدوا على ما يحدث فى ذلك النسق من عمليات اجتماعية خلال تفاعل الأعضاء مع بعضهم البعض، وتؤكد تلك العمليات على التعاون والتوازن وفى هذا نجد أن فى معالجتهم للجماعات الأولية إنما عزلوها عن تلك القوى الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الأكبر الذى توجد فيه، ومن ثم تجاهلوا ما يحدث من تنافس وصراع ... الخ.

وينطلق معظم الباحثين فى إطار الاتجاه المحافظ فى دراساتهم، من تلك الظروف والاتجاهات الفكرية أو النظرية التى سادت فى علم الاجتماع الغربى وعملت على توجيه البحوث السوسيولوجية نحو دراسة ما يؤكد على الثبات والتوازن، حتى أن فى تناولهم للصراع الذى يحدث فى النسق إنما كان يتسم بالتركيز على وظائف هذا الصراع، باعتباره من عوامل تكامل النسق دون تناول معوقاته أو نتائجه، ويمكن لنا تفسير ذلك فى ضوء تلك الأفكار التى يقوم عليها الاتجاه البنائى الوظيفى فى علم الاجتماع، وفى ضوء تلك الأيديولوجية السائدة فى المجتمع الغربى الذى ظهر فيه هذا الاتجاه.

ومما هو جدير بالإشارة إليه، إذا كانت نظرية «ماركس» عالجت موضوع الصراع الذى أغفلته الوظيفية، ومارست تأثيراً على المدرسة الألمانية، وكان ذلك واضحاً فيما قدمه «تونيز» من إسهامات فى علم الاجتماع وخاصة حول دراساته عن الجماعة والمجتمع المحلى، والذى حاول فيه «تونيز» تفسير أسلوب

الإنتاج الرأسمالى فى ضوء هذه المفهومات السابقة. وفضلاً عن ذلك، نجد فى إطار الاتجاه الشكلى أو الصورى فى النظرية السوسيولوجية كان تأثير «ماركس» واضحاً على صورية «جورج سميل» فى دراسته الرئيسية عن العلاقات الاجتماعية، والتى تطورت مع الانتقال من الاقتصاد الطبيعى إلى اقتصاد النقود[1]. إلا أن معالجة الماركسية التقليدية للصراع قد أهملت بعض الجوانب، وأكدت كثيراً على جوانب أخرى لم توفق فى تحليلها وعرضها.

وهكذا يمكن القول أنه مثلما تعرضت النظرية البنائية الوظيفية لأزمة ترتب عليها ظهور بدائل، فإن نظرية «ماركس» قد تعرضت لأزمة مماثلة ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر، حينما أصبحتِ الماركسية بمثابة الأيديولوجية الرسمية المسيطرة فى دول روسيا الاتحادية، وبعض من دول شرق أوربا. ومن ثم حاولت الدفاع عن تلك النظم السياسية السائدة مما أدى ذلك إلى أنها فقدت قوتها النقدية[2].

وهكذا حدثت كثير من التغيرات فى الماركسية التقليدية بعد وفاة «ماركس» فى عام (١٩٨٣) على الرغم من انتشارها السريع فى الحركة الاشتراكية[3]. وبالتالى ظهرت بعض الإسهامات النقدية والتى تأثرت بأعمال «ماركس» إلا أنها من ناحية أخرى عملت من جانبها على تعديل تلك الأفكار على ضوء التغيرات التى أفرزها الواقع الاجتماعى ومن ثم عبرت عنها الأعمال التى قدمها «كورش» و«لوكاش» و«مانهايم» و«جرامشى» و«هابيرماس». وغيرها من الأعمال التى عبرت عنها مدرسة فرانكفورت للبحث الاجتماعى، والتى بدأت تتشكل فى نهاية العشرينات، وبداية الثلاثينات من القرن العشرين بقيادة بعض المفكرين من أمثال «أدورنو»، و«هوركهايمر»[4].

---

(1) T. Bottomore. Op. Cit., P: 128.

(٢) د. السيد الحسينى، نحو نظرية اجتماعية نقدية، مرجع سابق، ص ص ١٧٣ - ١٩٠.

(3) Alan Swingewood, A Short History Of Sociological Thougth, London. Macmillan Publishers Ltd., 1984, P. 196.

(4) T. Bottomore. Op. Cit., P. 129.

كما شكلت هذه الإسهامات فيما بينها ما يعرف بالاتجاه الماركسي الجديد أو ما يطلق عليها أحياناً أخرى بالماركسية المحدثة(*) التى عملت من جانبها على توجيه الإنتقادات إلى الماركسية التقليدية وما ظهر فيها وفى غيرها من تناقضات عبرت عن بعضها ما طرأ على الطبقة العاملة والبناء الطبقى فى المجتمع من تغيرات، ترتب عليها أن أصبح أفراد الطبقة العاملة يشعرون بالرفاهية وذلك نتيجة لحدوث الحراك الاجتماعى فيما بينهم. علاوة على أنها لم تعد طبقة ثورة بمفردها ودون أن تقيم تحالفات مع غيرها فى المجتمع، واستند أنصار الماركسية المحدثة فى التأكيد على هذا إلى تلك الشواهد التى حدثت فى بعض الدول العالم الثالث وذلك فى كفاحها من أجل التحرر الاقتصادى والسياسى من سيطرة العالم الصناعى الرأسمالى المتقدم وحصولهم على الاستقلال فى النهاية[1].

وكذلك وجه أنصار الماركسية المحدثة نقداً للماركسية التقليدية فى أنها لم تكشف عما يدور من صراع بين تلك المجتمعات الرأسمالية المتقدمة صناعياً وبين دول العالم الثالث، وما تمارسه الدول المتقدمة من فرض سيطرة اقتصادية وسياسية على الدول النامية وجعلها تابعة لها باستمرار، ويشترك معها فى ذلك الفكر البرجوازى الغربى. وعدم ظهور محاولة من جانبها لتفسير تلك التغيرات المجتمعية وما ترتب عليها من ظهور طبقة متوسطة جديدة ذات طبيعة فنية وثقافية فى المجتمع. علاوة على

★ حيث يطلق عليها محدثة نظراً لحداثة روادها الذين جاءوا بعد (ماركس) والمؤسسين للماركسية هذا من ناحية، ويأتى لفظ الماركسية فيها وذلك من تسليمها منذ البداية ببعض المفاهيم فى الماركسية التقليدية وكذلك منهجها وقوانينها العامة كما صاغها الرواد. إلا أنها تختلف عن الماركسية التقليدية فى أنها(تنطلق من الحقائق الجديدة التى يفرزها الواقع) كما ظهرت هذه المدرسة أيضاً (استجابة لوجود تجارب ناجحة لتطبيق الماركسية فى الدول النامية وبصفة خاصة بعد ظهور أناس مثل(ماو) استطاعوا أن يغيروا واقع مجتمعاتهم، علاوة على ذلك ما يؤكده أنصار هذه المدرسة المحدثة من ضرورة الاهتداء بالمادية التاريخية لقيادة البحوث السوسيولوجية وتوجيهها موضوعاً وتصميماً، مع الإفادة من الأساليب البحثية التى توصل إليها العلم، واعتمدنا فى ذلك على:
د. عبد الباسط عبد المعطى، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، مرجع سابق، ص ص ٢١٠، ٢١٢.

(1) Norman Birnbaum, The Crisis In Marxist Sociology, In: Radical Sociology, Op. Cit., PP., 109 - 110.

ذلك، ما حدث من نمو وتعقيد فى عملية الإنتاج ونمو للمؤسسات التنظيمية الكبرى فى الإدارة والتوزيع للسلع والخدمات. مما أدى فى النهاية إلى ظهور قوى عاملة جديدة تتميز بخصائص التأهيل العلمى، وتسلسل بيروقراطى منظم(١).

علاوة على ما سبق، حاول أنصار الماركسية المحدثة تعديل تلك الأفكار التى قامت عليها الماركسية التقليدية فى ضوء ما ظهر من متغيرات جديدة فى الحياة الاجتماعية، حيث عملوا على كشف القناع عن تلك الأيديولوجيات السائدة فى النظريات البورجوازية، وما تقدمه من تبريرات للدور الذى تمارسه الرأسمالية أو الإمبريالية المعاصرة، ومن ثم أكدوا على ضرورة فهم الواقع السائد فى المجتمع المعاصر فى ضوء كليته أو شموليته، وجاء ذلك واضحاً فى تبنى البعض منهم لمفهومات مثل الكلية وغيره من المفهومات التى تحرص فى تناولها لأى جانب من جوانب المجتمع توضيح علاقته بغيره من الجوانب الأخرى وفى ضوء علاقتها بالبناء الاجتماعى الأشمل، وأخيراً نقدوا الماركسية فى تأكيدها بشدة على الدور المنتظر للبروليتاريا فى القيام بالثورة، ومن هنا أكدوا على ضرورة تحالفها مع غيرها من الجماعات الأخرى الموجودة فى المجتمع حتى يمكن لها - مع التحفظ - أن تقوم بدور فى ذلك، كما لم تعد البروليتاريا وحدها ثورية بل هناك جماعات أخرى مثل جماعات الفلاحين والفقراء والمهمشين(٢).

وهكذا، فإن اتخاذ أنصار الماركسية المحدثة موقفاً نقدياً من النظريات البورجوازية وغيرها من الماركسية التقليدية سواء اتخذ ذلك الموقف بعد الكلية أو بعداً اقتصادياً أو غيره سياسياً وأيديولوجيا وتأكيدهم على دراسة الطبقات الاجتماعية فى حالتها الديناميكية، وليس كما فعلت تلك النظريات الغربية فى تناولها لها من خلال الحراك الاجتماعى الذى أضفى عليها طابعاً إستاتيكياً، وتأكيدهم أيضاً على الدور الثورى لجماعات أخرى غير البروليتاريا مثل الفلاحين وغيرهم. كل هذا قد ساعد على تشكيل ملامح وخصائص هذا الاتجاه الجديد(٣).

(1) Norman Birnbaum, Op. Cit., PP. 114 - 115.

(٢) د. عبد الباسط عبد المعطى، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٣) المرجع السابق، ص ص ٢١٨ - ٢١٩.

كما عبر أنصار هذا الاتجاه عن اختلافهم مع ماركس فى علة جوانب من بينها ضرورة تعديل مفهوم «الرأسمالية إلى الإمبريالية ليعكس الطبيعة المنتظمة للنظام الرأسمالى العالمى المعاصر وأساليبه فى التعامل مع دول العالم الثالث»، وكذلك اهتمامهم بالخصوصيات القومية، ودور الأمة فى التحرر الشامل بوصفها تجسيدات لعمل القوانين النوعية للتطور الاجتماعى[(1)]. علاوة على ذلك ما طرحوه أيضاً من قضايا تتصل أساساً بالطبقات على المستوى النظرى، مؤداها أنه يجب النظر إلى تطور المجتمع الأوروبى، مراحله ومقولاته، بوصفها حالات استقاها ماركس من تاريخ الإنسان، لكن لا ينبغى أن يوصف تاريخ الإنسان فى قوالب تمثلها مراحل ومقولات تطور المجتمع الأوروبى، وفى هذا حاولوا الكشف عن دور الرأسمالية العالمية فى تشويه تطور المجتمعات النامية وإيقافها عند مراحل ما قبل الرأسمالية[(2)].

وهكذا، لقد شاهد الفكر الاجتماعى المعاصر حركات نقدية واسعة النطاق امتد نقدها من المجتمع إلى محاولة نقد علم الاجتماع ذاته. وإن كانت تلك الحركة النقدية فى علم الاجتماع عبرت عنها أعمال البعض من أمثال «س. رايت ميلز»، و«جولدنر»، إلا أننا نجدها من ناحية أخرى ارتبط اسمها بمدرسة فرانكفورت[(★)] وأن ما وجهته هذه المدرسة من نقد ممثلاً فى تلك الإسهامات

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٠.

★ يرتبط تاريخ هذه المدرسة بعام(١٩٢٣) حينما انتقل معهد البحوث الاجتماعية من فرانكفورت بألمانيا إلى نيويورك ثم إلى كاليفورنيا بالولايات المتحدة فلقد عنيت هذه المدرسة بحكم اهتمامها المادى أساساً بتقديم تطوير كيفى للجانب النقدى الفلسفى من الماركسية. محاولة الإنطلاق منه إلى صياغة علم اجتماع له مفاهيمه ومجالات بحثه ومناهجه، التى تختلف عن التيارات الوضعية والوظيفية التى عرفها علم الاجتماع الأمبيريقى وأصبحت مميزة له. كما لا تكتمل دراسة أعمال مدرسة فرانكفورت إلا من خلال تتبع جذور الفلسفية عند «هيجل» و«كانط» و«ماركس» و«فيلهلم ديلثاى». الذى تمثله أعمال «هانز جورج جادمر H. G. Gadamer» و«الفريد لورزنر» A. lerenzer وتشارلز تايلور وبول ريكر P. Ricoeur ففى هذه التيارات الفكرية نستطيع الوقوف على المصادر الأولى التى شكلت إطاراً عاماً لعلم الاجتماع النقدى عند هوركهايمر M. Horkheimer وتيورد أدورنو T. W. Adorno وهربرت ماركيوز و جورج هابيرماس -

التى قدمها أنصارها قد عمل على بلورة بعض المفاهيم «كالثقافة الجماهيرية، والنزعات التسلطية» وغير ذلك من مفاهيم كان لها أثراً كبيراً فى الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، وعلى الرغم من أعمال هذه المدرسة بقيت لفترة طويلة مهملة وذلك لأنها كانت مكتوبة أصلاً بالغة الألمانية إلا أنها ظهرت مرة أخرى من خلال تلك الأعمال التى قدمها بعض الباحثين من أمثال «هابيرماس».

ومما هو جدير بالذكر، قامت هذه المدرسة على بعض الأسس والقضايا الفكرية التى تمثل فيما شهده ذلك المجتمع الألمانى مثل الفكر الفلسفى المثالى والماركسى والتأويلى أو التفسيرى. وغير ذلك من أعمال فى التحليل السيكولوجى التى ترجع أساساً إلى «فرويد»، وفكرة النقد التى بلورها «كارل ماركس» فى بعض مؤلفاته، والتى ترجع أصلاً إلى فلسفة عصر التنوير أيضاً. وفى اهتمامها بالنقد إنما كانت تسعى إلى محاولة الكشف عما يتعرض له أفراد وجماعات المجتمع من كل أشكال القهر والضغوط ومحاولة تحريرهم منها[1]. وسوف يتضح لنا كل هذا من خلال تناولنا محاولات وإسهامات بعض الأنصار.

١ - جورجان هابيرماس J. Habermas

تمثل أعمال «هابيرماس» تعبيراً عن الالتقاء بين ثلاثة جوانب أساسية يتحدد أولها فى تلك المناهج المستخدمة للبحث والدراسة فى العلوم الاجتماعية، ويتمثل الجانب الثانى فى ذلك الارتباط بين ما حدث من تطور فى العلوم الطبيعية والقدرة على محاولة استخدام التقدم التكنولوجى فى عملية الضبط والتحكم والسيطرة، وأخيراً تناول مدى الإرتباط بين العلم والأفكار السياسية السائدة فى تلك المجتمعات الصناعية[2].

- Jurgen Habermass. وإن كانت النظرية النقدية هى نتاج للحركة الفكرية التى سادت خلال الفترات الأولى من الثلاثينيات من القرن الماضى، إلا أنها تعد أيضاً من مكتشفات حقبة الستينيات: نقلاً عن:
د. محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع، الرواد والاتجاهات المعاصرة، مرجع سابق، ص ص ٥٤٢ - ٥٤٣.

(١) د. محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع، الرواد والاتجاهات المعاصرة، مرجع سابق، ص ص ٥٤٤ - ٥٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٤٤.

ويوجه هابيرماس فى مؤلفه بعنوان: الاتصال وتطور المجتمع (١٩٧٩) بعض الانتقادات للماركسية التقليدية محاولاً إعادة تقديم صياغة للمادية الجدلية باعتبارها نظرية التطور الاجتماعى، وذلك من خلال فحصه لتلك المفهومات الخاصة بالعمل الاجتماعى وتاريخ المجتمعات الإنسانية باعتبارهما من المسلمات الأساسية للمادية التاريخية. حيث يحدد «هابرماس» العمل الاجتماعى المنظم بأنه الطريقة الخاصة بالكائنات الإنسانية والتى تميزهم عن غيرهم من الحيوانات فى محاولة إعادة إنتاج أو تشييد حياتهم[1]. وذلك نظراً لما لديهم من وعى. حيث يبدأ هذا التمييز حينما يحاول الإنسان إنتاج تلك الطرق والوسائل التى تمكنه من البقاء والوجود، وتجعله قادراً على السيطرة والتنظيم لبيئته الفيزيقية، وغير ذلك مما يكون بمثابة منتجات غير مباشرة لحياته المادية ذاتها. كما يعد ذلك المفهوم الاجتماعى للعمل فى نظره أيضاً بمثابة شكل حاسم يحتوى على بعض المسلمات الأساسية فى الفلسفة المعاصرة وخاصة حول الذات والانعكاس.

تأكيداً على ما سبق، يرى «هابيرماس» أن عملية توزيع المنتجات والسلع إنما تتطلب قواعد للتفاعل وتنظيم للمعايير الخاصة بالفعل الاتصالى[2]. ولذلك يوجه إلى ماركس نقد فى نظرته للعمل الإنسانى باعتباره يعنى إنتاج السلع المادية، وأكد على ضرورة النظر إليه فى ضوء تلك الطبيعة البشرية والمميزة للإنسان، باعتباره قادراً على الخلق والابتكار الذاتى، وصانعاً لكل أدوات العمل، ومستخدماً أيضاً اللغة فى تفاعله مع غيره من أعضاء المجتمع الذى يعيش فيه[3].

علاوة على ذلك، حاول «هابيرماس» التمييز بين جوانب النشاط الإنسانى والذى حددها فى العمل، والتفاعل. موضحاً جوانب الضعف فى النظرية الماركسية وخاصة فى تأكيدها على أهمية العمل الاجتماعى، فى الوقت

(1) Jurgen Habermas, Communication and Evolution of Society, London, Heinemann, 1979, P. 131.

(2) Ibid., PP., 131 - 132.

(٣) توم بوتومور، نقد علم الاجتماع الماركسى، ترجمة د. محمد على محمد، د. على جلبى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤، ص ص ١١٥ - ١١٦.

الذى تجاهلت دور التفاعل الاجتماعى، الذى من خلاله يحدث اتصال بين أفراد وجماعات المجتمع، وبين المجتمع وغيره من المجتمعات الأخرى ككل عن طريق استخدام اللغة وبعض الرموز. ووجد هابيرماس أن ذلك يرجع إلى ما وصلت إليه تلك الدول الصناعية من تحقيق لمستوى معيشى مرتفع لأفرادها وجماعاتها مما جعل كثيراً من الجماعات فيها تميل إلى التغاضى عن فكرة تحرير المجتمع من ذلك الاستغلال الاقتصادى[١].

كما حدد هابيرماس التفاعل الإنسانى فى ذلك الفعل الاتصالى، والتفاعل الرمزى الذى تحكمه تلك المعايير الاجتماعية المتفق عليها فى المجتمع، وهذه المعايير هى التى تحدد أيضاً التوقعات السلوكية المتبادلة بين الأفراد والجماعات فى المجتمع. وأن صحة هذه المعايير الاجتماعية للتفاعل الإنسانى والرمزى إنما تعتمد كذلك على الفهم الذاتى المتبادل بين الناس فى المجتمع، ومن ثم يمكن ضمان صحة هذه المعايير من خلال المعرفة العامة بالقواعد والمعايير السائدة، والإلتزام بها فى التفاعل الإنسانى بصفة عامة..

ومن ناحية أخرى أكد هابيرماس على أن تلك الجماعات المحرومة التى لم تتمتع بالإمتيازات، وغيرها من الجماعات التى تتمتع بما يوجد من امتيازات لم تعد تواجه بعضها البعض وذلك باعتبارها طبقات اقتصادية اجتماعية فى المجتمع الرأسمالى المتقدم، وهكذا فإن العداء الطبقى باعتباره العلاقة الأساسية التى كانت موجودة فى كل المجتمعات التقليدية، قد خفت حدتها وذلك مع استمرار الاستغلال الاقتصادى والظلم السياسى، والذى و الذى فى ظله أصبح الاتصال والتفاعل الإنسانى مزيفاً وقاصراً، ومما يترتب على هذا أن أصبحت الأوضاع الشرعية التى تستخدم كغطاء وقناع أيديولوجى، لا يمكن الاعتماد عليها أو الاستفادة منها، ومن ثم يصبح الوعى التكنوقراطى ذا طابع أيديولوجى رأسمالى[٢].

---

(١) د. السيد الحسينى، نحو نظرية اجتماعية نقدية، مرجع سابق، ص ٢٦٥.

(٢) سعد عيد مرسى، الأيديولوجيا ونظرية علم الاجتماع الغربى، دارسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير غير منشورة، تحت إشراف أ.د محمد علىّ محمد، مكتبة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ٢٨٧.

هكذا، يبدو تأكيد هابيرماس على العوامل السياسية باعتبارها بديلاً للعوامل الاقتصادية تلك العوامل السياسية التى قد أصبحت حاسمة فى إدارة شئون المجتمع الحديث، حيث كان يهدف من ذلك كله نحو محاولة التوصل إلى صياغة نظرية جدلية تكشف عن مدى الضغوط الخارجية التى تمارسها التكنولوجيا على أفراد وجماعات المجتمع من ناحية الإنسانية والاجتماعية، وكذلك أيضاً تكشف عن نمو الوعى فى تلك المجتمعات الرأسمالية والذى إتخذ شكل الترشيد التكنولوجى، وبناء على ذلك يؤكد لنا هابيرماس أنه بمجرد تحرير الإنسان من كل هذه الضغوط عندئذ يمكن له استعادة تشكيل وعيه الحقيقى واكتساب مكانته التاريخية الحقيقة ذلك الوعى الذى تم تزييفه من خلال الدور الذى تلعبه وسائل الاتصال الحديثة[١].

٢ - ماكس هوركهايمر M. Horkheimer

بداية يمكن القول، لقد تولى ماكس هوركهايمر رئاسة معهد فرانكفورت فى عام (١٩٣٠)، واستمرت إدارته له من منفاه فى فرنسا وكذلك الولايات المتحدة بعد عام (١٩٣٣) حيث يعتبر هذا بمثابة عامل هام أدى إلى إحداث تغيير أساسى فى مدرسة فرانكفورت[٢].

فلقد ناقش هوركهايمر طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع، وذلك من خلال تحديده لمفهوم الجماعة الاجتماعية، ومن ثم أكد على أن هذه الجماعة إنما تعتبر بمثابة كل اجتماعى، وهكذا فإن الفرد يتفاعل مع ذلك الكل الاجتماعى باعتباره جزاء منه. وإن تفاعله هذا مع الجماعة أو ذلك الكل إنما يعد أيضاً خاصية من خصائص وجود الجماعة[٣].

ومن ناحية أخرى، نجد فى مقال له بعنوان: النظرية التقليدية والنقدية (١٩٣٧) أوضح هدف كل من العلم الوضعى أو البورجوازى وحدده فى المعرفة

(١) د. السيد الحسينى، نحو نظرية اجتماعية نقدية، مرجع سابق، ص ص ٢٦٥، ١٦١.

(٢) د. عبد الباسط محمد عبد المعطى، د. عادل مختار الهوارى، فى نظرية المعاصرة لعلم الاجتماع ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦، ص٣٠٠.

(٣) د. إسماعيل حسن عبد البارى، بناء المجتمع ونظمه، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ١١٥.

الخالصة وليس الفعل، فى حين أكد على ضرورة قيام النظرية النقدية على الفعل أو الممارسة Praxis وضرورة النظر إلى المعرفة ليس باعتبارها بمثابة محصلة آلية، ولكنها تتطلب مقابلة النشاط مع الفكر. بينما تؤكد النظرية التقليدية الوضعية على انفصال التفكير على الفعل، ومحاولة تأسيس السلطة على ملاحظة التخيل، وأيضاً تدافع عن مناهج العلوم الطبيعية وعلى الأخص البيولوجيا بهدف استخدمها فى تحليل الظاهرة السوسيوثقافية، فى حين يرى هوركهايمر أن الفعل الصحيح يعنى ذلك الفعل المرتبط بالاهتمامات المتحررة، والتى تكون أيضاً متميزة عن اهتمامات الجماعة أو الطبقة، كما تتميز من خلال عموميتها وإعتمادها على الصدق[1].

علاوة على ذلك أكد هوركهايمر على أن نظرية علم الاجتماع يجب أن تكون نقدية ولا تهتم بما هو ظاهر فقط، وبل عليها أن تحاول الكشف عن تلك العلاقات الخفية أو الكامنة بين الأشخاص من أعضاء المجتمع بعضهم وبعض، حتى تتمكن فى النهاية من التعرف على ما يكمن خلف هذه العلاقات وما تتضمنه تلك النظم الاجتماعية السائدة فى المجتمع[2].

٣ - جورج لوكاش J. Lukacs:

فى الواقع، تتشابه تلك الظروف والأوضاع الاجتماعية التى عاش فى ظلها جورج لوكاش مع ظروف حياة «جرامسكى»، فلقد عانى «لوكاش» كثيراً من الفقر والحرمان، وذلك على الرغم من انه كان يعيش فى عالم الوفرة، وفى ألمانيا قضى معظم سنوات حياته الأولى وبدأت تظهر دعوته الخلاقة للأوضاع الاجتماعية والإنسانية متأثراً فى اتجاهه الفكرى بصداقته «لجورج سميل، وماكس فيبر»، وأنه على الرغم من قراءاته الواسعة «للتصوف» أو المذهب الباطنى Mysticism وفلسفة الحيوية Vitalistic إلا انه قد هجرها، وكان يدين بالفضل هو جماعته لما يعرف بالروح والثقافة[3].

---

(1) Alan Swingewood, Op. Cit., PP. 10 - 311.

(٢) د. محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، مرجع سابق، ص ٥٥٢.

(3) Lewis A. Coser, Marxist Thought in The First Quarter of The 20 The Century, A. J. S., Vol., 78, No. 1, 1972, PP. 196 - 197.

وكان لوكاش من اشهر المفكرين وعياً بالنظرية الماركسية، وقدم إسهامات فى مجالات متعددة منها الأدب، والفن، والفلسفة ثم السياسية و الاجتماع، ومن أهم إسهاماته فى الماركسية الحدثة ما ظهر منها مباشرة بعد عام (١٩١٧). ولقد شكلت كتاباته بعد الحرب العالمية الأولى اتجاها معادياً للوضعية. متأثراً فى ذلك بإعمال «ريكرت وديلثى» وآخرين، وعبر عن نقده للماركسية والفكر البورجوازى فيما كتبه من مقالات (١٩١٨) وكذلك مع نشره مؤلفه «التاريخ والوعى الطبقى» (١٩٢٣)[1].

كما وجه لوكاش انتقادا إلى أسهام انجلز فى الماركسية، وذلك لأنه يرى أن انجلز عمل تحويلها من الجدل إلى نظرية اجتماعية ذات طابع ميكانيكى، والتى فيها يصبح الوعى بمثابة محصلة نهائية لتأثير القوى الخارجية، ويعكس الشروط أو الظروف الموضوعية[2]. مؤكداً فى ذلك على التمييز بين ما أطلق عليه بالوعى السيكولوجى الفعلى أو الممكن، والوعى الرشيد أو العقلانى الذى ظهر فى إطار سيطرة الرأسمالية وترتب عليه تكوين رؤية شمولية بالعملية التاريخية وذلك من خلال مفهوم وعى طبقة البروليتاريا والذى ظهر فى أشكال عديدة ومتنوعة، وأصبح غير ثورى من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يعبر عن تلك النظرة الماركسية للتاريخ، وانتهى فى النهاية إلى التأكيد على وجود الوعى الفردى الذى يفسر فى ضوء الكل فقط وإنكار أى وعى واقعى أو سيكولوجى آخر[3].

علاوة على ذلك، حاول «لوكاش» ربط الماركسية بأصولها الهيجلية «نسبة إلى هيجل»، وخاصة فى مفهوم الكلية، والمنهج الجدلى الذى كان يطبقه هيجل على الفكر، وتتحدد قوانينه فى: الفكرة ونقيضها ثم مركب يجمع ما بين الفكرة ونقيضها. كما تؤكد المسلمات الأساسية للمنهج الجدلى على ما يلى:

١ - أن الكل يكون وجوده سابقاً على الأجزاء.

٢ - أن هذه الأجزاء لا يمكن تفسيرها إلا فى ضوء علاقتها بالكل.

---

(1) Alan Swingewood, Op. Cit., PP. 201 - 202.

(2) Ibid., P. 202.

(٣) توم بوتومور، نقد علم الاجتماع الماركسى، مرجع سابق، ص ص ٦١، ٦٧.

٣ - أن معانى الحقائق تكون متضمنة فى تأمل أو تفكير الكل، وبالتالى فالحقائق تكون كلية.

٤ - أن معنى التاريخ أو الصدق لهذا التاريخ لا يكمن فى الدراسة الامبيريقية والموضوعية لبناء الرأسمالية.

فيما يحرك الطبقة العاملة للتعبير عن ضروريات التقدم التاريخى، ولذلك فإن معرفة جماعة البروليتاريا لذاتها، ووعيها بوضعها فى البناء الاجتماعى وذلك باعتبارها طبقة مستغلة **Exploited** إنما يتوافق أو يتطابق مع المعرفة بالمجتمع وطبقاته وأوضاعها ككل، حيث انه يمكن بلورة وعيها بوضعها الطبقى وفهمه فقط من وجهة نظر المجتمع ككل أى من خلال العلاقات الاجتماعية، ونسق الإنتاج وهكذا فإن المعرفة بالواقع تتمثل فيما يلازم الوضع الطبقى للبروليتاريا.

وهكذا نظر لوكاش للماركسية على أنها أيديولوجية دفاعية وليست نسق منظم للمعرفة يقوم على قوانين التاريخ الموضوعية، وتطبيق المنهج العلمى ولكنها الفعل أو الممارسة **Praxis** التى فيها يصبح الفرد بمثابة ذات وليس كموضوع لعملية تاريخية. وبذلك يكون واضح أن مفهوم الكلية لديه لا يكون أمبريقياً ولكنه كمقولة تاريخية، والتى فيها يكون الكل بمثابة تعبير مباشر عن العملية التاريخية، وتكون علاقة الأجزاء بالكل متناسقة هذا فضلاً على أنها تكون جدلية[١]. حيث أنه لا يمكن لنا فهم أى علاقة من جانب الفرد إلا فى ضوء علاقته أيضاً بالمجتمع الذى يوجد فيه، وجاء هذا التأكيد على الكليات الثقافية أيضاً عند «كيرت ليفين» فى علم نفس الجشطلت وكذلك من جانب المناهج الجدلية، و«جولدمان» أيضاً فى تحليله لانبثاق الصيغ والكليات الثقافية بعد إقامة أساس لعلاقة سوسيواقتصادية[٢].

٤ - أنطونى جرامشى A. Gramisci

بداية، يمكن وصف أعمال جرامشى على أنها أعظم النظريات الماركسية الأصيلة التى ظهرت فى النصف الأول من القرن العشرين، ويأتى ذلك من خلال اهتمامه بمشاكل الثقافة وعلاقة الصيغ أو الأشكال الثقافية بالبعد أو المجال

(1) Alan Swingewood, Op. Cit., PP. 203 - 205.

(2) Norman Birnbaum, Op. Cit., P. 133.

السياسى. كما يشترك «جرامشى» مع «لوكاش» فى معارضة الوضعية، وكذلك كل أشكال الحتمية والمادية فى الماركسية التقليدية وما تتضمنه من فلسفة للعمل أو الممارسة(١).

ولقد نظر جرامشى إلى مفهوم التجانس باعتباره يستخدم الآن على نطاق واسع فى العلوم الاجتماعية، شأنه فى هذا شأن مفهوم الاغتراب، وكان يرى فيه تعبيراً عن استقلالية المجتمع المدنى فى السماح بتكوين تنظيمات خاصة، وذلك فى مجال التعليم وفى الأحزاب السياسية، وإتحادات التجارة والصناعة والجماعات الاجتماعية غير الرسمية التى تشكل أسلوباً للتوافق، ومن ناحية أخرى نجده قد استخدام مفهوم التجانس بطرق متعددة منها ما هو سياسى، وثقافى. حيث يتضمن التجانس لديه معاً كل من الإجبار أو القهر المباشر، وغير المباشر، والوعى، بتلك الطرق التى من خلالها يحدث توافق-وتكيف للعناصر فى ظل النظام القائم(٢).

ومما هو جدير بالذكر، لقد رفض جرامشى ثنائية أو ازدواجية الطبيعة والمجتمع، مؤكداً فى تناوله لهما، على أن مقولة الطبيعة تكون ذاتها اجتماعية وتاريخية، حيث تكون العملية التاريخية لها ذات خصائص مميزة وأنها ليست ببساطة قوى اقتصادية ولكنها إرادة إنسانية طوعية، تنتظم فى أشكال جمعية، وتصبح محركاً أو دافعاً لقوى الاقتصاد، كما أن فى تفسيره للثورة أكد على أهمية العامل الثقافى، ومن ثم يرى أن الثورة لا تكون مرحلة آلية أوتوماتيكية لقوى الاقتصاد الخارجية، ولكنها نتيجة لتشكيل الوعى الثقافة من جانب إحدى الطبقات عبر كل الطبقات الأخرى. ومن ثم يكون التجانس الثقافى فى رأيه سابقاً لفعل الثورة، وهكذا فإنه يتشكل من خلال ذلك الفعل الجمعى الذى يعبر عنه أفعال الجماعة ككل، فالتجانس هنا إنما يحدث داخل المجتمع المدنى، وداخل تلك المنظمات والجماعات التى تتوسط فى العلاقة بين الفرد والدولة(٣).

---

(1) Alan Swingewood, Op. Cit., PP. 207 - 209..

(2) Jack Lindsay, The Crisis In Marxism, New Jersey, Barnes & Noble Books: 1981, P. 4.

(3) Alan Swingewood, Op. Cit., PP. 208 - 209.

علاوة على ذلك، يرى أن الدولة تعنى كل من المجتمع المدنى والمجتمع السياسى ومن ثم يوجد تطابقاً بين المجتمع المدنى والدولة، وكان يبدى معارضة شديدة لإرجاع البناء الفوقى والثقافة للأساس الاقتصادى[1]. ولذلك لا يمكن أن ننظر إلى الظروف الاقتصادية باعتبارها محدد نهائى للأوضاع الإنسانية حيث لا تنبع الأفكار تلقائياً من تلك الجوانب المادية مؤكداً فى ذلك على الدور الخلاق لأوضاع الفكرية، وعلى إنجاز التحرر الثورى للبروليتاريا فقط من خلال التحام المفكرين ونشاطاتهم، وكذلك الأعمال الطوعية والإرادة الخلاقة مع الطبقة العاملة التى يجب عليها قبل أن تحدد حجم قوتها أن تؤسس المطالبة بالقوة فى المجال السياسى والثقافى والأخلاقى وتطور خصائص ثقافية لها حدود فى التجانس[2].

وهكذا فإن استخدامه لمفهوم التجانس إنما يناقشه من منطلق فكرة تكامل الجماعات الاجتماعية. حيث يرى أن التجانس كمركب فعال يفيد فى تماثل الجوانب الفكرية والسياسية، والقيادة الأخلاقية. ومن ثم يمكن للجماعات أن تدافع عن مصالحها وذلك من خلال التوحد بينها وبين كل تلك الجماعات الأخرى حتى تنمو وتتطور الجماعة إلى طبقة اجتماعية متجانسة فيما بعد من خلال تمثيلها لكل القوى الشعبية.

كما يتضمن مفهوم التجانس لديه من نلحية ثالثة وجود علاقة ديمقراطية بين الحاكم والمحكوم، ووجود تلك المنظمات التى تمكن الجماعات الخاضعة والمحكومة من الارتباط بمصالحها والدفاع عنها وتبنى ثقافة متميزة لها. فالثورة لديه لا تكون فى الانتقال إلى طبقة جديدة من خلال أحداث تحول فى القوة الاقتصادية والاستيلاء على أجهزة الدولة، ولكن ببساطة تكون ثورة البروليتاريا هى عملية مشاركة شعبية وجموعية Mass وتدريب لإرادة الجمع من خلال المشاركة الثقافية لتصبح بمثابة ذات نشطة وقوى متجانسة، وهكذا يتسع أو ينمو المجتمع المدنى وكذلك مؤسساته الديمقراطية[3]. وفى النهاية يمكن القول

(1) Jack Lindsay, Op. Cit., P. 137.

(2) Lewis A. Coser, Op. Cit., PP. 194 - 195.

(3) Alan Swingewood, Op. Cit., PP. 210 - 211.

أن تأكيده على التجانس فى كل صوره وأشكاله ربما يأتى مما عانى منه فى طفولته من إحساس بالعزلة والاغتراب وما تعرض له من مصاعب.

وأخيراً، يوضح جرامشى ما تقوم به العملية الفكرية من دور هام فى الربط بين الأساس الاقتصادى للبناء الطبقى مع المنظمات الثقافية الواسعة، وذلك من خلال أن كل جماعة اجتماعية إنما تأتى إلى وجود على أرض جديدة ولوظيفة أساسية فى مجال الإنتاج الاقتصادى، وتتشكل وتعمل معاً من خلال ارتباطها مع ذاتها عضوياً وتكون ذات خصوصية فكرية أو أكثر، ومن ثم فإن الذى يمنحها التجانس ووعيها بوظيفتها لا يكون فى الاقتصاد والأساس المادى، ولكن فى المجالات الاجتماعية والسياسية.

وهكذا، يرى جرامشى أن نضال الطبقات الاجتماعية يكون من أجل التجانس، الذى يعمل على الانتقال بذاتها من بناء غير متبلور أو ناضج إلى جماعة ذات وحدة متجانسة أيديولوجياً، ومن ثم يجب على هذه الجماعات الطبقية أن تستوعب أو تعى جيداً الأوضاع الثقافية فى المجتمع. لأنه يميز داخلها بين نوعين من الأفكار الثقافية أحدهما عضوى والأخر تقليدى حيث تنتمى الأولى - العضوية - إلى جماعات اجتماعية تهدف مباشرة إلى التوجه للمجتمع ككل وتظهر كنتيجة للتغيرات فى أسلوب الإنتاج ومن ثم تعبر عن طموحات الطبقة دون أن تؤسس ذاتها كطبقة. وفى مقابل ذلك نجد تلك الأفكار الثقافية التقليدية التى تظهر من خلال عملية الاستمرار التاريخى ومن ثم فهى تحدد ذاتها من خلال الاعتماد على بعد الطبقة، وتحاول أن تربط بين الماضى والحاضر وذلك باعتباره عملية تاريخية مستمرة[1].

٥ - هربرت ماركيوز H. Marcuse

يعد ذلك الفيلسوف الألمانى هربرت ماركيوز[★] من بين مؤسسى مدرسة

---

(1) Ibid., PP. 213 - 214.

★ على الرغم مما أتضح من خلال تناولنا للكتابات السوسيولوجية فيما أشارت إليه بعضها إلى محاولة تصنيف ضمن أنصار اليسار الجديد والهيجليين الجدد. فى حين أشار البعض الآخر منها أيضاً إلى تصنيفه ضمن أتباع مدرسة فرانكفورت، ورغم ذلك الاختلاف إلا أننا نميل إلى هذا الرأى الأخير.

فرانكفورت للبحث الاجتماعى، التى تعرف بمدخلها الماركسى فى معالجة المشكلات الاجتماعية[1]. ويتحدد فكر ماركيوز فى بعض الجوانب أو العناصر الرئيسية منها نقده لتلك الأساليب الفكرية السائدة، ثم نقده أيضاً للوضعية، ويتحدد أخيراً فى النقد الذى وجه للمجتمع[2].ثم حاول أن يعبر فى مؤلفه بعنوان «الإنسان ذو البعد الواحد» (١٩٦٤) عن تلك التناقضات السائدة فى المجتمع الرأسمالى وما يسوده من ظواهر القمع والتمرد، وبعض المشاكل المترتبة على التقدم الصناعى والتكنولوجى فى هذه المجتمعات الصناعية[3].

كما حدد ماركيوز ملامح النظام الرأسمالى السائد فى المجتمعات الصناعية ذات التقدم التكنولوجى، ومن ثم وجد أنه يسعى نحو الضبط والسيطرة سواء كان ذلك فى المجال التنظيمى أو فى مجال الحياة الاجتماعية بصفة عامة، وبالتالى فهو يعد وسيلة للضبط على حياة الأفراد وحقوقهم من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح مما يترتب على ذلك القضاء على كل الجوانب التلقائية والقدرات الابتكارية والابداعية لدى الكائنات الإنسانية فى هذه المجتمعات الرأسمالية.

كما أوضح عجز النظرية الماركسية عن تحليل وتفسير تلك النظم الاقتصادية الإمبريالية، وما ترتب على وجودها من تغيرات جعلت أفراد الطبقة العاملة يستشعرون بضرورة الحفاظ على ذلك الوضع الراهن من أجل البقاء على مصالحهم، ولقد نبع ذلك أصلاً من تلك الإيديولوجية التى تبناها هذا النظام الرأسمالى وما تقدمه

- ولد ماركيوز فى ألمانيا وكان واحداً من بين الذين نزحوا إلى (سيوزلاند) Suitzerland ثم إلى الولايات المتحدة. ونظراً لاتجاهه الماركسى وإزاء السلطة له اضطر إلى الرحيل لروسيا وكما حدث له فى أمريكا حدث أيضاً فى روسيا حيث حكم عليه بالإدانة نظراً لاشتراكه فى بعض وكالات الاستخبارات المركزية. إعتمدنا فى ذلك على المصدر التالى:

  Ibid., P. 179.

(1) A. U. S. New & World Report Book, Op. Cit., P., 179.

(٢) د. أحمد زيد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(٣) د. عبد الباسط عبد المعطى، د. عادل مختار الهوارى، فى نظرية المعاصرة لعلم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٣٦٢.

من تبريرات مقنعة جعلت الطبقة العاملة تفقد دورها الثورى[1]. وعبر عن ذلك «ماركيوز» فى وصفه لسيطرة الأيديولوجية الرأسمالية وما تحتوى عليه من بعض المفاهيم السيكولوجية مثل مفهوم القمع الفوقي أو القمع القائم من خلال تسامى النزوات[2]. وبهذا يكون ماركيوز قد حاول أن يقدم تحليلات متعمقة للمجتمع الذى يعيش فيه، وكشف فيها عن كثير من مثالبه وما يترتب عليها من مشكلات اجتماعية قد انتشرت فى مختلف الأنظمة السائدة فى المجتمع والتى يرى أنها تتساوى فى هذا مع غيرها السائدة فى تلك الدول الاشتراكية[3].

هكذا يبدو تشابه بين «ماركيوز» وبعض أنصار هذا الاتجاه فى التأكيد على فقدان طبقة البروليتاريا لدورها الثورى، وتحويل الاهتمام إلى دور بعض الجماعات الأخرى. إلا أن ماركيوز قد حددها خاصة فى الملونين والمتعطلين أو المضطهدين والفقراء بصفة عامة فى الوقت الذى حددها البعض الآخر فى جماعات الفلاحين والمهمشين والمفكرين[4]. فى حين أننا نرى الآن أن كل هذه الجماعات والشرائح الطبقية قد فقدت ثوريتها مما جعل بعض الباحثين يطلق مقولة «نهاية الطبقة» أو موت الطبقة الثورية نظراً لسيطرة الشركات متعددة الجنسيات وقيام التحالفات والتكتلات الاقتصادية وغيرها من تغيرات عديدة معاصرة حدثت فى أواخر القرن العشرين وبدايات ألقرن الحادى والعشرين.

مناقشة وتعقيب

أنه على الغرم مما أوضحته تلك الجماعات اليسارية الجديدة على المستوى المجتمع بصفة عامة، وعلى مستوى الجماعات الاجتماعية بصفة خاصة حول ما يتعلق بطبيعة العلاقة الاجتماعية بين جماعات الأغلبية من البيض وجماعات القلية

(١) د. عبد الباسط عبد المعطى، الاتجاه السوفيتى: قراءة نقدية فى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص ١٥١ - ١٥٢.

(٢) جورج لاباساد، رينيه لورو، مرجع سابق، ص ص ٨٠ - ٨١.

(٣) د. عبد الباسط عبد المعطى، د. عادل مختار الهوارى، فى النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٣٦٢.

(٤) د. عبد الباسط عبد المعطى، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، مرجع سابق، ص ٢١٤.

من الزنوج وما تقوم عليه هذه العلاقة المتميزة من أسس واضحة هذا من ناحية. كما أنه على الرغم مما أسهمت به تلك الجماعات اليسارية فى تكوين النواة الأولى للحركة الراديكالية الساعية لحو التغيير ومحاولة البحث عن واقع آخر جديد عبرت عنه فى شكل أهداف وقضايا أساسية طرحتها للمناقشة هذا من ناحية أخرى، إلا أن هناك بعض المثالب التى تؤخذ على هذه الجماعات اليسارية.

وكان من بين هذه الأخطاء التى وقع فيها أعضاء هذه الجماعات وترتب عليهم فشلهم فى تحقيق أهدافهم هى مشكلة التمركز، والتى تبدو من خلال المقارنة بين الوسائل الإصلاحية التى تعرضها الاشتراكية بتلك الأخرى لليسار الجديد. حيث نجد أن الأخير يركز فى الدعوة للإصلاح على المناقشة والخطابات، كما أن تلك السياسات التى تقوم على المناقشات النظرية لدى هذه الجماعات اليسارية إنما أدت إلى إضعافها نظراً لحاجتها إلى الممارسة والخبرات العملية، وكذلك أيضاً تمركزت وسائلهم فى التعبير عن رفض الواقع فى التذمر والتظاهر والاحتجاج أو الانعزال أحياناً أخرى، ولا يمكن حل المشكلات وإصلاح النظم الاجتماعية أو استبدالها بأخرى من خلال العزلة، وبالتالى يمكن القول بأن خبرة اليسار الجديد كانت تتسم بالعوز والحاجة إلى الاكتمال فهى ولا تزال فى مراحلها الأولى للنمو. هذه الخبرة تحتاج إلى برنامج متصل من التفكير والعمل، والنظر للتنظيمات البيروقراطية ذات الحجم الكبير على أنها شبكة متصلة من العمل والنشاط الفكرى وليس على أنها تسلسل للأوامر[1].

كما أنه لم توجد علاقة قوية تقوم بين أفكارهم وممارساتهم لبعض الأنشطة المتصلة بنمط محدد من الموسيقى، واستخدام العقاقير المخدرة. حيث أن ذلك لا يعبر إلا عن أحاسيس فترة المراهقة فى حالة الإصابة بالملل واليأس من تغيير الواقع القائم والمحيط بهم. هذا من ناحية، وكذلك نجد فى استخدامهم لهذه العقاقير إنما يمثل فى حد ذاته تدمير لقوى المجتمع حتى وإن كانت طريقة استخدامها ومغزاها من وجهة النظر الفردية تعبر عن حالة الرفض للواقع إلا أنها تمثل مصدراً لاضطرابات وإثارة المتاعب الشخصية وذلك من ناحية أخرى.

(1) Mechael Rustin, Op. Cit., P., P., 67, 80.

ومما هو جدير بالإشارة إليه، إذا كان أنصار اليسار الجديد قد عبروا عن وسائلهم في تحقيق أهدافهم إلا أنه يمكن القول أن الرغبة في إقامة مجتمع آخر وتقديم نظم أخرى بديلة لا تنبع من مجرد تلك الاحتفالات التي تستخدم فيها الموسيقى الشعبية، وذلك لأنها تكون في حد ذاتها بمثابة محاولة تتسم بالسعي نحو تحقيق أهداف شخصية ومزيد من المكاسب المادية، الأمر الذي يكون واضحاً فيما يستخدمه بعض الفنانين لنوع معين من الأغاني[1]. وإلى جانب هذا قد انجذب اليسار الجديد نحو سياسات جديدة - الليبرالية - وفشل في خلق أو تطوير فكرة ديمقراطية المشاركة وترجمتها إلى تصور في شكل جديد يكون قابل للتطبيق ويسهم في بناء المجتمع، كما أن دفاعهم عنها لم يحتوى على أساس سوسيواقتصادي ملائم لنقد النظام الرأسمالي حيث انشغل أنصاره بالحديث عن حكم الصفوة وبلورة متاعب الأشخاص الخاضعين فقط، في حين أنهم فشلوا في الإشارة إلى أهمية تحليل وتفسير الحكم الطبقي[2]. وفي تصورهم لمفهوم ديمقراطية المشاركة باعتباره يقوم لديهم على حكم القاعدة وليس صفوة القوة المسيطرة. إنما يعكس هذا اهتماماتهم الضيقة التي كانت أشبه بالفوضوية في حالات التمرد والتظاهر وافتقارهم آنذاك إلى التنظيم خاصة في اعتقادهم بأن كل جماعات المجتمع سوف تشارك جميعاً في اتخاذ القرارات. وذلك على اعتبار أن الناس سوف تستجيب لهذه المشاركة الديمقراطية وكأن هناك روح خفية تحركهم وتدفعهم للمشاركة، ومن ثم نجد في هذا ما يدلل على قصور تصورهم لمدلول ذلك المفهوم السياسي[3].

ومما هو جدير بالذكر، أنه على الرغم مما أسهمت به الحرب التي كانت قائمة بين أمريكا وفيتنام في إثارة المشاعر النضالية لدى الجماعات اليسارية الرافضة لعملية الحروب والتسليح المعبرة عنها في تظاهرها وتمردها، إلا أن استمرارية هذه الجماعات في الوجود أو انتهائها منه إنما يكون محكوماً بانتهاء أو استمرارية هذه الحرب باعتبارها عامل هام في إثارة هؤلاء الأفراد الرافضين للحروب[4].

---

(١) بوتومور، علم الاجتماع: منظور اجتماعي نقدي، مرجع سابق، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(2) Ronal Aronson & John C. Cowley, Op. Cit., P. 44.

(3) A. U. S. New & World Report Book, Op. Cit., P., 181.

(٤) بوتومور علم الاجتماع: منظور اجتماعي نقدي، مرجع سابق، ص ٢٦١.

وفى الحقيقة، فإن تلك الانتقادات التى وجهتها الجماعات الطلابية إلى بناء الجامعى ووظائفه إنما تكون فى ذاتها بمثابة عامل يؤدى إلى التقليل من دور الجامعات فى المجتمع. حيث أنه لا يمكن تصور حدوث أى تطور مجتمعى بدون وجود لمثل هذه الجامعات التى تعمل على توجيهه فكرياً ومنهجياً والاسهام فى تنمية رأس المال البشرى. كما أنه إذا كان سخط هذه الجماعات الطلابية يكون بمثابة علامة مميزة لتمرد جيل من الأجيال على ما هو قائم فى المجتمع، ويعكس بعض التحولات أو التغيرات الرئيسية فى دور الطلاب وأعضاء الجامعات بالمجتمع المعاصر، إلا أن فيها من ناحية أخرى ما يضفى على أنصار اليسار الجديد سمة الهامشية الذين لا يملكون أى أمل واقعى لإحراز هذا التغيير الذى يرغبونه[1].

علاوة على ذلك، أنهم تحدثوا عن الاشتراكية والماركسية، ولكن تأكيدهم كان على البناء الفوقى، واهتموا بعملية انتقال القوى السياسية من إحدى الجماعات الاجتماعية إلى غيرها دون أى محاولة من جانبهم لتوضيح ما الذى يجب عمله فى هذا الشأن. وفى ضوء ذلك، يمكن القول بأن أنصار اليسار الجديد إنما سعوا للتظاهر والمعارضة وتوجيه النقد لما هو قائم. لذلك كانت الأيديولوجيات التى تبناها هؤلاء الأنصار تتسم بالغموض وعدم الوضوح وغير جديرة بالصدق أو المسئولية لما كانت تتضمنه من سلوك أو فعل سياسى علنى[2].

وعلى الرغم من أن الجماعات الطلابية حاولت إيجاد نوع من الوحدة بينها وبين غيرها من الجماعات الأخرى فى المجتمع مثال تلك النقابات العمالية فى فرنسا ودول ألمانيا الغربية إلا أن نجاح تلك الحركات لم يستمر كثيراً من ناحية، كما أن ثمة اختلافات أساسية توجد بينهم من ناحية أخرى تكمن فى أن عضوية جماعات الطلاب فى الدراسة الجامعية إنما تكون مؤقتة نظراً لارتباطها بسنوات الدراسة الجامعية فقط. علاوة على، أن جماعات الطلاب ليسوا مثل جماعات العمال من حيث مدى الظلم والاضطهاد الواقع عليهم فى المجتمع

---

(1) Bogdan Denitg, The New Left and the New Working Class, In: Radical Sociology, OP. Cit.,.P. 350.

(2) A. U. S. News & World Report Book, Op. Cit., PP. 17 - 39.

والخفاض ظروفهم المعيشية، وطبيعة أعمالهم الصعبة التى يؤدونها كل ذلك لا نجده عند جماعات الطلاب، علاوة على أن الجماعات العمالية تشكل فى حد ذاتها تأثيراً على جماعات السكان الأخرى فى المجتمع أكثر من جماعات الطلاب التى تعتبر على المستوى المحلى بمثابة جماعة أقلية[1].

وفى الواقع، أن ما عبرت عنه تلك الجماعات اليسارية فى مختلف أشكالها هى فى حد ذاتها تتصف بالشيخوخة وذلك على حد تعبير بعض الباحثين. حيث لم يعد التظاهر والتمرد علامة للاحتجاج فى العصر الحديث حيث حل محله القانون والنظام، وكذلك أيضاً لظهور بعض الإسهامات الأخرى التى شكلت فيما بينها ما يطلق عليها أنصار علم الاجتماع النقدى وذلك قبل أن يأخذ اليسار الجديد فكراً اجتماعياً متميزاً[2]. وكذلك فإن ثمة اتفاق يسود بين الباحثين فى علم الاجتماع على أن اليسار الجديد - البريطانى و الأوروبى - بصفة عامة كان يفتقر إلى تصور إستراتيجى واضح عن كيفية تحقيق الاشتراكية. حيث أن تلك الجماعات اليسارية إنما اقتصرت من جانبها على محاولة توجيه النقد الأخلاقى والفكرى للمجتمع مجرداً عن إطاره التاريخى والتى لا يمكن للقيم الاجتماعية أن تتجسد إلا فى ضوئه[3].

علاوة على ما سبق، فإنهم اتفقوا جميعاً على التطلع نحو الواقع الاجتماعي الآخر ذى الخصائص التى يرغبونها فيه، والتى يتمثل بعضها فى المساواة فى الحقوق والعلاقات الاجتماعية الشخصية، واختفاء الملكية الخاصة حيث تحل محلها الملكية العامة، وإلغاء العمل مقابل أجر. إلا أنهم من ناحية أخرى يختلفون حول نوع النظريات الاجتماعية التى توجه هذا التغير لديهم، فمن الصعوبة تحرير الناس والسعى نحو تحقيق كل ذلك دون محاولة تكوين ثقافة مضادة تحتوى على نظريات اجتماعية واضحة. علاوة على، أن رفضهم

---

(١) بوتومور، علم الاجتماع: منظور اجتماعى نقدى، مرجع سابق، ص ص ٢٥ - ٥٥.

(٢) د. حازم الببلاوى، مرجع سابق، ص ١٤

(٣) بيرى أندرسون، مشاكل الاستراتيجية الاشتراكية، مقال منشور بمجلة اليسار الجديد: نحو الاشتراكية، ترجمة د. عبد الكريم أحمد، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٥، ص ص ٢٠٠ - ٢٠١.

للنظريات السائدة كان قائماً على سعيهم نحو تبنى نظريات أخرى - الماركسية - لا يعرفون عنها الكثير. وهذا موقف ينطوى بداخله على فجوة وتناقض واضح بين أهدافهم ومستوى نظرياتهم[1].

ومما هو جدير بالإشارة إليه، أن كل من اليسار الجديد والماركسية المحدثة أو بعبارة أخرى تلك الاتجاهات النقدية فى النظرية السوسيولوجية إنما تشترك فيما بينها فى سعى أنصار اليسار الجديد على توجيه النقد إلى الاتجاه المحافظ فى الفكر البورجوازى، وتلك السياسيات الخاصة بالمجتمعات الرأسمالية المتقدمة صناعياً، كما يشاركه فى ذلك أنصار الماركسية المحدثة أيضاً فى نقد السياسات الإمبريالية وسعى الدول المتقدمة فى تكريس تخلف الدول النامية من العالم الثالث.

فضلاً عن ذلك، وجه أنصار الماركسية المحدثة، وكذلك أنصار مدرسة فرانكفورت للبحث الاجتماعى نقداً إلى نظرية «ماركس» وكذلك النظريات البورجوازية الغربية وأشكالها الوضعية، وذلك فى الوقت الذى حاول فيه أنصار اليسار الجديد توجيه النقد إلى الماركسية ذاتها. ومجمل القول سعت هذه الاتجاهات النقدية نحو رفض الواقع الاجتماعى القائم بكل وسائلهم المعبرة عن ذلك، مع محاولة تقديمهم البديل له. الذى انحصر عند أنصار اليسار الجديد فى التعبير السلمى بينما تحدد فى طريق التغيير الجذرى الشامل كما عبر عنه أنصار الماركسية المحدثة ومدرسة فرانكفورت أو الاتجاه النقدى فى علم الاجتماع[2].

وعلى أية حال، أن تلك الاتجاهات النقدية حددت خصائص لهذا المجتمع الذى كانوا يتطلعون إليه فيما يلى: أن يكون المعيار الاجتماعى للعمل فيه ليس احتياجات الرأسمالية الاحتكارية بل الحاجات الاجتماعية، وكذلك أن يقوم تنظيم هذا المجتمع على اللامركزية فى اتخاذ القرارات ومحاولة الاعتماد على مناقشتها بين كل جماعاته المكونة له. وإحلال التماسك والمودة والتعاون محل السيطرة الاقتصادية والثقافية والسيادة السياسية، ومحاولة التحرر من التسلط والانفراد بالرأى، كما يعد القضاء على كل أشكال الملكية الخاصة وإحلال

---

(١) د. سمير نعيم أحمد: مرجع سابق، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٢٧١ - ٢٧٢.

الملكية العامة بدلاً منها وظهور بعض أنماط الجماعات الاجتماعية المختلفة كماً وكيفاً مثال الأسرة الممتدة والكميونات، وذلك بديلاً عن الأسرة النواة والفردية والعزلة والاغتراب وما يترتب عليها من ظواهر كلها فردية وسلبية فى آثارها على مستوى كل من الجماعة والمجتمع معاً[1].

وفى الحقيقة توجد بعض الإسهامات الهامة التى قدمها أنصار مدرسة فرانكفورت للبحث الاجتماعى وخاصة فيما يتعلق بتلك المفهومات الأساسية فى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى، وذلك كمفهوم الفرد والجماعة والمجتمع وتأكيدهم على عدم وجود مجتمع أو فرد مطبق وذلك نظراً لما بينهما من علاقة تفاعلية متبادلة وأن لكل منهما وجود واقعى حيث أنه يجب النظر إلى الفرد من خلال إدراك حريته فى القدرة على التعبير عن رأيه فى إطار مجتمع إنسانى عادل من ناحية، ومن ناحية أخرى أنصار هذه المدرسة تقديم تفسير لظهور الجماعات الاجتماعية غير الرسمية فى تلك المجتمعات الرأسمالية والمتقدمة صناعياً بصفة خاصة، وفى كل المجتمعات عامة، وذلك باعتبارها تمثل مظهراً من مظاهر الاستجابة النقدية لتلك الضغوط وكل أشكال القهر التى يمارسها المجتمع الجماهيرى على كل أفراده وجماعاته الذين أصبحت تسيطر عليهم العلاقات الرسمية[2].

وعلى الرغم مما سبق هناك بعض نقاط الضعف التى تؤخذ على أنصار الاتجاه النقدى منها إذا نظرنا إلى «جرامشى» نجده لم يبلور تلك الفكرة المتعلقة بالمبدأ أو المنهج الجدلى ولم يحاول توضيح قيمتها فى محاولة بحث وتتابع معين للأحداث، وان كل ما قدمه هو عبارة عن صياغة لبعض الانتقادات التى كان أكثرها عامة حول نقطة محددة هى أن علم الاجتماع لم يقدم أى قوانين أصيلة بل كان هدفه الرئيسى هو وصفه وتعريفه للماركسية على أنها نظرة فلسفية للعالم[3].

(١) د. سمير نعيم أحمد، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

(٢) د. محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، مرجع سابق، ص ٥٥١.

(٣) توم بوتومور، نقد علم الاجتماع الماركسى، مرجع سابق، ص ٦٩.

كذلك من خلال النظر إلى إسهامات «لوكاش» نجده فى فكرة الوعى الطبقى إنما يقيم مقابلة مفروضة بين الوعى السيكولوجى للبروليتاريا ووعيها الطبقى[1]. وكذلك أيضا عندما تحول من «ماركس» إلى «هيجل» مزج «هيجل» باسميه «ماكس فيبر» وبطريقة توفيقية، وبنى فكره عن الطبقات الاجتماعية وخاصة طبقة البروليتاريا على نظرية ميتافيزيقية وضعت أمامه كثير من الصعوبات. هذا إلى جانب أن تحديد مفهوم الطبقات الاجتماعية كان لدى عدد كبير من أنصار الماركسية المحدثة بمثابة ظواهر اجتماعية كلية، وليست مجموعات من النماذج المتماثلة أو الفئات الاجتماعية، أو تلك التجمعات الاختيارية، وأخيراً مجرد تنظيمات[2]. وكذلك يمكن النظر إلى لوكاش باعتباره من أنصار الوعى الشامل والمغلق والمعزول، وذلك مما يتعارض تماماً مع تلك الواقعية المتضمنة فى المادية الجدلية، ومع تعريف الطبقة على أنها موضوع كلى وإشاراته إلى بنية الوعى. وبذلك فإنه يجهل نظرية الوعى والاتفاق الجمعى عند دوركايم[3].

علاوة على كل هذه الانتقادات السابقة أيضاً، يوجه البعض الآخر انتقادات إلى هربرت ماركيوز فى نقده للمجتمعات الصناعية ذات النظام الرأسمالى المتقدم على أنه لم يقدم أو يقترح بديلاً للنسق القائم الذى نظر إليه على أنه غير عقلى، ومقيد للجوانب والقدرات الانسانية. كما أكد على تناقض موقفه النظرى «سيدنى هوك» Sidney Hook وخاصة فى تفسيره لوجهة نظره فى الفلسفة الماركسية وقوله بأنها ديمقراطية ويعتقد بأنه يجب إرغام الناس ليكونوا أو يصبحوا أقوياء ومتآلفين مع بعضهما البعض أيضا[4].

وأخيراً، يرى بعض الباحثين أن تحليل «ماركيوز» للعلاقة بين البرجوازية والبروليتاريا تحليل يفتقد إلى الدقة والعمق التاريخى، وذلك لأن جوهر العلاقة

(١) جورج جورفتيش، الطبقات الاجتماعية، ترجمة أحمد رضا، د. عز الدين فوده، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٩٢

(٢) المرجع السابق، ص ص ٩٣ - ٩٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٠

(4) A. U. S. New & World Report Book, Op. Cit., P., P., 179, 181.

بين هاتين الطبقتين لم يتغير ... كما أن ماركيوز لم يضع فكرته الأساسية الخاصة بقبول العمال فى اتجاه وحيد فى الاعتبار عند تفسير العلاقة بين هاتين الطبقتين. فالعمال مازالوا خاضعين، ويمارس عليهم الاستغلال والقهر الاقتصادى والسياسى والاجتماعى ... الخ وكل ما حولهم يعمل على تزييف وعيهم، سواء من خلال الثقافة، أو من خلال العلم الاجتماعى(١).

(١) د. عبد الباسط عبد المعطى، الاتجاه السوفيتى: قراءة نقدية فى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٣٥.

الفصل الخامس
التفاعلية الرمزية

- مقدمـــــة:

التفاعلية الرمزية: المفهوم والقضايا.

١ - أنصار التفاعلية الرمزية: فى مرحلة النشأة.

(أ) وليم جيمس.

(ب) تشارلز هورتون كولى.

(جـ) جورج هربرت ميد.

(د) وليم اسحق توماس.

(هـ) جون ديوى.

٢ - خصائص التفاعلية الرمزية فى مرحلة النشأة.

٣ - الاتجاهات المعاصرة للتفاعلية الرمزية.

(أ) هربرت بلومر.

(ب) مانفورد كون.

(جـ) المدخل المسرحى عند جوفمان.

- مناقشة وتعقيب:

الفصل الخامس
التفاعلية الرمزية(*)

مقدمة:

أن القضية التى طرحت نفسها على بساط البحث الاجتماعى فى القرن التاسع عشر والتى تتعلق بالمنهج الملائم للبحث والدراسة فى العلوم الاجتماعية بصفة عامة، وعلم الاجتماع بصفة خاصة، إنما جاءت نتيجة لذلك الحوار الذى دار بين كل من أنصار الوضعية من جهة، وغيرهم من أنصار النزعة الإنسانية من جهة أخرى. مما ترتب عليه انه أصبح هناك موقفان متعارضان. الموقف الأول عبر عنه أنصار الوضعية الذين يرون ضرورة أتباع منهج العلوم الطبيعية عند البحث والدراسة فى علم الاجتماع معتمدين فى ذلك على العد والقياس، ومحاولة التحقق الأمبيريقى من صدق الفروض، وبذلك أصبح يشكل أنصار هذا الموقف ما يعرف باسم الاتجاه الكمى فى علم الاجتماع.

وعلى الطرف المقابل، نجد فريقاً آخر يمثله أنصار النزعة الإنسانية الذين ابدوا معارضة شديدة لأنصار الاتجاه الأول فى البحث والدارسة، وحجتهم فى ذلك أن موضوع الدراسة فى العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة إنما يختلف بالضرورة عن موضوع الدراسة فى العلوم الاجتماعية، ومن ثم لا يكون هناك مبرراً لأتباع نفس منهج العلوم الطبيعية. وبناء على ذلك حاولوا البحث عن منهج ملائم لموضوع البحث والدراسة يقوم أساسا على الفهم ويعتمد على إجراءات وإستراتيجيات منهجية مغايرة لما يستخدمه أنصار الاتجاه الأول. وبذلك أصبح يمثل أنصار هذا الفريق ما يعرف بالاتجاه الكيفى فى البحث الاجتماعى(1). ويعتبر المنهج التاريخى رافداً من روافد ذلك الاتجاه بالإضافة إلى بعض الطرق والأدوات البحثية منها دراسة الحالة، والملاحظة بالمشاركة، وتحليل الوثائق الشخصية وتواريخ الحياة. وعلاوة على، إجراء المقابلات المتعمقة

★ أعد هذا الفصل د. السيد محمد الرامخ.

(1) د. محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، الطبعة الثانية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١، ص ٤٧١.

والمعايشة أو الاندماج فى حياة الجماعة أو موقف الدراسة من جانب الباحث مع الأخذ فى الاعتبار أن تكون كل التقارير والملاحظات عن موقف الدراسة مدونة باللغة الطبيعية أو العادية وذلك كما تحدث فى العالم الاجتماعى اليومى، وبذلك يؤكد أنصار هذا الاتجاه الكيفى على ضرورة دراسة سلوك الأفراد والجماعات ومختلف المواقف والظواهر الاجتماعية كما تحدث بالفعل فى سياق الحياة اليومية(١).

كما أن فى نظرتهم الشمولية للواقع الاجتماعى بهدف التأكيد على أنه ذات أبعاد متعددة ومتداخلة(٢). ولهم فى ذلك بعض الدعاوى الأساسية منها أنه من أجل محاولة فهم السلوك الإنسانى لابد من النظر إليه باعتبار أن له مظهرين، أحدهما داخلى والآخر خارجى بينهما تداخل وتفاعل حيث لا يمكن لنا التعرف على مظهره الكامن وفهمه إلا من خلال المعايشة والاندماج أو المشاركة مع الأخذ فى الاعتبار أنه حصيلة عوامل متعددة. مما يساعد فى النهاية إلى التعرف على طبيعة العمليات الاجتماعية، وفهم دوافع التفاعل الاجتماعى بين أعضاء الجماعات الاجتماعية، وذلك فى ضوء طبيعتها الرمزية، ومن ثم يمكن لنا فهم وتفسير السلوك الإنسانى لأعضاء المجتمع بصفة عامة(٣).

وفى ضوء ذلك ظهرت مدارس فكرية متنوعة داخل علم الاجتماع عامة(★)، والأمريكى خاصة، فى حقبة الستينات والسبعينيات كان من نتائجها أن وظيفية «تالكوت بارسونز» لم تعد لها نفس المكانة التى كانت تحظى بها من قبل. ومن بين تلك المدارس الفكرية التى ظهرت كانت التفاعلية الرمزية،

---

(1) Howard Schwarta & Jerry Jacobs, Quakutative Sociology, N. Y., Adivison Of Macmillan Publishing Co., Inc., 1979, PP. 4 - 7.

(٢) د. محمد عارف عثمان، المنهج فى علم الاجتماع، الجزء الأول: المنهج الكيفى والمنهج الكمى فى علم الاجتماع، القاهرة، دار الثقافة،١٩٧٢، ص ١.

(٣) د. محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

★ ونقصد من ذلك أيضاً ما ظهر كرد فعل لكل من الاتجاه الماركسى والوظيفى فى نظرية علم الاجتماع فى إطار دراسة المجتمع بصفة عامة.

والاتجاه الأثنوميثودولوجي عند «جارفينكل» والاتجاه المسرحي لدى «جوفمان» ومن ثم كان لزاماً على علم الاجتماع الأمريكي ضرورة مواجهة ذلك الواقع[1].

وهكذا، يمكن القول بأن هناك بعض الاتجاهات النظرية والمنهجية التي ظهرت داخل علم الاجتماع الأمريكي وخارجه في حقبة زمنية محددة تمثل بعضها في التفاعلية الرمزية من ناحية، وتمثل البعض الأخر في النموذج المسرحي وغير ذلك من تلك المدارس الفكرية التي ظهرت في أماكن أخرى، وعبرت جميعها عن بعض البدائل النظرية والمنهجية التي ظهرت كرد فعل للأزمة التي تعرض لها الاتجاه البنائي الوظيفي في علم الاجتماع فإن هذا ما سوف نتناوله في هذا الفصل.

التفاعلية الرمزية:

يشير مصطلح التفاعل الرمزي إلى عملية التفاعل الاجتماعي التي يكون فيها الفرد على علاقة واتصال بعقول الآخرين وحاجاتهم ورغباتهم الكامنة و وسائلهم في تحقيق أهدافهم. ولقد استخدم هذا المفهوم في البداية وذلك تمييزاً لنمط من العلاقات الاجتماعية، وكذلك لتفسير بعض الملاحظات الخاصة بالإنسان وسلوكه في تفاعله مع غيره من أعضاء جماعته ومجتمعه في ضوء بعض الرموز والمعاني، ذلك التفاعل الذي يتخذ صوراً متعددة[2]. وتعبر التفاعلية الرمزية عن مختلف العقول والمعاني التي تميز المجتمعات الإنسانية، ويتخيل أنصارها العلاقة بين الفرد والمجتمع من خلال النظر إليهما باعتبارهما وحدات اجتماعية متلازمة، وإن محاولة فهم أحدهما إنما تتطلب الفهم الكامل للآخر. حيث إنه يمكن فهم المجتمع في ضوء عمل الإفراد، وكذلك النظر إلى هؤلاء الأفراد من خلال المجتمعات الذين يعيشون فيها. وذلك لأن تلك الكائنات

(١) جي روشيه، علم الاجتماع الأمريكي: دراسة الأعمال تالكوت بارسونز، الطبعة الأولى، ترجمة د. محمد الجوهري، د. أحمد زايد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١، ص ١٣ - ١٤.

(2) Guy E. Swanson, «Symbolic Interaction», In: International Encyclopedia Of Social Science, Navid Sills (et Ol), (editors), The Macmillan Company, Vol., 4, 1968, P. 442.

الإنسانية يكون لديها القدرة على أن تعكس ذاتها، وهذه الـذوات Selves هـى التى تعمل على توجيه السلوك الإنسانى فى المجتمع.

ولقد حدد «هربرت بلومر» تلك الأفكار الأساسية التى تنهض عليها فـى ثلاث قضايا أساسـية هـى. أولاً: أن الكائنـات الإنسـانية تتفاعـل تجـاه الأشـياء والأحداث فى ضوء ما تنطوى عليه من معان ظاهرة لهم، وثانياً: أن هـذه المعـانى هى محصلة التفاعل الاجتماعى فى المجتمع الإنسانى. وأخيراً: أن هذه المعانى إنمـا تتعدل وتتغير من خلال عملية التأويل أو التفسير التى يستخدمها كل فرد فـى تعامله مع الرموز. تلك هى المحـاور الأساسـية لهـا والتـى عـبرت عنهـا أعمـال العديدين من أنصارها، حيث عالجها «كولى» فى نظريتـه عـن المجتمـع والجماعـة الأولية، وعبر عنها «جون ديوى» فى صياغته لمفهوم العادة وكذلك اتضحت فـى فكرة «وليم توماس» عن تحديد الموقف، وفى تناول «جورج هربـرت ميـد» لنشـأة وتطور الذات. حيث يعتبر هؤلاء جميعـاً هـم أنصـارها ويعـبرون عـن أفكارهـا الأساسية[1]. التى ينظرون من خلالها إلى الناس على اعتبـار أنهـم لا يتفـاعلون تجاه الأشكال البنائيـة كـالنظم والأنسـاق الاجتماعيـة ولكـنهم يتفـاعلون تجـاه أشخاص آخرين وفى ضوء المواقف التى يجدون أنفسهم فيها[2].

وتتسم كتابات أنصار التفاعلية الرمزية بالطابع التفـاؤلى مفسـرة ذاتهـا على مستويين، أحدهما على المستوى الشخصى ويتمثل فى اعتقاد كل عضو فى المجتمع بتوحده مع الآخرين فيما يشعر به من حريـة فـى تخطـيط وإنجـاز أفعالـه اليومية واستجابته الشخصية ذاتياً. ويتمثل المستوى المجتمعى فى الاعتقـاد بأنـه يمكن تقييم التغير فى بناء النسق، وبذلك فهى تعكس لنا ما حدث من تغيرات فى المجتمع الأمريكى آنذاك[3].

---

(1) B. N. Neltzer, (Et Ol), Symbolic Interactionism: Gensis, Varieties And Criticism, London, Routlecge & Kegan Paul, 1975, PP. 1 - 2.

(2) Jonathn. Freedman. Freedman, clinical Sociology, N. Y., Longman, Inc, 1970, P. 17.

(3) Larry T., Reynolds, (et Ot), The Sociology of Sociology, N. Y., David Mckay Company, Inc, 1970, P. 17.

كما تعتبر التفاعلية الرمزية بمثابة منظور(*) فى علم النفس الاجتماعى، وكذلك تدخل ضمن اهتمامات علم الاجتماع، وتركز على التفاعل الاجتماعى باعتباره وحدة للدارسة حيث يتضمن ذلك التفاعل، فعل Acting الكائن الإنسانى مع الأخذ فى الاعتبار علاقته بالآخرين التى تشتمل على الإدراك والتفسير، أو رد الفعل واستجابته لهم أيضاً. ومن ثم يظهر الكائن الإنسانى على انه أكثر نشاطاً وديناميةً[1].

ولقد تبلورت التفاعلية الرمزية فى نهاية القرن التاسع عشر وكان ظهورها فى المجتمع الأمريكى دون غيره. وهى فى تركيزها على الوحدات الصغرى «الميكرو» نجد أنها تختلف عن غيرها من المدارس الفكرية فى علم الاجتماع تلك التى تركز على الوحدات الكبرى «الماكرو»، هذا إلى جانب أنها قد عملت على تطوير استراتيجيات منهجية جديدة فى البحث والدراسة وبالتالى نجد فى ذلك ما يميزها

★ تذكر بعض قواميس علم الاجتماع أن كلمة «منظور» إنما تتضمن تلك القيم وغيرها من المعتقدات والاتجاهات وكذلك المعانى التى تشكل جميعها وجهة نظر الشخص تجاه الموقف محدد. هذا فضلاً عن، أنه يتألف أيضاً من بعض الأفكار التى تمارس تأثيراً على أداراك الشخص وتفسيره للموقف. اعتمدنا فى ذلك على: د. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٣٢٨.
كما يذكر تشابين فى وصفه للمنظور على أنه رؤية نظامية للعالم، ويعنى به نظام تذكر الأشياء وتوقعها كما لو كانت تحدث أو تدرك بالفعل، ومن ثم فهو بمثابة مفهوم منظم لما يبدو من الظاهر على انه غير مقبول وممكن والذى من خلاله يدرك أحد الأشخاص بيئته. وإلى جانب ذلك نجد أن ثمة اختلاف بين بعض الباحثين بصدد وصفهم للتفاعلية الرمزية، حيث وصفها البعض على أنها منظور فى علم الاجتماع، فى حين يرى البعض الآخر من أمثال «ميلتزر» Meltzer على أنها منظور فينومينولوجى «ظاهراتى» وذلك نظراً لتأكيدها على وجهة نظر الفاعلين وتفسيرات الواقع الاجتماعى، وخاصة فى اهتمامها بالجوانب الظاهراتية للسلوك الإنسانى، إلا أنه من خلال النظر إلى مراحل نشأتها وتطورها نجد أنها مختلفة عن الاتجاه الظاهراتى فى الفلسفة الأوربية وذلك لتأكيدها على الجوانب الظاهرة، كما أنها مختلفة أيضاً عن تلك المنظورات السوسيولوجية الأخرى: اعتمدنا فى ذلك، على المصدر التالى:
Michael Haralambas & R. Heald, Op. Cit., P. 534.

(1) Charon, Joel M, Symbolic Interactionism: An Interpretation, An Integration, Englewood Cliffs, Prentic Hall, Ci, 1979, P. 23

عن غيرها أيضاً[١]. كما أنها ظهرت متأثرة بالفلسفة البراجماتية والتى كانت واضحة عند بعض أنصارها من أمثال «وليم جيمس». علاوة على، تأثرها بالداروينية الاجتماعية التى بدت واضحة أيضاً فى أفكار «هربرت ميد»، هذا بالإضافة إلى تأثرها بالسلوكية عند «واطسون»[٢]. كما ارتبطت بعدد من المداخل الأخرى منها الوجودية، وجاءت معبرة عن تلك الاتجاه الكيفى فى مجال البحث الاجتماعى[٣].

١ - أنصار التفاعلية الرمزية فى مرحلة النشأة:

(أ) وليم جيمس (١٨٤٢-١٩١٠) Willam James

يعد وليم جيمس أحد ممن ساهموا فى تطوير علم النفس الاجتماعى فى الولايات المتحدة ويبدو ذلك واضحاً فى نظريته عن السلوك التى ضمنها فى مؤلفه «مبادئ علم النفس». تلك النظرية التى تخدم بطريق مباشر أو غير مباشر الجوانب السيكولوجية لعلم الاجتماع الأمريكى[٤].

وتنحصر إسهامات وليم جيمس فى التفاعلية الرمزية فى بعض المفهومات التى حددها منها مفهوم: العادة Habit، والغريزة Instinct وكذلك أيضاً مفهوم الذات Self وأخيراً مفهوم الشعور أو الوعى Consciousness.

ونجد فى مناقشة وليم جيمس لمفهوم العادة يرى أنها تمتلك القدرة على تشكيل الكائن الإنسانى وتجعل سلوكه أكثر دقة وتحديداً، كما أنها تجعله قادراً على اكتساب طبيعة جديدة ومن ثم ينظر إليها على أنها الطبيعة الثانية للإنسان. وهى المصدر الذى يتم تفسير سلوكه فى ضوئه. هذا فضلاً عن، القوى الخارجية وأهميتها بالنسبة للمجتمع[٥].

---

(١) د. سمير أحمد، النظرية فى علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، ١٩٧٧، ص ٢٤٥ - ٢٤٥.

(2) Charon, Joel M., Op. cit., P. 293.

(3) Joan Huber, «Symbolic Interaction as a pragmatic Perspective»: The Bais Of Emergent Theory, A. S. R., Vol., 38, No., 2, 1973, P. 274

(4) Bernard N. Meltzer, (et. Ol). Op. Cit., P. 3.

(5) Don Martindal, The Nature and Types of Sociological Theories, London, Boston, 1960, P. 340.

كما أنه نظر إليها على أنها تنشأ من الخبرات الماضية للإنسان وذات تأثير مباشر على الغرائز. ذلك المفهوم الثانى الذى تبلور فى أعماله، وفى مناقشته له أخذ فى اعتباره تلك العلاقات المتداخلة بين العادات والغرائز، ونظر إلى الأخيرة على أنها فطرية، وذات أساس بيولوجى، ويمكن لها أن تحل محل العادة. نظراً لأن السلوك الإنسانى يمكن تعلمه وتعديله من خلال الخبرة الكامنة فى العقل، وأنه من خلال تكرار ذلك الفعل أو السلوك وقدرة العقل البشرى على أدارته لتلك الأنشطة العقلية يحدث التكيف الاجتماعى وتختفى الغرائز ويحل محلها العادة[1].

ويتمثل الإسهام الثالث عند جيمس فى إعادة صياغة مفهوم الوعى على أنه عملية، وعليه تصبح - حالات العقل - أوضاع العقل بمثابة عروض سريعة فى تلك العملية التى حددها فى أربعة أوضاع هى:

١ - أن كل حالة تميل لتكوين جزء من الوعى الشخصى.
٢ - أن كل حالات الوعى هى دائماً متغيرة.
٣ - أن كل شخص يمكن أن يدرك وعيه باستمرار.
٤ - كما أن كل شخص يهتم فى بعض موضوعاته بالرفض أو الترحيب والاختيار فيما بينهما.

بناء على ذلك فإنه عبر عن الوعى فى شكل وجود دائم، وعلى انه يظهر على نحو دورى ويكون تياراً رئيسياً متدفقاً من التفكير أو الحياة الذاتية، ومن خصائصه أيضاً أنه يتضمن وعى الشخص بذاته. وبهذا يكون جيمس قد عمل على تخليص الشعور أو تجريده من الرواسب الميتافيزيقية، وانه من خلال إعادة النظر فى أهمية العادة، وأن فى تحويل الوعى إلى عملية يكون بذلك قد لفت النظر نحو أمكانية ظهور مفهومات جديدة فى إعادة صياغة مفهوم الذات[2]. وذلك باعتباره يشير إلى المجموع الكلى للأفراد مشتملاً على مجالات عديدة للحياة الإنسانية.

---

(1) Sheldon Stryker, Symbolic Interactionism: A Social Structural Version, London, Benjamin & Coming, 1980, P. 22.

(2) Don Martindal, Op. Cit., P. 340.

ويحدد جيمس الذات فى أنواع هى الذات المادية، والذات الاجتماعية، والذات الروحية Spiritual Self. حيث تشمل الذات المادية على الأجسام والدوائر المتعاقبة معها. وتشير الذات الاجتماعية إلى وجود ثلاث خصوصيات أولها الإدراك Recognition الذى يكون حتى نهاية فى بعض الجوانب الذات بمثابة مصدر أمبيريقى وخصوصاً فى إدراك الشخص بواسطة الآخرين، والتى أصبحت ذات أهمية خاصة فى معظم التطورات الحديثة للتفاعلية الرمزية. ويتمثل الجانب الثانى فى التأكيد على تعدد أشكال الذات وذلك كمحصلة لمجتمع غير متجانس، وأخيراً يتحدد الجانب الثالث فى مناقشته للذات الاجتماعية فى أن غرائز البشر إنما تسعى للانتظام عن طريق كائنات إنسانية أخرى وتقيس ذاتها الاجتماعية فى ضوئها. وبذلك فهى توجد فى عقول الأشخاص الآخرين[1].

أما الذات الروحية فأنها تتصل بجميع حالات الشعور أو الوعى وفى هذا الصدد قد نظر إلى مفهوم الذات باعتباره ينبع من عمليات التفاعل فى البيئة الاجتماعية. وناقش درجة الاحترام أو اعتباره الذات وقارن بين العوامل الاجتماعية الموضوعية - التى تتمثل فى الإدراك الذى يتم الحصول عليها من خلال أشخاص الآخرين - والعوامل الذاتية لطموحات الفرد ومن ثم وجد أن هناك إرتباط بين طموحات الشخص ومبدأ إعتبار الذات[2]. وقد عبر عن هذه الفكرة أيضاً «دون مارتندال» بلغة الرياضيين فوجد أن المطالب تأخذ شكل المقام بينما يتمثل النجاح أو الفشل فى شكل البسط. وتناول جيمس بعد ذلك أهمية الشعور والعواطف بالنسبة للذات فقد ميز بين رضا الذات وبين ما يحدث لدى البعض من فشل فى أحد المواقف والتى يطلق عليها عدم رضا الذات. وأخيراً فإنه يرى أن الذات الاجتماعية تميل إلى إطلاق المقاييس فى العالم المثالى مما يعرضها لبعض مواقف التنافس والصراع ومن ثم تجد الذات لزاماً عليها الاختيار بين أمرين هما أحكام الذات العليا والدنيا[3].

---

(1) Sheldon Stryker, Cit., P. 23.

(2) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., PP. 56.

(3) Don Martindal, Op. Cit., P. 341 - 342.

وهكذا، فإن صياغة وليم جيمس لمفهوم الذات الاجتماعية يعتبر من بين المفاهيم ذات الأهمية فى التعبير عن تلك العلاقة التفاعلية بين الفرد والجماعة الاجتماعية فى المجتمع. هذا بالإضافة إلى أن هذا المفهوم قد حظى باهتمام كل من علم الاجتماع فى تناوله للمشكلات الاجتماعية و الإصلاح التعليمى، وعلم النفس الأمريكى فى اهتمامه بتطور الشخصية، وتناول طبيعة التفاعل بين الفرد وعلاقته بالجماعة أيضاً.

علاوة على ذلك، هناك جوانب أخرى فى أعمال «وليم جيمس» ذات صلة وثيقة بالفلسفة البراجماتية وتتمثل فى نظرته للكائنات الإنسانية على أنها كائنات خلاقة تؤدى دوراً فى عملية ضبط الأجزاء. وانه فى ضوء نظرته البرجماتية للفرد وعلاقته بالبيئة، قد وجه نقدا إلى هربرت سبنسر وأتباعه فى محاولتهم لصياغة السلوك وتحديده فى ضوء الحتمية الجغرافية ونظرتهم للأفراد على أنهم مستقلين عن البيئة التى يعيشون فيها، وذلك نظراً لسيطرة الجبرية على كتاباتهم[1].

ب - تشارلز هورتون كولى (١٨٦٤ - ١٩٢٩) C. H. Cooly

كان من بين الاتجاهات التى مارست تأثيرا على تشكيل نسقه الفكرى، بعض الشخصيات الأدبية كما كان معارضاً للنزعة المحدثة فى أفكاره وكتاباته. وذلك لأنه يدرك الواقع الاجتماعى باعتباره يتكون من أفكارنا عن الآخرين، هذا بالإضافة إلى رفضه لنظرية الغرائز عند « ماكدوجال» وتأثره بالاتجاه التطورى فى اهتمامه بتطور الكائن الاجتماعى أو الذات الاجتماعية[2]. وأنه على الرغم من تأثره بـ«هربرت سبنسر» وتأكيده على النتائج الايجابية لعملية النمو، إلا أنه قد وجه إليه نقداً على اعتبار أنه ذات اهتمامات متعددة أبعدته كثيراً عن تخصصه. وأخيراً قد تأثر ببعض العلماء من أمثال وليم جيمس – وعلى الأخص فى ومفهومه عن الذات الاجتماعية – وجون ديوى فى الفلسفة. وكانت كتاباته تتميز بأنها ذو طابع تركيبى أو تأليفى لا يضمنها فى علم محدد،

(1) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., PP.-5 - 7.

(٢) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٢٢٩ – ٢٣٠، ٢٣٢.

وذلك كما يرى البعض بأن إسهامه السوسيولوجى كان ذات طابع فلسفى مثالى يتنوع بين المثالية الذاتية والموضوعية، وأيضاً ينتمى إلى مفكرى الاتجاه الوظيفى فى النظرية السوسيولوجية، وفى أطار رفض الوضعية المحدثة قد ناقش الاختلاف المنهجى فى الدراسة بين كل من العلوم الطبيعية من اجل الحصول على المعرفة. حيث تهتم العلوم الاجتماعية بالحصول على المعرفة من خلال الاعتماد على التخيل، وفى الوقت الذى تعتمد فيه العلوم الطبيعية على الحواس، ومن ثم قد رفض تطبيق المنهج التجريبى فى العلوم الاجتماعية[1].

كما تتحدد مؤلفاته فى الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعى (١٩٠٢)، والتنظيم الاجتماعى (١٩٠٩)، والعملية الاجتماعية (١٩١٨) وأخيراً كتابه بعنوان: العبقرية والشهرة ومقارنة الجناس (١٨٩٧)[2]. حيث يشتمل المؤلفان الأول والثانى على معظم أرائه فى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى. ويمكن القول بأنه إذا كانت أعمال كل من «جون ديوى» و«جورج هربرت ميد» قد عملت على تطوير التفاعلية الرمزية، وذلك فى محاولتهم فهم السلوك الفردى فى المجتمع الإنسانى كما أتضح ذلك فى أعمال «وليم جيمس» التى مزجها بالفلسفة. فإن أعمال واهتمامات «كولى» فى علم الأجتماع والتى تتمثل فى تحديد مفهوم الجماعة الأولية والتأكيد على الدور الذى تلعبه الجماعات الاجتماعية فى تشكيل سلوك الفرد فى المجتمع. فضلاً عن، تحديده لمفهوم مرآة الذات، وكذلك نظريته عن طبيعة عقل المجتمع البشرى كل هذا إنما يؤكد على محاولة «كولى» لفهم السلوك الفردى من وجهة النظر السوسيولوجية.

تصور كولى عن المجتمع:

ويتميز مدخل «كولى» عن المجتمع عن غيره من الباحثين فى علم الاجتماع الأمريكى، فى إعتقاده بأن أى تفسير صادق للمجتمع يجب أن يأخذ فى اعتباره خاصيتين يتميز بهما المجتمع تتمثل الأولى فى: أن المجتمع يكون ذات طبيعة

---

(١) د. السيد الحسينى، د. محمد على محمد، كولى، المجلة الاجتماعية القومية، العدد الأول، المجلد الرابع، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٢٠ - ١٣٢.

(٢) د. غريب سيد أحمد، من أعلام علم الاجتماع: تشارلز كولى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١، ص ٧.

عضوية، وتعنى الثانية بالنظر إليه: على أنه ظاهرة عقلية، ويعنى بذلك ضـرورة النظر إلى المجتمع علـى أنـه يتكـون مـن تلـك الأشـكال المعقـدة أو الوحـدات العضوية التى من خلالها يعيش الفرد أو ينمو ويتفاعل مع غيره نظراً لأن ذلـك المجتمع إنما يوجد فى عقول الأفراد مـن خـلال المشـاركة فـى التوقعـات وأنمـاط السلوك المحددة[1].

كما تعبر نظرته للمجتمع عن مدخله العضوى وعن العلاقـة العضـوية بين الفرد والمجتمع والتى يصعب الفصل بينهما، وضرورة النظـر إلى الفـرد فـى ضوء علاقته التفاعلية بالجماعة التى تعتبر موضوعاً للدراسة فى علم الاجتماع. وهنا كان «كولى» معارضاً للنظرة التقليدية التى كانت تفصل بين الفرد والمجتمع، لأن كل منهما ضرورى للآخر و بينهما تفاعـل باسـتمرار حيـث يعـيش الفـرد باعتباره عضوا فى ذلك الكل وهما مظهران لعملة واحدة[2].

كولى ومفهوم الذات الاجتماعية:

وعند تناوله للطبيعة الإنسانية أدرك بأنها تنمو داخـل الجماعـات الأوليـة التى تتميز بأن لديها القدرة على تشكيل الفرد وسلوكه فى المجتمع، والتـى يعـبر عنها بلفظ النحن We وهى تتضمن المشاركة والوجدانية، وفيها يعيش الفرد فى مشاعر الجماعة ككل. وهى ليست منفصلة عن المجتمع الكبير، وهى أيضاً عامة فى كل المجتمعات وتتحقق وحدتها من خلال عملية الاتصال أو التفاعل. وهى التـى يولد فيها الطفل ومن خلالها يكتسب الخبرات الاجتماعيـة والعـادات والتقاليـد والأنماط السلوكية والثقافية السائدة فى المجتمع. وهى أيضاً تعمـل علـى تشـكيله بالطابع الأخلاقى وخلق اتجاه لديه نحو تطور الذات التى تمر بمراحـل ثـلاث هـى مرحلة الإخراج والمرحلة الذاتية، وأخيراً «المشروعية» Projective.

وتوجد هذه الذات فى عقول أعضاء المجتمع وتتكون من «حقيقـة التخيـل» Imaginative Fact وهى أيضاً محصلة اجتماعية تنمو وتتحدد فى عملية التفاعل

(1) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., PP. 8 - 9.

(٢) د. محمد على محمد، د. السيد الحسينى، كولى، المجلة الاجتماعية القوميـة، مرجـع سابق، ص ١٢٥ - ١٢٦.

الاجتماعى كما أنها تبدو نتاجاً لعمليه اجتماعية تشير للآخرين فى شكل «مرآة الذات» باعتبارها إطار اجتماعى للذات، الذى يتكون من ثلاثة عناصر رئيسية هى تخيلنا لما نبدو عليه بالنسبة للشخص الآخر، وتخيلنا لحكم ذلك الشخص الآخر لما يكون أو يبدوا عليه مظهرنا وأخيراً الوعى بالذات الذى يظهر من هذه التخيلات. تلك هى العناصر الأساسية التى تتكون منها الذات(١). وبذلك يكون ميز بين ثلاثة أنواع من الوعى أولهم الوعى الذاتى والذى يكونه الشخص لنفسه وثانيهم الوعى الاجتماعى والذى يتمثل فى فكرته عن الآخرين وأخيرهم الوعى العام الذى يعبر عن شعور أعضاء الجماعة ككل(٢).

وفى مناقشة كولى لمفهوم «مرآة الذات» يبدو تأثره بنظرية «بولدوين» J. M. Boldwin عن تطور الذات لدى الطفل. حيث أكد بولدين على العلاقة بين الذات «الفرد» والموضوع «الاجتماعى» أى التفاعل بين العقل والمجتمع(٣). ومن الناحية المنهجية وجد كولى أنه من أجل التعرف على تصورات الناس وتخيلاتهم يجب علينا استخدام أسلوب «الاستبطان التعاطفى» Sympathetic Introspection والذى يمكن للباحث فيه أن يضع نفسه فى موقف المبحوثين ويحاول استخدام خياله من اجل العمل على إعادة بناء العلاقة بين ما يوجد فى ذلك الموقف من منبهات أو مثيرات وبين ملاحظاته لسلوك الناس فى تأديتهم للنشاط. وبذلك يركز عالم الاجتماع على محاولة تحليل ما يكونه الناس من تخيلات عن بعضهم البعض، وكذلك على الأفكار التصورية والتفسيرية لهم عن الموقف(٤).

الجماعات الأولية:

علاوة على هذا، ففى تحليل كولى لطبيعة وخصائص الجماعة الأولية نجده يؤكد على تلك العلاقة الاجتماعية بين الفرد والجماعة والتى تتم عن طريق

---

(1) Sheldon Stryker, Cit., P. 29.

(٢) د. محمد على محمد، التفاعلية الرمزية فى علم الاجتماع المعاصر، فى: مجالات الاجتماع المعاصر، تأليف د. محمد عاطف غيث وآخرين، الطبعة الأولى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٢، ص ٨٧.

(3) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., PP. 12 - 13.

(٤) د. سمير نعيم أحمد، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

استمرار التفاعل الاجتماعى فى جماعات أولية عديدة لها طابع العمومية - مثل جماعة الأسرة، وجماعة اللعب، وأيضاً جماعات الصداقة والجوار والتى يرتبط بها الفرد فترة كبيرة خلال حياته[1]. حيث أوضحت بعض الدراسات التى أجرها كل من «وسترمارك، وهوارد» Westarmark & Howaed علىَ الجماعات الأولية مثل جماعة الأسرة. بأنها ليست فقط ذات تنظيم عالى، ولكنها تكون أكثر تشابهاً فى العالم من حيث تكوينها - إلى حد ما - وهى تملك سلطة توقيع الجزاء الاجتماعى على أعضائها، وذلك بالإضافة إلى ما تقوم به من عمليات كالتنشئة الاجتماعية للأطفال. كما أنها تعمل على تكوين شخصية الفرد وتقوم بغرس القيم الاجتماعية السائدة فى المجتمع فى نفوس أعضائها، وهى تدوم فترة من الزمن[2].

وتأتى جماعات الصداقة فى المرتبة الثانية وذلك من حيث أهميتها ودورها الاجتماعى باعتبارها جماعة أولية، إذا ما قورنت بما تقوم به الأسرة. حيث تصبح هذه الجماعات أحياناً ذات شكل منظم، وتكون بمثابة نوع من التجمعات الاختيارية ويقدم «ستوكربل» Eleanior Stoker Ball اقتراحاً يتمثل فى أنه على الرغم من تجاهل خبرة الطفولة فى جماعات اللعب بين الأطفال لمن هو فى سن قبل المدرسة. وذلك كمجال للدراسة، إلا أنها تكون ذات أهمية حقيقية فى تنمية الشخصية وأنماط السلوك. حيث تنحصر بعض الأسس التى على أساسها يقوم الطفل باختيار بعض أصدقائه وذلك فى ضوء ما تتميز به هذه الجماعات من سمات سواء فيزيقية أو سيكولوجية، والتى تتشابه مع قدراته نفسه. وعلى الرغم من اختلافها مع بعض الدراسات الأخرى. إلا أن هناك بعض الدراسات التى تؤكد على وجود نوع من العلاقة تتضح فى اختبارات الذكاء لأصدقاء الطفل. علاوة على ذلك، تشير دراسة ثالثة أيضاً إلى معايير أخرى للاختيار. حيث يقوم الطفل فى مرحله قبل وبعد سن المدرسة باختيار أصدقائه من نفس الجنس، وذلك فى ضوء بعض المؤشرات مثال الطول، والنشاط الفيزيقى والاجتماعى[3].

---

(1) T. Mills, Op. Cit., P. 3.

(2) C. H. Cocley, Small Groups, In: Interoduction To Sociology, Op. Cit., PP. 133 - 134.

(3) Arnold M. Rose, (et al), Op. Cit., P. 221.

وعلى الرغم من عدم وجود نسق من الدراسات المقارنة التى تحدد بوضوح بعض الخصائص الاجتماعية المتشابهة بين الأصدقاء من المراهقين، إلا أنه يمكن تحديدها فى بعض المقاييس أو المؤشرات الاجتماعية التى ينحصر بعضها فى الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها الشخص فى المجتمع. وكذلك الفئة العمرية، ومكان الإقامة، وأخيراً الخصائص الشخصية والمهنية. فالناس الذين يعيشون فى بعض المناطق الحضرية والريفية المتجانسة يعتبرون التجانس مصدر رئيسى لاختيار الأصدقاء. فى حين يتم اختيار الأصدقاء فى المناطق الحضرية غير المتجانسة على أساس المهنة، وليس على أساس أماكن الإقامة القريبة أو المتجاورة.

كما أوضحت بعض الدراسات أن الجماعات الأولية تكون مقسمة إلى شلل Cliques تكون الروابط فيما بينها ضعيفة، فى حين تكون بين شلل أخرى ذات علاقة قوية ومتماسكة فيما بينهم. وكذلك تختلف الشلة فى عضويتها ما بين اثنين حتى ثلاثين شخصاً، وكلما ازداد حجمها إنقسمت بعد ذلك إلى شلل أخرى صغيرة.

وهكذا، تمارس هذه الشلل تأثيراً كبيراً على أعضائها وهى تأخذ أشكالاً متعددة حيث يكون أعضاؤها متقاربين أحياناً من حيث العمر، وأحياناً أخرى لا يكونون متقاربين ومعظمها لا يستمر طويلاً حيث إنها لا تكون ذات بناء رسمى. يتمكن من حماية الأعضاء فى حالة الوقوع فى الخطأ. وتنتشر الشلل بين معظم جماعات العمر و«العصابات» Gang لدى الأشخاص الأصغر سناً، وهى تتكون تلقائياً، وقد لا تتكون الشلل من بين أشخاص فى جنس واحد - أى «أحادية الجنس» Monosexual - كما انه توجد علاقة بين الأدوار التى تقوم بها الشلة وبين الأسرة، وأنها تأخذ فى اعتبارها احتياجات الأشخاص وتحاول أن تخدم بوضوح بعض الحاجات الأساسية للإنسان وتعمل على تعديل سلوكه أحياناً[1]. وبذلك تكون ذات قوة فعالة فى ممارسة عملية الضبط الاجتماعى كما يمكن أن توجد جماعات الصداقة وشلل المراهقة بين العمال فى المصانع، وبين الجنود فى الجيش، وبين الطلاب فى المؤسسات التعليمية. وذلك نظراً لما يوجد بين أولئك

(1) Ibid., P., P. 222, 227.

من تشابه فى بعض الخصائص كالتماثل فى نوع العمل، والمكانة، والوضع الاقتصادى أو الاجتماعى لكل منهم[1].

كما تعتبر جماعة الجوار بمثابة الشكل الثالث لهذه الجماعات الأولية والتى قد وجدت منذ ظهور الإنسان على سطح الأرض، وحتى ظهور المدن الصناعية الحديثة، حيث لعبت دوراً أساسياً فى حياة الناس بالمجتمع وهى وجدت منذ البداية بالمجتمع القروى، حيث يعتبر بمثابة المجال الرئيسى للتعاطف وتبادل المساعدات ببين عامة الناس بالمجتمع فى أوقات أو المناسبات السارة والحزنة، وذلك رغم ما طرأ عليهم من تغيرات عديدة نظراً لانفتاحه على مجتمع المدينة مما كان له أثره على تغير القيم والعادات والتقاليد الاجتماعية السائدة فيه. وفى ذلك الصدد يرى «كولى» أن حياة جماعة الأسرة أو جماعة الجوار، إنما تكون بمثابة عنصر أساسى فى تكوين الجماعات الأولية، ومن ثم فإنه من أجل التعرف على الجنس البشرى ككل فى المجتمع يجب علينا دراسة المجتمع من خلال هذه الجماعات الاجتماعية الأولية[2].

وأن كان هذه الجماعات الأولية تؤثر فى طبيعة اهتماماتنا وفى الطريقة التى نمارسها بها، فهى أيضاً تحدد بعض اهتماماتنا. ومن ثم نلاحظها كما تبدو للآخرين فى أشكال جديدة، وتؤثر فى إدراكنا لهذه الاهتمامات قبل ممارستها بصورة فعلية، والتى يراها كل منا حسب وجهة نظره. ويسعى بعد ذلك كل فرد إلى نقلها أو توصيلها إلى أقرانه. مما يترتب على ذلك تنوع فى اهتماماتنا وذلك نظراً لما يسهم به كل شخص من جانبه. حيث يبدو ذلك أكثر وضوحاً وعلى الأخص حينما تواجه الجماعة مشكلة ما. عندئذ يشترك فى مناقشتها معظم الأعضاء من أجل بلورة الوعى الاجتماعى ببعض حدودها غير الواضحة منذ البداية ومحاولة اتخاذ القرارات المناسبة لحلها[3].

---

(1) C. H. Cooley, Small Groups, In: Introduction to Sociology, Op. Cit., PP. 133 - 134.

(2) R. Cooley, Primary Groups, In: Sociological Analysis, W. L. Kalb, (et. Ol), (ed), U. S. A. Harcourt & Company Inc, 1949, PP. 288 - 289.

(٣) ماكيفر وبيج، المجتمع، الجزء الثانى، مرجع سابق، ص ٤٣٤ - ٤٣٥.

الجماعة الثانوية:

وقد أضاف بعض علماء الاجتماع مفهوم الجماعة الثانوية إلى مفهوم الجماعة الأولية الذى حدده كولى، على اعتبار أنها ذات خصائص مغايرة لخصائص الجماعة الأولية ويرجع ظهورها لكبر حجم المجتمع وتعقد شبكة العلاقات الاجتماعية، وظهور كثير من المنظمات الصناعية والسياسية وغيرها ذات الطابع الرسمى البيروقراطى. وكذلك نتيجة لحدوث تغير اجتماعى فى المجتمع، واختفاء بعض الخصائص والقيم الاجتماعية الخاصة بالجماعة الأولية. ومن ثم تتحدد خصائص الجماعة الثانوية فى أنها تشمل على عدد كبير من الأعضاء وتتسم العلاقات الاجتماعية القائمة بينهم على الطابع اللاشخصى، ولا يسود فيها التفاعل المباشر باستمرار كما هو الحال فى الجماعة الأولية. هذا بالإضافة إلى أن كل عضو فيها لا يمكن له الارتباط بكل الأعضاء الآخرين للجماعة[1]. وغالباً ما تقوم على قواعد رسمية أو مكتوبة مثال ذلك اتحادات العمل، والتنظيمات الصناعية، والأحزاب السياسية والطوائف الدينية. حيث تتميز هذه الجماعات غالباً بالقصد وتمثل حاجات واهتمامات خاصة، ويسود بين أعضائها التخصص وتقسيم العمل[2]. ويمكن أن تكون العلاقات بين أعضائها مباشرة، ويطلق عليها أسم الجماعات الرسمية فى الوقت الذى تكون فيه معظم هذه الجماعات الرسمية أيضاً بمثابة جماعات ثانوية[3].

وكذلك هناك مواقف كثيرة فى حياتنا الاجتماعية تصبح فيها الجماعات الرسمية جماعات غير رسمية، نظراً لما تفرضه طبيعة هذه المواقف من التغاضى عن تلك القواعد المكتوبة أو المقننة والتى تحدد بعض نماذج السلوك تجاه هذه المواقف. وعلى الرغم من أن الفصل الدراسى يكون بمثابة جماعة رسمية تتضح علاقته الرسمية هذه التى تقوم بين الطالب والمدرس داخل حجرة الدراسة فى معظم الأوقات، إلا أنه يمكن أن نتخيل كثيراً من المواقف غير الرسمية التى

---

(1) C. H. Cocley ,Interoduction To Human Group, Op. Cit., P. 72

(٢) غريب سيد أحمد، ديناميات العلاقات الاجتماعية، رجع سابق، ص ٥٤.

(3) Georg A., Theodorson, A Modern Dictionary Of Sociology, Op. Cit., P. 179.

تحدث فى الحياة الاجتماعية وغالباً ما يتقابل فيها الدارسون والمدرسون خارج فصول الدراسة بالمدرسة[1].

(ج) - جورج هربرت ميد: (١٨٦٣ - ١٩٣١) C. H. Mead

درس ميد على يد «رايس» Rayce وتأثر بالفلسفة البراجماتية ويتشابه فى بعض أفكاره ونظرياته مع أعمال كل من «جابريل تارد»، «وبولدوين» وكولى أيضاً، وأنه تأثر كذلك بنظريات «فونت» Wundts عن اللغة والإيماء أو «الإشارة» Gesture[2].هذا بالإضافة إلى تأثره بالسلوكية حيث أخذ منها مبدأ التعزيز أو «التقوية» Reinforcement، ولكنه رفض فيها إمكانية البحث العلمى للديناميات الداخلية فى العقل، وقد إتضح تأثره بالبراجماتية فى فكرة العضوية التى تعنى أن الكائنات العضوية تخلق ظروفاً خاصة للتكيف مع عالمها الذى تعيش فيه وعلى الرغم من ذلك، إلا أنه يختلف عن معظم أنصار التفاعلية الرمزية فى معالجته للأفكار بطريقة تأليفية وبنظرة نقدية - منها على سبيل المثال موضوع العلاقة بين الفرد والمجتمع، وأهمية الاتصال فى حياة الفرد والمجتمع، وأهمية ومعنى الذات فى التفاعل الاجتماعى - تلك الموضوعات التى تناولها البعض من أمثال «جيمس»، و«ديوى»، و«كولى»[3].

كما انتشرت أفكاره من خلال المحاضرات التى ألقاها فى جامعة شيكاغو عام (١٨٩٣)، وعلى الرغم من كثرة مقالاته فى مجال علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى إلا أنه لم ينشر له كتاب طيلة حياته. فقد نشر له بعد وفاته كتاب بعنوان العقل والنفس والمجتمع (١٩٣٤)[4]. وتتمثل وجهة نظره البراجماتية فى محاولة إعادة صياغة المفهومات عن العلاقة بين الإنسان والعالم، وذلك فى ضوء نظرية النشؤ والتطور. حيث إنه يرى التطور باعتباره عملية تقابل حلول المشاكل،

---

(1) Hans Raj Bhatia, Op. cit., P. 295.

(2) Don Martindal, Op. Cit., P. 353.

(3) Sheldon Stryker, Cit., PP. 34 - 35.

(4) Tamotsu Shibutani, (Georg H. Mead), In: International Encyclopedia of Social Science, David Sills, (et. al), (ed - i), N. Y., The Macmillan Company, Vol., 10, 1968, PP. 83 - 84.

ومن ثم يكون المنهج العلمى هو العملية الطوعية لنمو الوعى الذاتى. ويرى أن علم النفس الاجتماعى هو بمثابة دراسة لتنظيم سلوك الفرد الذى ينمو من خلال مشاركته فى أنشطة الجماعة التى يعيش معها وينتمى إليها.

وعلى الرغم من أن كتاباته المبكرة تميل للدفاع عن أكثر القضايا البراجماتية والإصلاح التعليمى، وأنها تحتوى فى شكل غير محدد على كثير من المفهومات التى ارتبطت بنظرياته عن نشأة الذات، ودور المجتمع، والعقل فى السلوك الإنسانى. إلا أنها تنطلق أساساً من علم الوراثة Phulogentic كما أنه أنتقد نظام التعليم المبكر للأطفال، وبذلك يكون قد شارك كل البراجماتين فى الحاجة إلى الاهتمام بنسق الأخلاق والقيم التى تقوم على حقيقة تغير المجتمع[١].

وباختصار تتحدد إسهامات ميد فى نظريته عن العقل والذات والمجتمع، وفى النظر إلى الكائنات الإنسانية على أنها ذات طبيعة متميزة، وبذلك فثمة فارق بين التفاعل الإنسانى وغير الإنسانى. حيث أن السلوك الإنسانى إنما يتطلب امتلاك العقل وفى هذا ما يميزه عن غيره، هذا بالإضافة إلى أن يكون على درجة كبيرة من المرونة وذلك لأن الكائنات الإنسانية لا ترتبط فى علاقتها بتماثل الاستجابات فقط، ولكن تخطط لسلوكها فى ضوء توقعاتها للطريقة التى تحدث بها الأشياء وكيفية تعديلها، وتوقعاتهم لها فى المستقبل وذلك فى ضوء خبرتهم الماضية. فضلاً عما يوجد لديها من المقدرة على أن تعكس ذاتها، ومن ثم تنظر لنفسها بنفس الطريقة التى تنظر بها إلى أى موضوع آخر. حيث لا يعنى الإنسان فقط بينما تتألف منه البيئة التى يعيش فيما بينما يتحقق لديه نوع من الوعى الذاتى، والذى يتمثل فى أن يأخذ ناحية ذاته نفس الاتجاه الذى يتبناه الآخرون نحوه[٢].

وأن هذا الوعى - بنفسه وبالآخرين - إنما هو وعى اجتماعى وفيزيقى، وبذلك قد صاغ «جورج ميد» نظرية وظيفية عن العقل تشبه إلى حد كبير تلك

---

(1) B. N. Neltzer, (Et Ȯl), Op. Cit., P., P. 28, 29, 37.

(2) Cuff And Payne, Perspectives In Sociology, London, Geors Allen & Unwin ltd, 1979, P. 90.

النظرية أو المدخل الذى حاول أن يطوره «ديوى». والتى تتمثل فى نظرته للعقل باعتباره الأداة أو الوسيلة التى تسعى لتكيف الفرد مع البيئة التى تعيش فيها. وذلك من خلال ما يقوم به الأشخاص من أنشطة ترتبط بالبيئة التى يعيشون فيها، وأنهم فى ذلك لا يستجيبون ببساطة للمؤثرات الخارجية الموجودة فيها، لأن نشاطهم إنما يبدأ أولاً بالدافع من أجل القيام بسلوك متكيف ومتطابق مع تلك الموضوعات الموجودة فى البيئة والتى تصبح بمثابة «مثير» Stimuli[1]. وان هذا التحديد لمفهوم الوعى وذلك باعتباره يكون منتظماً لدى الفرد ونظرته له فى ضوء موضوعاته وعلاقاته بالسلوك. فإنه ينطوى على عنصر موضوعى.

كما وجه «ميد» أيضاً انتقاداً إلى نظريات «فوندت» حول أصل المجتمع باعتباره يوجد فى عقول الأفراد. حيث يعلق على ذلك «ميد» بقوله بأن «فونت» فى موقفه هذا لا يعطى لنا تفسير لأصل عقول الأفراد. والتى حاول «ميد» تفسيرها فى ضوء عمليات التفاعل والاتصال. لأن تلك العقول تنمو وتتطور باعتبارها جزء من العمليات الاجتماعية[2].

وفى أطار تناوله لتميز الكائنات الإنسانية عن غيرها من الكائنات الأخرى يرى أنها تتفاعل فى ضوء الرموز التى تحدد بطرق خاصة وبمؤشرات الاستجابة لها بحيث تضفى الرموز معانى خاصة على تلك الموضوعات والأحداث، وعلى إمكانية استنتاج معان أخرى، وفى ذلك الصدد يوجد بعض أوجه الشبه بين «ميد» و«نوربرت فينر» - مؤسس علم السيبرنطيقا - حيث يرى فينر أن «الآلية» Autonomy إنما تعتمد على التغذية وبدونها تصبح أحد دوافع الكائن الإنسانى بمثابة «ذات» Subject لميوله أو نزعته للضبط الخارجى: ويعتبر الموضوع Object الذى يتشكل من خلال وجهة نظر الآخرين وعن طريق المشاركة معهم بمثابة الشكل الحاسم فى التغذية السلبية لضبط الذات.

(1) Sheldon Stryker, Cit., P. 36

(2) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P., P 30 - 31.

مراحل نمو الذات:

يذهب «ميد» فى توضيحه لمراحل نمو الذات بالنظر إلى الطفل كنموذج توضيحى حيث أنه من خلال عملية التنشئة الاجتماعية يتحول الطفل من مجرد مخلوق أو شخص بيولوجى يقوم بتقليد الآخرين فقط إلى شخص آخر يكون قادراً على التحكم فى ذاته وضبطها وعلى التفاعل مع الآخرين[1]. حيث تمر هذه العملية بمراحل ثلاثة هى:

المرحلة الأولى وهى مرحلة «التقليد» يقتصر دور الطفل فيها على القيام بتقليد سلوك الآخرين مثال الأب أو الأم[2]. أما فى المرحلة الثانية وهى التى تعرف بمرحلة اللعب Play Stage حيث لا يقتصر سلوك الطفل فى هذه المرحلة على مجرد التقليد فقط، ولكنه يمتد نحو عملية اكتساب دور الآخرين. ويستخدم ميد هنا مفهوم «اكتساب الدور» Role Taking، وذلك للدلالة على تلك المرحلة التى يوجد لدى الطفل فيها وعى بما يوجد لديه من اختلاف بين نفسه وبين ما يقوم به من أدوار للأعضاء الآخرين من جماعته، ويعنى ذلك المفهوم تلك العملية التى تتضمن قيام الشخص بدور شخص آخر حتى يتمكن من تفسير ما يعنيه أو يقصده ذلك الشخص الأخر فى هذا الموقف. ومن ثم يعتبر التفاعل الإنسانى فى هذه المرحلة عملية مستمرة لتفسير كل من يأخذ دور شخص آخر.

أما المرحلة الأخيرة وهى مرحلة المباراة أو الفريق Game Stage يرى الطفل فيها نفسه من وجهة نظر مشاركين عديدين. وأنه لكى يلعب المباراة.مثل مباراة كرة القدم - يجب أن يكون على وعى فى علاقته باللاعبين الآخرين وأن يضع نفسه فى أدوارهم من أجل إدراك وضعه الخاص فى المباراة ومن ثم يستطيع أن يعكس سلوكه للأعضاء الآخرين فى الجماعة ويكون مطابقاً لتوقعاتهم وتعميماتهم. وهنا يستخدم ميد مفهوم «الآخر المعمم» Generalized Other وذلك للتعبير عن تلك المرحلة[3]. ومن ثم لا يمكن لنا

---

(1) Tamotsu Shibutani, (Georg H. Mead), Op, Cit., PP. 30 - 31.

(2) Don Martindal, Op. Cit., P. 353

(3) Mical Harolambas & Robein Heald, Op Cit., P. 545.

فهم سلوك الفرد إلا من خلال النظر إليه فى ضوء سلوك الجماعة الاجتماعية ككل، تلك الجماعة التى يكون فيها الفرد عضواً[(1)]. وفى هذا نجد تشابهاً بين ميد وكولى، وخاصة فى التأكيد على أهمية الدور الذى تقوم به الجماعة فى تطوير ونمو الذات، وكذلك أيضاً فى تأكيد ميد على العلاقة بين الذات والمجتمع، وذلك على اعتبار أنهما وجهان لشئ واحد. ومع ذلك قد وجه ميد إلى كولى نقداً فى مفهومه عن مرآة الذات وكذلك تطور الذات نظراً لتركيزه على الجوانب الذاتية، وإهماله لتلك الجوانب الموضوعية[(٢)].

ولجد فى تأكيد «ميد» على ضرورة النظر إلى سلوك الفرد من خلال الجماعة التى ينتمى إليها ككل. إنما يأتى ذلك من خلال رؤيته فى أن حياة الجماعة إنما تتكون من أفعال اجتماعية مرتبطة تقوم بها الكائنات الإنسانية فى المجتمع، وذلك من خلال تطوير بعض الإيماءات والرموز التى يكون لها معنى ويستخدمونها فى عملية التفاعل الاجتماعى فيما بينهم، ذلك التفاعل الذى يعد أيضاً بمثابة جزء أساسى للعملية الاجتماعية التى تنتج عنها حياة الجماعة الإنسانية[(٣)].

كما يؤكد ميد على أن الفعل هو أساس وحدة التحليل، حيث أن الفعل إنما يوجه أوليا نحو إشباع بعض المطالب من خلال استخدام مناسب لمكونات البيئة، ومن ثم فإنه لأغراض التحليل يمكن تقسيم السلوك إلى سلسة من الأفعال، يكون فيها كل فعل ذات بناء «مثل بناء الكائن العضوى» عضوى يعمل على متابعة عملية التوافق للأوضاع - الداخلية والخارجية - التى تكون عرضة للتغير حيث ينتظم كل هذا، ويتجه مباشرة نحو تحقيق الهدف، وأنه من أجل دراسة تلك العمليات يقترح لنا ميد بعض المفهومات منها على سبيل المثال الحافز، والإدراك، ومفهوم الممارسة وغير ذلك من مفهومات، وبذلك قد عمل ميد على توضيح العلاقة بين الحاجات العضوية للإنسان، والاستجابة

---

(1) Lewis A. Coser, Masters Of Sociological Thought, Op. cit., P. 334.

(٢) د. محمد على محمد، التفاعلية الرمزية فى علم الاجتماع المعاصر، فى مجالات علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص ٩٨ - ٩٩.

(3) David L. Miller, Georg H Mead: (self, language And The World), A. J. S., Vol 86, No., 4, 1981, PP. 903 - 904.

الخارجية التى تنبع أساساً من معانى الموضوعات عند البراجماتيين ذلك المعنى الذى يكون خاصية أساسية للسلوك أولاً، ثم خاصية للموضوعات ذاتها ثانيا[١].

ومن ناحية أخرى كان أسهام «جورج هربرت ميد» حول الدراسة العملية للعقل يتمثل فى العمل على حل المشكلة الفلسفية المتصلة بالعلاقة بين العقل والطبيعة التى ظهرت فى العلوم الاجتماعية فى شكل تساؤل مؤداه: هلى تصلح الأساليب المنهجية المستخدمة فى العلوم الطبيعية والتى قد ثبت نجاحها فى تطبيقها أيضاً على دراسة تلك الأنشطة الاجتماعية المتصلة بعقل الكائنات الإنسانية؟ ولقد ذهب فى الإجابة على هذا السؤال إلى أنه ليس هناك حاجة للتفرقة بين العقل والطبيعة، وذلك كما فعل بعض المفكرين لأن العقل هو جزء من الطبيعة الإنسانية. وان تطور العقل إنما يعتمد على التطور السيكولوجى للكائن الإنسانى[٢]. ونجد فى هذا الصدد أن «ميد» كان متأثراً بالمناخ الاجتماعى والفكرى الذى كان سائداً فى عصره. حيث إنه كان يعتقد فى أن التقدم يمكن أن يحدث من خلال العمل على حل المشاكل، ويكون المجتمع المثالى هو أحد المجتمعات التى تكون فيها درجة مشاركة الأعضاء كبيرة جداً من جانب كل الأشخاص، ويكون فيه أيضاً كل فرد قادراً على فهم كل الأفراد الآخرين[٣].

ويمكن القول بأن ميد قد مارس تأثيراً على بعض علماء الاجتماع المهتمين بدراسة السلوك الإنسانى فى مجال الجماعات الاجتماعية وعلى الأخص فى نظريته عن تطور الذات هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اعتبرت إسهاماته بمثابة ذلك الجانب الكيفى فى التفاعلية الرمزية، ومن ثم قد انحصرت محاولات تطوير أفكاره فى ثلاثة جوانب هى الأول: محاولة تقديم معالجة سوسيولوجية من جانب المنظور التفاعلى الرمزى للمجتمع، والثانى العمل على تطوير بعض الأساليب الكيفية والأدوات البحثية الملائمة للدارسة وأخيراً محاولة بلورة مفهوم الدافعية[٤].

---

(1) Tamotsu Shibutani, (Georg H. Mead), Op, Cit., PP. 30 - 31.

(2) Cuff& Payne, Op. Cit., P.91.

(3) Tamotsu Shibutani, (Georg H. Mead), Op, Cit., P. 87.

(٤) د. محمد على محمد، التفاعلية الرمزية فى علم الاجتماع المعاصر، فى مجالات علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(د) - وليام اسحق توماس: (١٨٦٣ - ١٩٤٧) W. I. Thomas

تأثر بالاتجاه البراجماتي. وله مؤلفات منها: الأصول الاجتماعية للذات (١٩٠٩) الذى حاول تعديله وأخرجه فى مؤلف بعنوان: السلوك البدائى (١٩٣٧) كما أنه اشترك مع زنانيكى فى إخراج مؤلف بعنوان: الفلاح البولندى فى أوروبا وأمريكا (١٩١٨) وحددا فيه اهتمامات علم الاجتماع فى دراسة أثر الحياة الاجتماعية والثقافية على الفرد، والذى يتمثل فى الاتجاهات والقيم وتحديد الموقف. ومن مؤلفاته أيضاً الفتاة غير المتوافقة (١٩٢٣) حيث يتناول فيه ما يعنيه بتحديد الموقف[١]. كما أخرج «بالاشتراك مع زوجته - دورثى سوزان» عام (١٩٢٨) مؤلفه بعنوان: الطفل فى أمريكا، وبعد وفاته تم عقد مؤتمر لمناقشة إسهامات توماس فى مجال النظرية والبحث الاجتماعى، وتم نشر أعمال هذا المؤتمر فى مؤلف بعنوان: السلوك والشخصية (١٩١٥) أشرف عليه أدموند فولكارت[٢].

بدأ توماس عمله بمحاولة الربط بين الأسس البيولوجية والاجتماعية للسلوك فى مفهوم واحد حدده فى «الغرائز» وخاصة غرائز الطعام والجنس باعتبارهما عناصر للدافعية الموجودة عند الرجل والمرأة فى المجتمع. ونظر إلى الاختلافات العضوية بينهما على أنها عامل تفسيرى لمفهوم الرغبات، ومن ثم قد وجد أن أى محاولة لتحليل العوامل العضوية والفردية فى الدافعية لدى الإنسان يجب أن تتم من خلال تحليل البيئة الاجتماعية، وبذلك يتطابق تصوره هذا مع تصور ديوى لمفهوم العادة[٣].

وفى تحديده لمفهوم الرغبات الأربعة أشار إلى - الرغبة فى الاستجابة، والرغبة فى الخبرات الجديدة، والرغبة فى الأمان، وأخيراً الرغبة فى التميز والإدراك - أنها يمكن أن تحتوى على كل أنماط السلوك والاتجاهات وأنه فى تحديده هذا يبدوا تأثره بتحديد «راتزنهوفر» Ratzenhofer للاهتمامات، وكذلك بتحديد وليم جيمس للموقف والاتجاهات[٤].

---

(1) Don Martindal, Op. Cit., P. 348.

(٢) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٢٤٠.

(3) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P., P. 22, 23, 25.

(4) Don Martindal, Op. Cit., P. 348

أما فى مؤلفه الذى اشترك فيه مع زنانيكى بعنوان: الفلاح البولندى فى أوربا وأمريكا، نجده عمل على تقديم معالجة جديدة للطبيعة الاجتماعية للذات، والدور الذى يقوم به المجتمع فى تحديد سلوك الفرد وذلك من خلال معالجته لتطور الشخصية منذ مرحلة الطفولة وحتى مرحلة النضج. وفى ذلك نجد ما يميز توماس عن غيره من أمثال كولى حيث أن كولى قد اهتم بنشأة الذات لدى الطفل ودور المجتمع فى العمل على تطويرها مما أدى به إلى التأكيد على صور التعاون بين الفرد والمجتمع، بينما اهتم توماس بتأثير العمليات الاجتماعية وعلى الأخص بالتفكك والتغير الاجتماعى على شخصية المراهق والتى من خلالها يمكن إعادة تحديد ذات المراهق. ومن ثم، دفعه ذلك إلى الاهتمام بأشكال الصراع فى البيئة، والتى تمارس ضغطاً على الأفراد ومن ثم يظهر تأثير تلك العوامل الاجتماعية بصورة أكبر خلال مرحلة الرشد وذلك إذا ما قورنت بمرحلة الطفولة[١].

كما أنه قد وجد من اجل التوصل إلى قوانين عامة للتغير الاجتماعى ضرورة تحليل العلاقات المتبادلة بين الفرد والتنظيم الاجتماعى والثقافى - وهو فى ذلك نجده يتشابه مع كولى فى تحديده لخصائص الجماعة الأولية ومفهوم مرآة الذات - وفى تحليله أيضاً للقيم الاجتماعية حاول توضيح الجوانب الذاتية والتى تعبر عنها اتجاهات أعضاء الجماعة الاجتماعية، والجوانب الموضوعية التى تعبر عن موضوع الفاعل وأهدافه وتتمثل فى الثقافة والحياة الاجتماعية. وكما حاول الربط بين الجوانب الذاتية والموضوعية للقيمة فيما يعرف باسم الاتجاه نحو القيمة. وذلك لأنه وجد أن قيم الفرد واتجاهاته تتكون من خلال المواقف الاجتماعية لأن الموقف يشتمل على ثلاثة عناصر هى أولاً القواعد والمعايير الاجتماعية الملزمة للفرد والجماعة، ويتحدد العنصر الثانى فى الاتجاهات السابقة لدى الفرد والجماعة. وأخيراً تحديد الموقف[*] عن طريق الفرد والجماعة[١].

---

(1) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P., P. 22, 23.

★ ويقصد بتحديد الموقف أنها عملية سيكولوجية يقوم بها الشخص فى تقييم موقف محدد وذلك بطريقة مسبقة قبل تحديد أنماط سلوكه واتجاهاته نحو ذلك الموقف. ومن ثم تكون طريقة تفسيره للموقف وتحديد مهنساه بمثابة جزء من الثقافة السائدة فى المجتمع، ويعنى تحديد الفاعل للموقف تفسيراته وإدراكاته ذات الطابع السوسيوثقافى. إعتمدنا فى ذلك على المصدر التالى:

- د. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٢٠ - ١٢١.

وفيما يتصل بتفسير الموقف أكد «توماس» على تنوع تصورات الأفراد والجماعات الاجتماعية تجاه نفس الموقف الذى يقابلهم فى حياتهم الاجتماعية، ومن ثم تحاول كل جماعة تقديم تفسير الموقف فى ضوء خبراتها السابقة وبناء على المعايير الخاصة بها، مما يترتب على ذلك اختلاف تفسير الموقف من جماعة لأخرى وتنوع أنماط سلوك الجماعات، والأفراد تجاه نفس المواقف التى تواجههم فى حياتهم الاجتماعية[٢].

ومما هو جدير بالذكر، يحدد «توماس» مهمة علم الاجتماع فى تحليل السلوك وأشكال عمليات التوافق بين أعضاء الجماعات وغيرهم من الأشخاص والجماعات الأخرى. حيث تحدث عمليات التوافق أساساً فى الموقف، وتكون بمثابة استجابة للظروف الموضوعية التى «يتجسد» Embodded فيها تماسك الأفراد والجماعات. ولكن بعد ذلك يرى أن هناك عناصر ذاتية تتمثل فى الخبرة، وبذلك أعتقد «توماس» أن الموقف ذاته وتحديدات الموقف إنما تأخذ فى الاعتبار السلوك الإنسانى. وذلك لأن الموقف يحتوى على عوامل ذاتية وأخرى موضوعية. ويعطى لنا مثالاً على تحديد الموقف بالطفل الذى يولد فى جماعة ما، وبالتالى نجده منذ البداية لا يمتلك القدرة على تحديد تلك المواقف التى يتعرض لها فى حياته، ومن ثم تعمل الجماعة على تطوير تحديداته للمواقف التى تواجهه فى حياته. وذلك من خلال ما تقوم به من تشكيل لقواعد وأنماط السلوك مقدماً، والتى يستخدمها الفرد فى هذه التحديدات للمواقف. وبناء على ذلك، يمكن القول إن تحديد الفرد للموقف إنما ينطوى على جانبين الأول هو تحديد تلقائى للفرد فى ضوء تفضيلاته ورغباته، ويتمثل التحديد الثانى أى المجتمعى فيما يفرض على الفرد من أشكال وصور ونماذج لتوقعات المجتمع والتى تكون ممثلة فى قيم وتوقعات أفراده وجماعاته ومعاييره الثقافية[٣].

---

(1) Don Martindal, Op. Cit., P. 349 - 351.

(٢) هاينز موسى، الفكر الاجتماعى: نظرة تاريخية عالمية، الطبعة الثانية، ترجمة د. السيد الحسينى، د. جهينة سلطان، القاهرة، مطابع سجل العرب، ١٩٨١، ص ص ١٨٨ - ١٨٩.

(3) Sheldon Stryker, Cit., P. 30 - 32.

وفى الواقع، نجد من الناحية المنهجية أنه لا يمكن إنكار أهمية أعمال «توماس وزنانيكى» فى مؤلفهما الفلاح البولندى فى أوربا وأمريكا، للتحديات الكيفية للموقف والاتجاه، كما أنه فى تحليله للأنماط الثلاثة للشخصية الإبداعية والمحافظة، والبوهيمية قد اعتمد فى ذلك على أسلوب تاريخ الحالة وتحليل الوثائق الشخصية والسير الذاتية وذلك باعتبارهما أدوات للبحث السوسيولوجى الكيفى، وذلك بالإضافة إلى استعانته بالملاحظة بالمشاركة، ودفاعه عن الدراسة المقارنة للمواقف الاجتماعية[1].

(هـ) - جون ديوى (١٨٥٩ - ١٩٥٢٢) J. Dewey

كان ديوى عالم نفس وفيلسوف، ويتحدد دوره فى علم الاجتماع بما قدمه من إسهامات، فى تطوير التفاعلية الرمزية. أما فى الفلسفة فإنه يعتبر ناقدا لتلك الحقيقة التى تذهب إلى أن خبرة الفيلسوف تعتبر ذات قيمة عملية فى مساعدة كل من الرجل والمرأة لمواجهة كل تغير مطلوب فى حياتهم الاجتماعية من يوم لآخر. ويتحدد دوره فى علم النفس من خلال ما وجهه من نقد لنظريات الدافعية لتجاهلها دور التفاعل الاجتماعى فى السلوك الإنسانى.

وهكذا يبدو له إسهامات فى مجالات متعددة، وتعبر عنها مؤلفاته منها: المدرسة والمجتمع (١٨٩٩)، ويتضح مدخله البراجماتى فى نظرية العقل ونظريته عن المنطق (١٨٩٦)، علاوة على ذلك مؤلفه عن: الديمقراطية والتعليم (١٩١٦). كما نجد بعض المؤثرات الفكرية التى أثرت عليه ونبعت من اهتماماته الشخصية، وخبرته العلمية فى مجال التعليم، وبالتالى فهى لم تنبع من الكتب. وجاء تأثره بعيد واضحاً فى مفهومه عن أصل الذات ووظيفة كثير من الظواهر والعمليات منها الوعى فضلاً ن تأثره بالنظرية الداروينية عن التطور والانتقاء الطبيعى، كما أن تأثره بالفلسفة الهيجلية جعله يترجم مقولات هيجل إلى مصطلحات بيولوجية وثقافية[2].

---

(1) Don Martindal, Op. Cit., PP. 352 - 353.

(2) Charl Farnkel, (Joohn Dewey), In: Interatinal Encyclopeoia Of Social Sciemce, Deavid Sills (et. ol), (ed.), N. Y., The Macmillan Company, Vol., 4, 1968, PP. 155 - 156.

وفى الواقع، يعتبر مفهوم العادة Habit مفهوم أساسى فى تفكير ديوى، وخاصة فى إدراكه للعلاقة بين كل من الفرد والجماعة الاجتماعية حيث يعكس ذلك اهتمامه بالعناصر الاجتماعية فى السلوك الإنسانى، نظراً لأنه يرى أن الأوضاع التى تتشكل منها العادة لا تنحصر فقط فى الفرد، ولكن فى النظام الاجتماعى بصفة عامة، ومن ثم فإنه ينظر إلى الفكر على أنه يأتى قبل الفعل، والعادة قبل القدرة على إثارة التفكير، وذلك على عكس ما يراه علماء الاجتماع الأمريكان فى الاعتقاد بأن العادة إنما تتغير وذلك تبعاً لتغيير أوضاع الإنسان[1].

كما تنحصر أهمية العادة لديه فى التأكيد على سياق أو مضمون يكون ذات وضع أسمى من العلاقة الأولية بين الفرد والمجتمع، وذلك لأنه ينظر إلى التنظيم الشخصى على اعتبار أنه وظيفة أولية للعادة، وإلى التنظيم الاجتماعى باعتباره وظيفة أولية للعرف الذى يعتبر عادة جمعية، وبذلك تتطور الشخصية أساساً داخل السياق الاجتماعى حيث تعكس العادات لدى أى شخص النظام الاجتماعى السابق ومن ثم تكون محدداً أساسياً للتفكير وتعكسه أيضاً[2].

ويتحدد تغير دور العادة فى فلسفة ديوى عن السلوك الاجتماعى، وذلك فى اهتمامه المتزايد بدور العناصر الاجتماعية فى السلوك وذلك كما يتضح فى استخدمه لهذا المفهوم فى مؤلفه بعنوان «مبادئ فى علم النفس» Principles of Psychology بهدف تفسير تكرار سلوك الأفراد فى المجتمع حتى يتحول إلى عادة يتم ممارستها فى شكل سلوك اجتماعى فى مواقف وتجاه موضوعات محددة.

كما يتحدد مدخله لدراسة الفرد والسلوك الاجتماعى من خلال النظر للكائنات الإنسانية باعتبارها كائنات اجتماعية ذات اختلاف فى الدرجة وليس فى النوع. وأن العلاقة بين الكائن العضوى والبيئة الاجتماعية تتضح فى عملية التفاعل بين العقل والبيئة. ذلك العقل الذى يقوم أيضاً بعملية التفكير التى تتميز بها الكائنات الإنسانية عن غيرها من الحيوانات، ويبدو ذلك التفكير فى عملية التكيف الإنسانى مع البيئة، وناقش فى بحثه الذى كان

(1) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P., P. 22, 23,-25.

(2) Ibid., PP. 18 - 19.

بعنوان «الانعكاس كمفهوم فى علم النفس» والذى نشره عام (١٨٩٦) أهمية التفاعل فى تفسير السلوك الإنسانى. وطرح فى ذلك البحث سؤالاً عن كيفية تكوين أو تحديد المنبه أو المثير Astimulus وانتهى إلى أنه لا يوجد خارج النشاط الإنسانى للفرد بل يتحدد فى فى سياق أو محتوى الفعل: ومن ثم يعتمد العالم الذى تتخيله فى ذواتنا على خاصية وطبيعة النشاط الذى ندخل فيه. حيث يتغير هذا التخيل تبعاً لتغير ذلك النشاط. ومن هنا يتضح لنا جانبان فى مناقشة ديوى هو رفضه للمجتمع باعتباره بناءاً «متماسك الوحدات» Monolithic، وثانياً تأكيده على أن موقف الحياة اليومية ومشاكلها تعتبر موضوع للدراسة فى العلوم الاجتماعية ويتمثل صدق العلم الاجتماعى لديه فى مدى قابليته للتطبيق على دراسة وفهم الواقع وقدرته على تقديم الحلول الملائمة لما يوجد فيه من مشكلات[١].

وهكذا، يبدو أن ديوى فى تحديده لمفهوم الطبيعة الاجتماعية وأسس العقل الإنسانى إنما يتبع فى ذلك نمط العديد من أمثال «جورج هربرت ميد» وذلك فى إدراكه لدور اللغة باعتبارها وسيلة للاتصال الذى تتميز به الكائنات الإنسانية، وأن النمو الاجتماعى للعقل إنما يحدث أيضاً من خلال عملية الاتصال هذه. ولقد أسهمت تلك الأفكار التى ناقشها «ديوى» فى النزعة السلوكية، والتى عرفت فيما بعد بالتفاعلية الرمزية فى تحقيق نوع من الترابط بين كل من علم النفس وعلم الاجتماع من خلال توجيه النظر إلى التطبيق العملى لنظرياته فى ميدان يعرف بالإصلاح الاجتماعى، هذا المجال الذى سيطر على معظم اهتمامات البراجماتيين. حيث حاول «ديوى» من خلال تطبيق مفهوم العادة على نظريته فى السلوك الاجتماعى دراسة المشاكل الاجتماعية ومن ثم يرى أن الإصلاح الاجتماعى يعتبر ذات أهمية فى تطوير المجتمع ومعالجة مشكلاته الاجتماعية. وأن نجاح ذلك يتطلب بالضرورة إصلاح تعليمى، وذلك لأنه كان لديه تصور عقلى أو حلم يتمثل فى ضرورة التخطيط الاجتماعى للمجتمع حتى يسهم فى تنمية الابتكار أو الإبداع والمهارات الفردية[٢].

(1) - Sheldon Stryker, Cit., P. 25 - 26.

(2) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P., P. 20 - 21.

كذلك ناقش ضرورة الاهتمام بالتعليم فى مؤلفه بعنوان «الديمقراطية والتعليم» (١٩١٦) حيث أكد فيه على ضرورة رفض التبعية، والتأكيد على أهمية إتباع المناهج الفعالة التى تفيد فى تربية النشء على المرونة والتسامح، وقدرة الأعضاء على التكيف فى مختلف الظروف والتعاون فى كثير من جوانب الحياة الاجتماعية فى إطار ديمقراطى[1]. ويرى إن الطريق إلى هذا ينبلج من الاهتمام بالنظام التعليمى فى المؤسسات المعنية بذلك والتى يلتحق بها الإنسان منذ مرحلة الطفولة المبكرة فى حياته، وجعل العملية التعليمية بها قادرة على تقبل أنماط التغير الضرورية واللازمة للمجتمع القائم على التخطيط. ومن ثم تتمثل نقطة البداية لديه فى ضرورة الاهتمام بسنوات المدرسة المبكرة وبذلك يصبح النسق التعليمى جزءاً متكاملاً عضوياً مع حياة الأفراد فى المجتمع. وهنا تتلاقى أو تتقابل وجهة نظر ديوى مع كولى عن المجتمع ووصفه له على انه يعنى الترابط أو الدخول فى علاقات وتفاعلات متبادلة، وتتحدد المهمة الأساسية لعلم الاجتماع لديه فى ضرورة العمل على اقتراح حلول لمشاكل الحياة اليومية التى تواجه أعضاء الجماعات الاجتماعية التى يتكون منهم المجتمع[2].

٢ ـ خصائص التفاعلية الرمزية فى مرحلة النشأة:

وبناء على ما سبق، يمكن القول أن تلك الإسهامات التى عبرت عن التفاعلية الرمزية فى مرحلة نشأتها الأولى تتميز فى عمومها بخصائص هى:

١ - اهتمام أنصار التفاعلية الرمزية جميعاً بتحديد دور العوامل الاجتماعية باعتبارها عناصر هامة لفهم السلوك الإنسانى، وذلك لأنهم يرون ضرورة النظر إلى الأفراد، وذلك على أنهم وحدات متفاعلة فيما بينهم يطلق عليها الجماعات. إلى جانب أنهم جميعاً أيضاً قد هاجموا ذلك التصور القديم والذى كان سائداً حول العلاقة بين الفرد والمجتمع مما يترتب على ذلك ظهور مدخل جديد من جانبهم يهتم بدراسة علاقة الفرد بالبيئة، والبحث عن أسباب المشكلات الاجتماعية وطرق علاجها. حيث ذكر

---

(1) Charl Farnkel, (Joohn Dewey), Op. Cit., P. 157.

(2) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P. 21.

«ديوى» على سبيل المثال أن عملية التفاعل بين الفرد والمجتمع إنما تتضح من خلال التأكيد على دور الجماعة الاجتماعية للفرد، وأن العلاقة بين الفرد والمجتمع تكون ذات طبيعة عضوية(١).

٢ - تأكيد معظم أنصار المنظور التفاعلى الرمزى على بعض افتراضات منها أن تنظيم الحياة الاجتماعية إنما ينبع من داخل المجتمع ذاته، ومن عمليات التفاعل بين أعضاء المجتمع، وكذلك رفضهم لفكرة مؤداها أن شكل التنظيم الاجتماعى إنما يتحدد بواسطة تأثير العوامل الخارجية وذلك كالعوامل الاقتصادية والجغرافية. ويقوم رفضهم هذا على أساس أن تلك العوامل لا يكون تأثيرها على تشكيل الحياة الاجتماعية، ولكن على تلك النشاطات والأعمال التى تقوم بها الإنسان. وذلك بهدف تكيفه مع البيئة، وأن هذه العوامل لا تملك فى ذاتها تأثيراً مباشراً على الفعل(٢).

٣ - تركيز جميع الباحثين فى هذا المنظور على ضرورة الاهتمام بعمليات التفاعل الاجتماعى والتى تحدث فى سياقات Contexts خاصة، وأن ما يحدث فيها من عمليات هى التى تعكس فى جانب كبير منها ردود أفعال الآخرين، كما أن الأشخاص فى تفاعلهم مع بعضهم البعض إنما يميل كل منهم إلى التفاعل مع الأخر فى ضوء فكرته عن نفسه، هذا إلى جانب أنهم يرون أن كل فعل يكون ذو معنى يمكن فهمه وذلك من خلال اكتشاف المعانى التى يضفيها الفاعلين على نشاطاتهم، كما تكون المعانى معاً فعلاً مباشراً وهى ليست مختلطة، ولكن قد تم تشييدها فى مواقف التفاعل التى تحدث بين الفرد والآخرين فى ضوء تحديده لذاته وللآخرين(٣).

٤ - كما أن تفسيرهم لنشأة الذات لم يعد مقصوراً على تلك التفسيرات التى تتحدد فى العوامل الفردية، بل يقوم على فكرة هى أن الفرد يكون

(1) Ibid., P. 43, 49.

(2) Cuff& Payne, Op. Cit., P.91.

(3) Mical Harolambas & Robein Heald, Op Cit., PP. 16 - 18.

قادراً على استدماج دور الآخرين فى عقله حتى يتمكن من اكتساب أنماط جديدة من الأفعال تجاه نفسه والآخرين. كما تمثل التفسير الآخر لتطور الذات وذلك فى اهتمام «ميد» بمفهوم «الانبثاق أو الظهور» Emergence ذلك المفهوم الذى أنتقل من الفلسفة إلى العلوم الاجتماعية وأصبح ذو تأثير هام فى إعادة صياغة مفهوم العلاقة بين الفرد والمجتمع مما أدى إلى تجنب تفسير الذات فى ضوء عامل واحد سواء كان الفرد أو المجتمع.

٥ - اهتم كل من «ديوى وتوماس وكولى» وغيرهم بالأوضاع الضرورية واللازمة لتدعيم النظام الاجتماعى، وذلك من أجل تقديم فهم أفضل للسلوك حيث أتى اهتمام «كولى» بذلك من علم الاجتماع البنائى، ومن ثم عملوا جميعاً على توسيع مفهوم السلوك الرمزى حيث أصبح يتضمن اللغة وذلك باعتبارها عنصراً هاماً للاتصال فى عملية التفاعل بين الأشخاص فى المجتمع(١). وكذلك قد أكد البعض منهم على أن تحليل الموقف يجب أن يكون موضوعاً أساسياً فى الدراسة السوسيولوجية ذلك الموقف الذى يشمل على عناصر هى الفاعلون كموضوعات مميزة، ومكان التفاعل، والمعانى التى تظهر فى الموقف، والوقت الذى يستغرقه الفاعل فى موقف التفاعل(٢).

٦ - أخذ أيضاً تحديد مفهوم الجماعة دوراً جديد له فى علم النفس الوظيفى بالولايات المتحدة الأمريكية بقيادة «وليم جيمس». حيث تمثل ذلك الدور فى تشكيل مفهوم الدافعية للسلوك الاجتماعى، مما ترتب على ذلك أيضاً ظهور تصور جديد لمفهوم الغرائز، كما أصبح مفهوم الجماعة يتضمن فكرتين هما أن الجماعة إنما تكون ذات طبيعة عضوية، وانه يوجد تفاعل مستمر بين الأفراد المكونين لها. كما يعتبر التفاعل فى نظرهم رباط حاسم بين الفرد وجماعته(٣).

---

(1) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., PP. 45 - 49.

(٢) د. أحمد زايد، مرجع سابق، ص ٤٥١.

(3) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P. 51.

٣ - الاتجاهات المعاصرة للتفاعلية الرمزية:

تمثل المحاولات السابقة التفاعلية الرمزية فى مرحلة نشأتها، ومن ثم ظهرت محاولات أخرى عملت من جانبها عن مناقشة أفكارها وتطويرها. وبذلك يمكن التمييز بين عدد من المدارس المعاصرة للتفاعلية الرمزية كمدرسة شيكاغو التى يعبر عنها «هربرت بلومر»، والمدرسة الأخرى التى تتمثل فى المدخل المسرحى عند «جوفمان» والذى يعتبر المسرح نموذجاً لفهم الحياة الاجتماعية، ومدرسة ايوا Iowa التى يعبر عنها «مانفورد كون» فى الاتجاه الوضعى الإجرائى[١].

(أ) هربرت بلومر H. Blumer

حاول كثير من العلماء تفسير أفكار «هربرت ميد» والعمل على تطويرها وكان من بينهم تلميذه «هربرت بلومر». الذى نظر إلى التفاعلية الرمزية على أنها تعبر عن ذلك التفاعل الذى يحدث بين مختلف العقول والمعانى التى تميز المجتمعات الإنسانية كما أوضح أن التفاعلية الرمزية تقوم على ثلاث قضايا أساسية هى: أولاً: أن الكائنات الإنسانية تتفاعل تجاه الأشياء على ضوء ما تنطوى عليه الأشياء من معانى ظاهرة لهم، ثانياً: أن هذه المعانى هى محصلة التفاعل الاجتماعى بين أعضاء المجتمع الإنسانى، وثالثاً: تتعدل هذه المعانى وتتغير من خلال عملية التأويل التى يستخدمها كل فرد فى تعامله مع الرموز التى تواجهه. ولقد وجدت تلك القضايا أيضاً فى أعمال الآخرين حيث عبر عنها كولى فى نظريته عن المجتمع، وجون ديوى فى مفهوم العادة، واتضحت أيضاً فى فكرة وليم توماس عن تحديد الموقف[٢].

اهتم بلومر بالمعنى الذى يظهر خلال عملية التفاعل الإنسانى حيث أنه يعتبر المعنى هو المفهوم الرئيسى فى تفسير السلوك، ومن ثم يرى ضرورة التأكيد على كل الأوضاع أو الجوانب السوسيولوجية والسيكولوجية بالنسبة للفرد. ومن ثم نجده ينظر إلى معنى الفعل الإنسانى الخاص - مثال الجريمة - على أنه

---

(1) Sheldon Stryker, Cit., P. 87.

(2) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P. 1.

ينبع من التفاعلات والخبرات السابقة فى الماضى، وأن فعل المستقبل إنما ينبع أيضاً من التوجيه المباشر لناحية انتقاء أفعال معينة من الآخرين. ومن ثم يتأثر الفعل الإنسانى بثلاث تحديدات هى: تحديد الشخص لنفسه، وتحديده أو تقديره للموقف داخل المجتمع، ثم تحديد المجتمع له. حيث يتمثل تحديد الشخص لنفسه فى تلك الأفعال التى يقوم بها طبقاً للمعانى التى يكونها عن نفسه وكذلك طبقاً للطريقة التى يفسر بها الآخرون أفعاله و تتأثر أفعاله أيضاً من ناحية أخرى بالتحديد المجتمعى، والذى يظهر من تفاعلاته العديدة مع الآخرين والتى يمكن لها أن تعمم فيما بعد إلى كيان واحد يسيطر على عقول كل الأشخاص فى المجتمع[1].

ولقد عبر عن ذلك «لويس كوزر» بأن «هربرت بلومر» وغيره من أنصار التفاعلية الرمزية قد رأوا ضرورة الاهتمام بالتفسيرات الذاتية، وتحديد الموقف وضرورة الاهتمام بتلك المعانى التى تظهر خلال عملية التفاعل الاجتماعى بين الأفراد فى المجتمع الذى يعيشون فيه[2].

وفيما يتعلق بنظرته للمجتمع فإنه يرى أن التفاعلية الرمزية تتناقض تماماً مع التيار الرئيسى للفعل الاجتماعى فى علم الاجتماع - أى النظرية الوظيفية للفعل الاجتماعى - حيث تنظر التفاعلية الرمزية إلى المجتمع بوصفه عمليات من التفاعل تشمل على الفاعلين فى تكيفهم المستمر مع أى شئ آخر، وعلى التفسير المستمر للموقف - أى أنها تنظر إلى المجتمع على أنه عملية تفاعلية تتضمن فاعلين وموقفاً، وعلى النقيض من ذلك تميل الوظيفة فى علم الاجتماع إلى وصف الفعل على أنه استجابة آلية لبناء الأنساق الاجتماعية، ولذلك فإنها قد فشلت فى النظر إلى الفعل الاجتماعى الذى يقوم به الأفراد فى المجتمع على أنه يوجد من خلال عملية التفسير أو التأويل، وأن الأفعال الإنسانية إنما تتشكل من خلال قيم وحاجات الأنساق الاجتماعية، وبالتالى تعتبر المعايير والأدوار الاجتماعية بمثابة جزء من هذه الأنساق الاجتماعية والثقافية[3].

---

(1) G. B. Vold, Theoretical Criminology, 2 Edition, N. Y., Ox University Press, 198, P., P. 256, 259.

(2) Lewis A. Coser, Masters of Sociological Thought, Op. Cit., P. 575.

(3) Mical Harolambas & Robein Heald, Op. Cit., P. 546.

ووجد «بلومر» أن محاولة تشبيه حياة الجماعة بالطريقة الآلية التى يعمل بها البناء الاجتماعى للنسق، أو بحاجة الأنساق إلى التوازن أمر يواجهه بعض الصعوبات وعلى الأخص عند النظر إلى شكل التفاعل ونحاول تفسيره فى ضوء أن المشاركين إنما يضبطون ويسيطرون على أفعال كل فرد ومن ثم يتحكمون فى توجيهها. كما أنه ينظر إلى مقاييس الفعل وذلك على أنها تتحدد من خلال الفاعلين الاجتماعيين، وليس عن طريق الأنساق الاجتماعية[1].

علاوة على ما سبق، أنتقد «بلومر» وجهة النظر التي ترى محاولة تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على موضوعات الدراسة فى علم الاجتماع. وفى هذا الصدد نجده قد وجه نقداً إلى ما يعرف باسم تحليل المتغيرات Variable Analysis، إذ يعتبره بمثابة عمل غير مقبول فى الدراسة السوسيولوجية، وذلك إذا ما طبق عليها بدون تعديل. حيث لا يتوفر لديها علية التحكم فى بعض المتغيرات مثلما يتبع فى العلوم الطبيعية حينما تنظر إلى العلاقة بين الضغط ودرجة الحرارة على سبيل المثال. فإنها تعتبر أن التغير فى إحداهما يتبعه تغير فى الآخر، وإذا نظرنا إلى الضغط على أنه متغير مستقل تكون الحرارة بمثابة متغير تابع. الأمر الذى لا يمكن تطبيقه فى حالة النظر إلى الحياة الجماعة ومعالجتها على أنها متغير مستقل، ثم الاختيار ما بين أشكال نشاطها باعتبارها متغير تابع، وهو فى ذلك نجده يتفق مع «ميد» فى مهاجمته لوجهة النظر هذه.

ومن بين مبررات نقده لمدخل تحليل المتغيرات هذا، إنه يعتبر بمثابة محاولة زائفة، لأن تحديد ذلك المدخل للأشياء كالمواقف وغيرها يكون تحديداً غير واضح. كما أن وصفه للسلوك يكون أيضاً غير دقيق نظراً لتداخل وتعقد العمليات الاجتماعية التى توجد فى المجتمع[2]. كما أن هذا المدخل يرد الحياة الاجتماعية للمتغيرات وعلاقتها سواء كانت سبباً أو نتيجة، وكذلك توجد جوانب قصور فيه تتمثل فى عدم وجود قواعد توجه أو تحكم التحديات الخاصة باختيار تلك المتغيرات. ومن ثم لا يمكن وضع الشكل الرئيسى لخبرة الفرد

---

(1) Ibid., P. 457.

(2) Cuff& Payne, Op. Cit., P. 92, 94. 69 - 97.

والجماعة داخل منطق تحليل المتغيرات الذى يتسم بالتعقيد، لأنه لا يناسب حياة الجماعة التى تعتمد على عملية الفهم والتفسير للأفعال وما تتضمنه من معانى ورموز، بالإضافة إلى أنه ينتهى إلى نتائج متفرقة متحدة[١].

ومما هو جدير بالإشارة إليه، نجد فى بعض المقالات النقدية التى كتابها بلومر لتحديد الخطأ فى النظرية الاجتماعية، نجده قد حاول أن يميز بين نوعين من المفهومات هما: المفهومات الحاسمة، والمفهومات «ذوات الحساسية» Senstizing Concepts فوجد أن مشكلة النظرية الاجتماعية تكمن فى طبيعة مفهوماتها الغامضة التى تعتمد عليها مما يؤدى بها إلى عدم الاستفادة بنتائج البحوث الامبيريقية، ومن ثم فإنه لتجنب ذلك قد أثار النوع الآخر الذى يفضله وهى المفهومات ذوات الحساسية وهى تكون على العكس من المفهومات الحاسمة حيث تتسم بالمرونة، ومن ثم يصبح العالم الامبيريقى لعلم الاجتماع فى نظره هو العالم الاجتماعى الطبيعى الذى يكمن فى خبرة الحياة اليومية[٢]. ويمكن الاعتماد فى دراسته على أداة الملاحظة بالمشاركة، وبذلك فإنه يجب على الباحث الاجتماعى فى دراساته الميدانية التى يقوم بها أن يتخلى عن استخدام تلك الإجراءات البحثية الصارمة غير القابلة للتطبيق على مواقف الحياة اليومية والتى تتسم بالدينامية[٣].

وانطلاقا من بعض الملاحظات التى أثيرت حول إسهامات أنصار التفاعلية الرمزية - والتى سوف نتناولها بالتفصيل فى نهاية هذا الفصل - وخاصة أنها قد تبنت تصوراً فردياً للفعل الاجتماعى، هو ما يدفعنا إلى تناول المدخل المسرحى عند «جوفمان» والذى حاول فيه أن يستعيد النظرة الجماعية للسلوك الإنسانى فى دراسته لسلوك الفريق. إلا أن مجموعة من الملاحظات وجهت إليه وخاصة حول تجاهله لواقع الحياة اليومية وما يرتبط به من الأنشطة المتكررة تلك الملاحظات التى حاول الاتجاه الاثنوميثودولوجى تناولها فيما بعد[٤].

---

(1) Sheldon Stryker, Cit., P. 99.

(2) Ibid., P. 98.

(٣) د. محمد على محمد، التفاعلية الرمزية فى علم الاجتماع المعاصر، فى مجالات علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص ١١٢.

(4) Sheldon Stryker, Cit., P. 152.

(ب) مانفوردكون Manford H. Kuhn

يرى «مانفورد كون» أن ما حدث من تطور فى التفاعلية الرمزية إنما يتحدد فى تلك الفترة من ١٩٣٧ - ١٩٦٢ وترتكز التفاعلية الرمزية لديه فى مفهومات الذات، واكتساب الدور، وفى الواقع أن اختياره لنظرية الذات إنما كان يمثل من جانبه الاهتمام بتطوير تعميمات ومحاولة اختبارها عن طريق البحث الامبيريقى. ويصف التفاعلية الرمزية فى مرحلة نشأتها على أنها قويمة الرأى أو المعتقد Orthodex، هذا إلى جانب تنوع تلك الإسهامات التى جاءت من جانب المؤسسين لها.

كما تحدد إسهاماته فى التفاعلية الرمزية فى جوانب بعضها تمثله نظرية الدور، والبعض-الأخر تمثله الجماعة المرجعية. ويرى أن ارتباط نظرية الدور بالتفاعلية الرمزية يكون من خلال نظرته إلى البناء الاجتماعى، أو التنظيم الاجتماعى باعتباره يتكون من شبكة الأوضاع أو الأدوار والتوقعات التى تصاحب تلك الأوضاع. حيث أكد على أن ذلك البناء الاجتماعى يتغير من خلال التفاعل الرمزى، وفى الوقت ذاته فإنه نظر إلى البناء الاجتماعى على أنه يحدد أو يقيد هذا التفاعل. ومن ثم ينتهى «كون» من ذلك إلى التأكيد على أن المعرفة بالعلاقة بين توقعات الدور وإنجازات ذلك الدور يمكن لها أن تساعدنا فى التنبؤ بأشكال السلوك الخاص بأعضاء الجماعات وأفراد المجتمع من خلال علاقته بالذات(1).

ويرى «كون» أن علاقة الذات بالسلوك إنما تمثل محدداً يكون له أهميته فى الحياة الاجتماعية، ومن ثم يمنح «كون» فى مدخله الوضعى هذا أهمية كبيرة لجوهر الذات الذى يكون بمثابة محصلة لتوقعات الجماعات التى يتفاعل فيها أعضاؤها ويشكلون تفاعلهم، ومن ثم تسهم توقعات الجماعة فى تحديد المواقف التى يتفاعل فيها الأعضاء وغيرهم كما تفيد فى تحديد الموضوعات التى يدور حولها هذا التفاعل(2).

---

(1) Ibid., PP. 100 - 101.

(2) Ibid., PP. 101 - 102.

أما فى نظرة «كون» للذات وتحديله للعناصر المكونة لها فلقد حددها فى الأنا الداخلية والخارجية، ومن ثم ركز على الأنا الخارجية متجاهلاً فى ذلك الأنا الداخلية. وحدد الخارجية فيما تشير إليه من مجموعة التوقعات التى يستخدمها الأشخاص ويكونونها عن ذواتهم، وتكون مشتقه أيضاً من سلوك أولئك الأشخاص الآخرين تجاه الذات ويمكن أن تخضع هذه التوقعات للملاحظة[1].

كما ناقش ضرورة الحاجة لى الذهاب بعيداً عن التحقق من الهوية وذلك فى مصطلحات المكانة، من أجل اكتشاف الذات، وإدراك الحاجة إلى معرفة الأدوار، وإنجازات الدور، وتوقعات الدور. كما أكد أيضاً على أن الفاعلين يمكن لهم أن يستخدمون منظورات الآخرين كأساس للتوافق فى سلوكهم وضبط استجاباتهم نحو هذا السلوك والآخرين. وبذلك فإنه قد عمل على تحديد كل من الذات والجماعة المرجعية، والفعل وغير ذلك فى تعريفات إجرائية عامة، ويعتبر كون ممثلاً للاتجاه الوضعى الاجرائى نظراً لتأكيده على القياس، ومحاولة التحقق الامبريقى من بعض الفروض والتعميمات[2].

(ج) المدخل المسرحى عند جوفمان Dramanturigical Approach

حاول «أرفينج جوفمان» أن يوسع من نظريات كولى، وميد وغيرهم من أنصار التفاعلية الرمزية، وذلك فى مدخله المسرحى الذى يرتكز أساساً على علاقات المواجهة المباشرة والصريحة[3]. وعلى الرغم من انه جاء بمدخل متميز عن غيره من أنصار التفاعلية الرمزية، إلا أنه قد تأثر ببعض أنصارها من أمثال «وليم توماس» و«جورج هربرت ميد». ففى مؤلف له بعنوان «عرض الذات فى الحياة اليومية» (١٩٥٩) حاول أن يوضح ويفسر تلك الطرق المعقدة، والتى يبنى أو يشيد الناس من خلالها تصوراتهم عن الذات فى مواجهة وحضور الآخرين، ومن هنا قد اعتبر المسرح كنموذج لفهم الحياة الاجتماعية، ونظر إلى الفاعلين

---

(١) د. محمد على محمد، التفاعلية الرمزية فى علم الاجتماع المعاصر، فى: مجالات علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص ١١٢ - ١١٣.

(2) Seldon Stryker, Op. Cit., PP. 102 - 103.

(3) Irving M. Zeitlin: Op. Cit, P. 66.

فى حياتهم الاجتماعية على أنهم يتماثلون تماماً مع الممثلين على المسرح. فمن خلال قيام الممثل بأدائه لدوره على خشبة المسرح نجده يحاول تقديمه بطريقة متميزة يستطيع من خلالها أن يعكس دوره على الآخرين ممن حوله في المسرح ويجعله يتوحدون معه وهؤلاء يطلق عليهم الجمهور أو المتفرجون، تلك الطريقة التى يحرص فيها الممثل على أن يعبر عن أفكاره ويوصلها لهم فى هذا الدور(١).

ويرى جوفمان أن الممثل على خشبة المسرح إنما تواجهه مشكلة عرض نفسه على الجمهور، وكذلك مشكلة كيفية تأديته لدوره بطريقة يستطيع من خلالها إقناع الآخرين(٢). ولقد سعى جوفمان إلى توضيح ذلك من خلال تأكيده على أن كل فرد إنما يحاول أن يدير ويوجه انطباعاته أثناء محاولته لعرض ذاته عى الآخرين، وذلك عن طريق ما يقدمه ويعرضه لهم من أدوار ومجهودات يعمل فيها على ترجمة الشعور والاهتمامات الحقيقية لهم، ومن هنا يرى جوفمان أن كل مشارك إنما تتكون لديه رؤية وشعور حقيقى عن انطباعات و إحساس الآخرين باعتبارهم مشاركين له أيضاً حتى تأتى فى النهاية مقبولة لديهم جميعاً. بهذه الطريقة يمكن للشخص القائم بأداء الدور - على المسرح - أن يعدل من سلوكه طبقاً لهذه الانطباعات، والإيماءات التى تصدر عن الآخرين من حوله وذلك باعتبارهم مشاركين له فى هذا الموقف حتى يكون سلوكه فى النهاية مقبولاً لديهم ومطابقاً لتوقعاتهم.

علاوة على ذلك، أكد جوفمان أنه على القائم بالدور أن يضع فى اعتباره حقيقة هامة مؤداها: أن الجماعات الاجتماعية المشاركة له فى الموقف تكون لها طبيعة مختلفة، وكذلك تجعل الممثل يتعرض لمواقف مختلفة. وهذا أمر يحتيم عليه أن يعرض ويقدم لهم أيضا ذوات مختلفة تبعاً لاختلاف تلك الجماعات المشاهدة، واختلاف طبيعة المواقف المعروضة عليهم(٣). وإلى جانب ذلك يذكر جوفمان انه من خلال مظهر الممثل، وثقته بنفسه وطريقته فى الحديث كل ذلك مجتمعاً إنما

(1) Lewis A. Coser, Masters Of Sociological Thought, Op. cit., PP. 575 - 577.

(2) Cuff& Payne, Op. Cit., P. 111.

(3) Irving M. Zeitllim, Op. Cit., P. 76.

يساعده على قيامه بدوره وإقناع الآخرين. ولذلك فإن كان الدور المطلـوب مـن الممثل إن يقوم به هو دور الطبيب فإن عليه أن يرتدى ملابس بيضاء وأن يعلـق سماعة الطبيب فى عنقه لكى يتقن دوره ويقتنع به المتفرج.

وهكذا، وجد جوفمان أن الحياة الاجتماعية لأفراد وجماعات المجتمع إنما تماثل حياة فريق المسرح الذى يتكون من الممثلين والإداريين فى تعاونهم لتحقيق وإنجاز أهدافهم، وكذلك الأمر ينطبق أيضاً على فريق المستشفى. فمن خلال النظـر إليـه نجده يتكون من الأطباء والمساعدين لهم، الذين يتعـاونون جميعـاً مـن أجـل تحقيـق هدفهم الذى يتحدد فى علاج المرضى ومحاولة إقناعهم بأن شفاءهم فى المستشـفى أمر ممكن[1]. ولهذا يتصور ذلك المدخل المسرحى أن الأنشـطة تعتـبر مجموعـة مـن الوظائف المتشابكة، كما أنه فى رؤيته للحياة الاجتماعية باعتبارها مسـرح يكـافح ويناضل فيه الإنسان من أجل تقديم تخيل مقنع عن ذاته للآخرين، إنما لا ينظر إلى الإنسان على أنه يحاول عمل شئ ما بقدر ما يحاول أن يكون شـيئاً مـا. حيـث إنـه يتبادل ذلك التخيل مع الآخرين — وفى هذا يتشابه إلى حـد مـا مـع هومـانز فـى نظريته عن التبادل الاجتماعى[*]. — هذا التبـادل الـذى يعتمـد علـى مهـارات وقدرات الشخص انجازاته، وليس على دخله أو ممتلكاته[2].

أما فى مؤلفه الذى كان بعنوان «مستشفيات المرضى العقليين» **Asyluns**، فلقد حاول أن يسلك فـى دراسـته عـن الموقـف الاجتمـاعى سـلوك الشـخص المريض عقلياً، حيث حاول التأكيد على أشكال و أنماط السـلوك والأدوار التـى يتوقع أن يقوم بها الأفراد، وذلك فيما قام بـه مـن أبحـاث (١٩٦١) طبقهـا علـى بعض المصطلحات العقلية. وكان يتركز اهتمامه فيها على تلـك المشـكلة التـى

---

(1) Cuff& Payne, Op. Cit., P. 111 - 112

★ أن كان جوفمان قد تناول تبادل الأحاسيس والمشاعر والانطباعات بين الممثـل والمشاركين له فى الموقف فإنه بذلك يتشابه مع هومانز فى نظريته عن التبـادل الاجتماعى فى السلوك الإنسانى، إلا أننا نجد أن ثمـة اختـلاف واضح بينهمـا حيث أنه عند هومانز يكون التبادل مادى أساساً ومحركاً للأحاسيس والمشاعر.

(2) A. Gouldnar, The Coming Crisis Of Western Sociology, London Heinman, 1970, P. 385.

تواجه الناس حينما يغيرون من أحد الأدوار الاجتماعية التى كانوا يقومون بها من قبل إلى بعض الأدوار الأخرى. وذلك مثل نزيل السجن حينما يدخل مستشفى الأمراض العقلية، فإنه يكون مهتماً بتوقعات وأدوار تلك الهيئة المكونة للمستشفى فى الوقت الذى كان مهتماً فيه من بل بأدوار هيئة السجن. ونخلص من ذلك إلى أن حوفمان كان يهدف إلى توضيح الطريقة التى من خلالها يمكن للثقافتين - أى ثقافة النزيل بالسجن وثقافة أعضاء المستشفى - أن تربط وتتكيف كل منها مع الأخرى[1].

ومن ثم يمكن الإشارة إلى أن ذلك المدخل المسرحى لدى جوفمان إنما يهدف إلى التأكيد على أن الأفراد فى حياتهم الاجتماعية إنما يلعبون أدواراً أكروباتيه Acrobatic وبذلك فهى لا تتسم بالثبات والاستمرار، وهذا إلى جانب ما يراه هذا المدخل من أن الإنسان ليس أخلاقياً، ولكنه يحاول أن يبدو أخلاقياً أمام الآخرين. وأن الأخلاق لا تربط بين الأفراد فى حياتهم الاجتماعية، ولكن شعورهم وأحاسيسهم هى التى توحد بينهم[2]. علاوة على ذلك، يرى «جولدنر» أن مدخله هذا يعبر عن استجابة جوفمان لتلك المسلمات والعواطف الخاصة بالطبقة الوسطى الجديدة فى المجتمع الأمريكى، كما أن تحليله لعملية عرض الذات ومواقف التفاعل المباشر كما تحدث فى المسرح إنما هو تحليل ضيق، فى الوقت الذى يغفل من جانبه الإشارة إلى تلك الظروف التاريخية أو الإطارات التنظيمية[3].

مناقشة وتعقيب:

بداية، يمكن القول بوجود شبه اتفاق بين معظم الكاتبات الحديثة التى تناولت إسهامات المنظور التفاعلى الرمزى فى علم الاجتماع على تصنيف الانتقادات التى وجهت إلى ذلك المنظور، وصدرت أولاً ممن ينتمون إليه، وذلك بهدف محاولة تقييم ذاتهم وهى ما يطلق عليها «بالانتقادات الذاتية» In House Criticisms، بينما يشير النوع الآخر إلى تلك التقييمات التى صدرت من

---

(1) G. F. Tibbens, Pattern of Behaviour, London, Edward Arnold, 1979, P. 279.

(2) A. Gouldnar, Op. Cit: P. 383.

(٣) د. سمير نعيم أحمد، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

خارج هذا المنظور، وينتمى أصحابها إلى مدارس فكرية أخرى، ومن ثم يصفها البعض بأنها تقييمات موضوعية سواء على المستوى النظرية والمنهج أو التطبيق.

أما النوع الأول من هذه الانتقادات وتعبر عنها وجهة نظر «ميلتزر» B. N. Meltzer والذى وجه نقده إلى بعض المؤسسين لهذا المنظور من أمثال «جورج هربرت ميد»، وكذلك أيضاً وجهة نظر «برتيان» Abrittan فى نقده للمنظور بصفة عامة. حيث تتحد انتقادات «ميلتزر» التى وجهها إلى علم النفس الاجتماعى عند «هربرت ميد». فى أن ثمة مفهومات عديدة استخدمها ميد كانت تتسم بالغموض وذات تحديد غير واضح. منها على سبيل المثال «الدافع»، و«المعنى» و«العقل» و«اكتساب الدور»، و«الآخر المعمم»، «الأنا» حيث يتطلب فهمهما إدراكاً حدسياً، كما ترجع تلك الأخطاء التى تعانى منها نظريته إلى تجاهله للعناصر العاطفية واللاشعورية فى السلوك الإنسانى، كما أن نظريته قد أثارت بعض الصعوبات المنهجية التى يصعب بحثها واحتوت على أساليب غير واضحة، وهذا بالإضافة إلى أن تدعيمه لوضعه من الناحية الامبيريقية كان بسيطاً[1].

علاوة على ذلك، يرى «برتيان» أن التفاعلية الرمزية قد أكدت كثيراً على الوعى الذاتى والجوانب الشعورية، وأنها تجاهلت فى ذلك إلقاء الضوء على العوامل اللاشعورية وأثرها فى عملية التفاعل. كما أنها نظرت إلى كل من الحاجات الإنسانية والدوافع والمقاصد والمطامح، وذلك على اعتبار أنها مجرد تعبيرات مشتقة لبعض المقولات الاجتماعية المحددة والتى يتعذر تحليلها إمبيريقياً. هذا بالإضافة إلى أن التفاعلية الرمزية نظرت إلى العالم الاجتماعى باعتباره يساعد فقط فى تحليل الرموز، بالإضافة إلى أن معالجتها للتغير الاجتماعى والبناء الاجتماعى كانت بسيطة جداً مع تأكيدها الزائد على الموقف من وجهة نظرهم الخاصة، وتبنى معان ميتافيزيقية لبعض المفهومات.

---

(1) Ibid., PP. 83 - 84.

وبما هو جدير بالذكر توجد بعض الانتقادات الأخرى التى أثارها كل «كون» (١٩٦٤) M. H. Kuhn، «دينزن» (١٩٦٩) N. K.Denzin، و«هـال» (١٩٧٢) P. Hall فى شكل تعليقات. وفى هذا الصدد يشير «كـون» بعض الانتقادات النظرية والموضوعية حيث يرى أن التفاعلية الرمزية تعانى فى الحقيقة منذ فترة كبيرة مما يطلق عليه «بالتقليد الشفاهى» Oral Tradition. لأنها عالجت معظم الأفكار ببساطة على المستوى النظرى أو التعبيرى مع اهتمامها الضرورى بالحصول على الأشياء وذلك لتشييد نسق الأفعال والمعانى فضلاً عن، المناظرة الزائدة للتفسيرات الصحيحة والخاصة بهم، ومن ثم كانت أعمالهم تمثل دفاعاً عن أفكارهم، وذلك دون الاهتمام من جانبهم بمحاولة ترجمتها إلى بحوث خلاقة وذات فاعلية.

وكذلك، فإنه على الرغم مما يلاحظ منذ الأربعينات من تزايد ضخم مجال البحث والدراسة لهذا المنظور إلا أن ثمرة البحث فى تلك الفترة قد اتجهت لحو اختيار وتطوير بعض النظريات الفرعية مثال نظرية الذات والدور، ونظرية الجماعة المرجعية، ونظريات التوجيه اللغوى والثقافى لدى البعض من أمثال «سلفان H. S. Sullivan» وغيره، وكان ذلك بمثابة مصدر للغموض الذى أحاط بهم مما نتج عنه أيضاً عدم اتفاق فيما بينهم حول تحديد بعض المفهومات منها مفهوم الذات. ومن ثم فإنها فشلت فى محاولة تقديم صياغة تصورية ملائمة لتنوع العلاقات الوظيفية بين الذات والآخر، وبالتالى فإنه يجب عليهم أولاً الاتفاق فيما بينهم حول معنى المصطلحات وكيفية استخدامها وتحديدها بدقة للعلاقة بين الذات والآخر الأمر الذى يعد بدوره مطلباً ضرورياً لفهم الذات[1].

علاوة على هذا، يذكر «هال» أن التفاعلية الرمزية تتجاهل بعداً هاماً فى الحياة الاجتماعية وهو النسق السياسى، حيث إنها لم تكن على وعى بالعمليات السياسية، والبنية السياسية مثال عملية التصويب الانتخابى وغيره، ومن ثم تقوم وجهة نظره النقدية هذه على مناقشته لمفهوم المصلحة الذاتية إلا أنه فى الحقيقة لم يوضح هذا التطابق بين المصالح الذاتية ومصالح الطبقة، ولقد أثار ذلك المنظور

(1) Ibid., PP. 85 - 89.

التفاعلى بعض المشاكل المنهجية حيث أنهم فشل فى أن يحددوا وبوضوح بعض الإجراءات المنهجية نظراً لأن معظم الأنصار لم يكن لديهم وعى بالمسح وطرق التصميم التجريبى المستخدمة فى علم الاجتماع، وأنهم رفضوا هذه التقنينات ومن ثم استخدموا بدلاً منها الملاحظة بالمشاركة وتاريخ الحياة[1].

كما نجد أن النوع الثانى من الانتقادات الموضوعية الخارجية والتى قد صدرت من جانب بعض الباحثين الذين لا ينتمون إلى ذلك المنظور نفسه أو ممن هم غيرهم تفاعليين ينحصر بعضها فيما يراه « ميتشال» و«روبن» Michael. H. & Robein. H. فى أن أنصار التفاعلية الرمزية يهتمون بمحاولة فحص التفاعل الإنسانى دون أن يحاولوا ربطه بالجوانب الاجتماعية والتاريخية. وذلك لأنهم يتناولون بعض المواقف الخاصة مع إشارة بسيطة للإطار الاجتماعى الشامل الذى تحدث فيه، ومن ثم فإنهم تجاهلوا إدراك دور الأحداث التاريخية، وقد ذكر روبرت Robert فى نقده الموجه إلى «جورج ميد» بأن الأنشطة التى يرى من خلالها الناس لا تحدد تاريخياً علاقات الاستمرار التاريخى والاجتماعى وأنها فحسب تكون سلسلة من التفاعلات، والمواقف، والمواقف، والمقابلات[2]. وهذا مما جعل البعض ينظرون إليها فى معالجتها للمشكلات الاجتماعية على أنها قد جردتها من أصولها التاريخية ومراحل تطورها المختلفة، وأيضاً جردتها من نظمها الاقتصادية ومن ثم وصفت بأنها غير تاريخية، وغير اقتصادية[3].

وكذلك عبر عن تلك الفكرة السابقة «لويس كوزر» فى مؤلفه «رواد الفكر السوسيولوجى» حيث يذهب إلى أن أنصار التفاعلية الرمزية اهتموا بتناول الطرق التى يتفاعل فيها الإفراد وذلك دون اهتمامهم بالتحليل البنائى للسلوك والتفاعل ومحاولة دراسته فى ضوء البناء الاجتماعى والمناخ السوسيوثقافى فى المجتمع. وعبر عن ذلك أيضاً «جونسون تيرنو» J. Turner

---

(1) Ibid., PP. 90 - 96.

(2) Michael Harolambas & Robein Heald, Op Cit., P. 551.

(3) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P. 137.

فى قوله «يميل أنصار التفاعلية الرمزية إلى النظر للتفاعل الإنسانى وينظرون أيضاً للمجتمع فى ضوء استراتيجية التوافق وإعادة التوافق بين أدوار اللاعبين فى الفريق وبالتالى يتركز اهتمامهم على الطرق التى يتفاعل بها اللاعبون. ومن ثم فإنهم يتشابهون معهم»[1].

علاوة على ذلك، يذكر البعض الآخر أن أنصار التفاعلية الرمزية فشلوا فى تفسير مصدر المعانى التى يركزون على أهميتها وقدموا فى ذلك إشارة بسيطة لتلك المعانى التى يتميز فى ضوئها أولئك الإفراد مثال المدرسين ورجال البوليس. تلك المعانى التى لا توجد تلقائياً فى مواقف التفاعل المباشر، وذلك لأنها تظهر من خلال البناء الاجتماعى. حيث ترى الماركسية أن المعانى التى تحدث فى مواقف التفاعل المباشر تكون محصلة لعلاقات الطبقة، وبالتالى يمكن القول بأن أنصار هذا المنظور التفاعلى الرمزى قد فشلوا فى تفسير المنبع الأصلى لتلك المعانى.

ومما هو جدير بالذكر، تنطوى التفاعلية الرمزية على تحيز أيديولوجى واضح حيث تعكس تلك التغيرات التى حدثت فى المجتمع الأمريكى، وفى ذلك الصدد يرى «شاسكولسكى» L. Shaskolsky أنها تمثل علم الاجتماع الأمريكى وتعكس تلك المثل الثقافية السائدة فى ذلك المجتمع وتأكيده على الحرية والنزعة الفردية وهذا ما يفسر عدم ظهورها فى مجتمعات أخرى غير أمريكا، حيث أنها لم تجد تأييداً لها فى أوروبا وذلك نظراً لما يوجد فى تلك المجتمعات من وعى كبير بتحديد القوة وأبعاد الطبقة[2]. ونظراً لاختلاف مفهوم الطبقة فى أوروبا عنه فى أمريكا، فإن ذلك يبدو فى انعكاسه على نظريات المجتمع، حيث أن المجتمع الأمريكى ذات الطبيعة المرنة يمنع أن يصبح الانتماء الطبقى رمزاً للتفاخر، ومن ثم يؤكد على أن العامل الحاسم فى حياة الإنسان هو العمل من أجل إحداث حراك اجتماعى وتحقيق مزيد من الربح وبذلك يكون المتغير الهام فى المجتمع هو التغير ذاته، ذلك التغير المتأثر بالأفعال

---

(1) Lewis A. Coser, Masters of Sociological Thought, Op. cit., PP. 574.

(2) Michael Harolambas & Robein Heald, Op Cit., P. 552.

العقلانية للتفكير. ويبدو ذلك واضحاً فى تحليلها للصور أو الأشكال الرئيسية للجماعات التى يتكون منها المجتمع الأمريكى وبخاصة جماعات السود التى ينتمى إليها «الزنوج» Negro[1]. وبذلك فهى تتجاهل النظر إلى المجتمع باعتباره بناءاً طبقياً ومن ثم فهى تنطوى فى داخلها على تحيز ضد السلالة أو اللون وارتباطها بالنظرة التعددية للمجتمع[2]. والذى يتضح فى تفضيلها للديمقراطية الليبرالية التى تعبر عن الوضع الراهن آنذاك فى المجتمع الأمريكى المعاصر.

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، فإن التفاعلية الرمزية من الناحية الفلسفية تعبر عن تحيزها الواضح للفلسفة البراجماتية، والمثالية الألمانية، والتى قد استمدت أساسها منها، ويتضح ذلك فى تأكيدها على أهمية الجوانب الذاتية لخبرة الإنسان أو على تحديدات الموقف من جانب بعض أنصارها. وفى الوقت الذى تتجاهل فيه الحقائق الموضوعية فى المجتمع، ومن ثم فإنها تسهم فى تزييف الوعى الاجتماعى لأفراد وجماعات المجتمع، وكما يرى «هيوبر» Huper أن فى تأثرها بالفلسفة البراجماتية تكون بمثابة عمل «ابستمولوجى» Epistimology يعكس تحيز الباحث للناس الذى يلاحظ سلوكهم، وذلك لأن البراجماتية تجعل الصدق معتمداً على الفعل الإنسانى ويتحدد عن طريق ظهور وعى المشاركين فى موقف التفاعل، وهى بذلك لا تعطى للنظرية مكانة واضحة فى التفسير. هذا بالإضافة إلى أن ذلك المنظور قد فشل فى تجاهله الأنشطة المألوفة أو المتكررة وذات الطبيعة الروتينية فى الحياة اليومية[3].

كما يعد المدخل المسرحى عند «أرفينج جوفمان» فى النظرية السوسيولوجية والذى شبه فيه الحياة الاجتماعية بالمسرح، بمثابة مدخلاً لتحليل الدور وفهم شبكة العلاقات والتوقعات الاجتماعية لكل من الممثل على خشبة المسرح والمتفرجين من حوله. علاوة على هذا، فإنه على الرغم من تلك الهيمنة التى ينطوى عليها هذا المدخل المسرحى خاصة فيما يواجهنا من مواقف فى حياتنا اليومية. إلا انه من

---

(1) Larry T. Reynoblads, (et Ol), The Sociology Of Sociology, Op. Cit., PP. 18 - 19.

(2) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P. 143.

(3) Sheldon Stryker, Cit., P. 152

ناحية أخرى نجده فى مؤلفه الذى كان بعنوان «استراتيجية التفاعل» لا يأخذ معظم أمثلته التوضيحية من مواقف التفاعل المباشر وجهاً لوجه فى الحياة اليومية، ولكنه قد أخذها من عالم الترقب، وفرق التجسس، واللصوص والسجون. كما أن هناك تناقضاً أيضاً ينطوى عليه توضيحه لمدخله حيث نجده من ناحية يعلن عن بعض الصعوبات تجاه استعارته أو تشبيهاته، ومع ذلك يعود لكى يؤكد على أنها تتسم بالسهولة من ناحية أخرى[1].

(1) Irving M. Zeitllim, Op. Cit., P. 70 - 71.

الفصل السادس

الاتجاه الأثنوميثودولوجى

- مقدمـــة.

أولاً - تحديد مفهوم الأثنوميثودولوجى.

ثانياً - عوامل ظهور الاتجاه الأثنوميثودولوجى.

ثالثاً - موضوعات اهتمام الأثنوميثودولوجى وقضايا الأساسية.

رابعاً - العلاقة بين التفاعلية الرمزية والأثنوميثودولوجى.

- مناقشة وتعقيب.

الفصل السادس
الاتجاه الأثنوميثودولوجى(*)

مقدمـــة:

يتناول هذا الفصل الاتجاه «الاثنوميثودولوجى» باعتباره يمثل أحد الاتجاهات النظرية والمنهجية التى ظهرت فى إطار النظرية السوسيولوجية المعاصرة. حيث يهتم هذا الاتجاه بتناول الطرق والمناهج الشعبية التى يسلك بها الناس فى عالمهم الاجتماعى، وبهذا نجده يركز على تناول الواقع الاجتماعى كما يعيشه أعضاء وجماعات المجتمع فى سلوكهم وتفاعلاتهم مع بعضهم البعض ومقاصدها، وكيفية تفسيرهم لها فى سياقها الاجتماعى، والقواعد التى تحدد أو تحكم العلاقات والتفاعلات سواء كانت فى الأحداث والمواقف المتكررة أو المألوفة وغير المألوفة.

وفى ضوء ذلك، تناول هذا الفصل مناقشة مفهوم «الاثنوميثودولوجى» من مختلف وجهات النظر التى سادت بين الباحثين مركزاً بصفة خاصة على إسهامات «هارولد جارفينكل» باعتباره من رواد هذا الاتجاه. علاوة على، التعرض للأسباب التى أدت إلى ظهور الاتجاه الاثنوميثودولوجى فى النصف الثانى من القرن العشرين، ومحاولة تناولها فى ضوء الأزمة التى تعرضت لها نظرية علم الاجتماع وجاءت لأسباب متعددة كان أهمها إخفاقها فى التعامل مع المشكلات التى طرحها النسق الاجتماعى القائم آنذاك.

علاوة على ما سبق، عرض هذا الفصل للقضايا الأساسية التى يطرحها هذا الاتجاه، والموضوعات التى تمثل محور إهتماماته فى البحث والدراسة السوسيولوجية.

وأخيراً، تناول هذا الفصل بالتحليل العلاقة بين التفاعلية الرمزية والاثنوميثودولوجى باعتبارهما يمثلان بعض البدائل النظرية والمنهجية التى ظهرت فى إطار النظرية السوسيولوجية المعاصرة. وبالتالى جاء تناولنا لطبيعة العلاقة بينهما يركز على تناول جوانب الإتفاق والإختلاف بصدد تفسيرهما لطبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع وغير ذلك من قضايا وموضوعات. وبعبارة

★ أعد هذا الفصل د. السيد محمد الرامخ.

أخرى، يركز الفصل على تناولهما من حيث أوجه الشبه والإختلاف فى مناهج وطرق التحليل والتفسير للأفعال والأنشطة، والأدوات البحثية المستخدمة فى هذا الصدد، وموقف كل منهما من الاتجاهات النظرية والمنهجية التى سادت فى التراث السوسيولوجى، ومستويات التحليل.

أولاً ـ تحديد مفهوم الأثنوميثودولوجى:

عند محاولة تحديد المقصود بمفهوم الأثنوميثودولوجى نجد أن ثمة كتابات عديدة تنوعت فيما بينها وهى بصدد تحديد المقصود بذلك المصطلح، وذلك بتعدد الكتابات التى تناولت هذا الاتجاه. ومن ثم نجد أن بعض الباحثين فى علم الاجتماع يحددونه فى «اتجاه المنهجية الشعوبية»[1]. فى حين يحاول البعض الأخر تعريفه بمنهجية الجماعة، وذلك من خلال النظر إلى المصطلح Ethnomethodology على اعتبار أنه ينقسم إلى شقين الأول Ethno ويعنى جماعة أو سلالة قومية أو لغوية، والثانى Methodology ويقصدون به منهجاً. وبذلك فإنهم يرون من خلال إضافة الشقين إلى بعضهما يصبح معنى المصطلح منهجية الجماعة، وذلك على اعتبار أنهم يرون أن فى تحديدهم هذا يجعل معنى المصطلح أقرب إلى طبيعة الدارسة فى علم الاجتماع. ومن هنا نجد ثمة اختلاف واضح بين كلتا المحاولتين، ويؤسس أنصار المحاولة الأخيرة دعواهم فى الاختلاف مع أصحاب الرأى الأول على أن تحديد المصطلح بالمنهجية الشعوبية يجعل منهج هذه الدراسة أقرب إلى دراسة الفلكلور منها إلى علم الاجتماع[2].

علاوة على ذلك، نجد أن هناك فريق ثالث يحدد المقصود بذلك المصطلح فى «مسلمات الحس المشترك أو الذوق العام» Commonsense Assumption التى يستخدمها الناس لتقودهم فى حياتهم اليومية، ومن ثم نجد أنهم يعتبرون علماء الأثنوميثودولوجى هم أيضاً علماء اجتماع يدرسون الطرق التى يشيد بها الناس عالمهم الاجتماعى ويدعمونه ببعض المسلمات وتلك الأدوار. ومن

---

(١) د. سمير نعيم أحمد، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

(٢) د. أحمد زايد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١، ص ٤٤١.

ناحية أخرى نجدهم يعتبرون علماء هذا الاتجاه وجوديين أصلاً، ومبررهم فى ذلك أنهم يشتركون مع الوجوديين فى موقفهم الذى ينظرون من خلاله إلى الناس على أنهم يتقابلون معاً من خلال«ذواتهم» Selves ويتغيرون بأنفسهم[1].

وأخيراً، عند التعرض لمناقشة جارفينكل باعتباره من رواد هذا الاتجاه فى تحديد المقصود به، نجده يطرح سؤلاً عن ماهية هذا الاتجاه وما المقصود به؟ ثم يحاول أن يعرض الإجابة عليه من خلال تقديم أربعة تعريفات أساسية:

ففى التعريف الأول: يشير جارفينكل إلى أن دراسات الأثنوميثودولوجى تتضمن تحليل الأنشطة التى يقوم بها الأعضاء فى الحياة اليومية والطرق التى يسلكونها أيضاً فى مثل هذه الأنشطة الظاهرة، ومن ثم تتجه هذه الدراسة نحو التعرف على كيفية قيام الأعضاء بالأنشطة الفعلية والمألوفة، وكذا المعرفة الواضحة بالأبنية الاجتماعية، واكتشاف الخصائص الشكلية للأفعال الملموسة والمألوفة من الداخل. ومن ثم يقوم هذا التعريف على الاقتناع بان معظم أنشطة التفاعل الاجتماعى المألوفة والتى تحدث فى الحياة اليومية إنما تتميز بخاصية التنظيم والتنسيق.

أما فى التعريف الثانى له نجده يحدد المقصود به من خلال موضوعات اهتمامه التى تتحدد فى معالجة الأنشطة والوقائع الملموسة، وكذلك الأوضاع السوسيولوجية، وذلك باعتبارها تمثل موضوعات للدراسة الامبيريقية. ومن ثم فإنه كثيراً ما يهتم بالأنشطة المألوفة فى الحياة اليومية، وعادة ما يسجل أيضاً الأحداث غير المألوفة وذلك بهدف التعرف عليها كظاهرة واكتشاف بعض القواعد التى يحكمها، وبذلك نجده يركز فى هذا التعريف على محاولة رفض ما يحدث فى بعض التحليلات السوسيولوجية من تمييز بين الأنشطة المرئية والواضحة، وبين تلك الأحداث الاجتماعية والأنشطة العادية فى الحياة الاجتماعية، وذلك لأن كل منهما ذات أهمية متساوية باعتبارهما موضوعات للدراسة فى هذا الاتجاه الأثنوميثودولوجى.

---

(1) D. J. Sternberh, Radical Sociology: An Introduction to American Behavioral Science, N. Y, Hicksville, 1977, P. 201.

وكذلك فى التعريف الثالث يحدد المقصود بذلك الاتجاه بالبحث فى الخصائص المنطقية «للتفسيرات الدالة» Indexical وغيرها من الأفعال الملموسة فى الحياة اليومية. ويعتمد هذا التعريف على محاولة التمييز بين نوعين من التفسيرات الهامة فى التفاعل الاجتماعى. أحدهما هو التفسيرات الدالة التى تشير إلى وصف الموضوعات فى ضوء خصوصيتها والتى ترتبط بالسياق التى تستخدم فيه، والآخر هو التفسيرات الموضوعية والتى تشير إلى وصف الخصائص العامة لبعض الموضوعات مثال «النمطى» Typical، والنمط الواحد. ويلاحظ أن ذلك التمييز إنما يرتبط بما ذكره جارفنيكل فى التعريف الأول من تمييز بين الأنشطة المألوفة. وغير المألوفة. وأخيراً يحدد جارفنيكل الأثنوميثودولوجى فى انه يشير إلى دراسة الأفعال الملموسة وذلك طبقاً لسياقها، فضلاً عن، تتبع الظاهرة والنتائج والطرق التى تصاحب استخدامها.

وثمة ملاحظة على تلك المحاولات نجد أنها تتنوع فيما بينها فى محاولة تحديد المقصود بالأثنوميثودولوجى، ومن ثم نجد أنه من الجدير بالملاحظة الاحتفاظ بكتابة المصطلح «الأثنوميثودولوجى» كما هو الحال بالنسبة لبعض المصطلحات الأخرى فى علم الاجتماع وغيره مثال السوسيولوجى والسيكولوجى أو الإثنوبولوجى[(1)].

ثانياً ـ عوامل ظهور الاتجاه الأثنوميثودولوجى:

تجمع معظم الكتابات التى تناولت هذا الاتجاه على أنه ظهر فى الستينات من القرن العشرين، وذلك مع نشر كتاب جارفينكل بعنوان «دراسات فى الأثنوميثودولوجى» Studies in Ethnomethodology (١٩٦٧) حيث تناول الفصل الأول من هذا الكتاب تحديد المقصود بالمصطلح، وكان هذا الكتاب – على حد وصف البعض له – من أكثر الكتب صعوبة نظراً لصعوبة الأفكار التى يتناولها، هذا بالإضافة إلى أن اللغة التى استخدمها فى التعبير عن تلك الأفكار غير المألوفة كانت على مستوى كبير من التعقيد. وعلى الرغم من أن الأفكار التى يقوم عليها

(1) Paul Filmer, (et. Ol), New Direction in Sociological Theory, Massachettes, The Press Cambridge, 1973, PP. 206, 209.

هذا الاتجاه تكون ذات تاريخ طويل فى علـم الاجتمـاع، إلا أنـه يعتـبر مـن أحـدث الاتجاهات النظرية والمنهجية التى ظهرت فى نظرية علم الاجتماع.

ومما هو جدير بالذكر، يعتبر أنصار الاثنوميثودولوجى(*) حتى اليـوم قلـة من حيث العدد، إلا أن أفكارهم ينظر إليها على أنهـا ذات طبيعـة - راديكاليـة - متميزة عن غيرها. ويعنى هذا الاتجاه بدراسة الطرق أو الوسـائل، والإجـراءات التى يستخدمونها أعضاء المجتمع فى توضـيح معنـى عـالمهم الاجتمـاعى الـذى يعيشون فيه فيما يقومون به من أنشطة مألوفة وأخرى غير مألوفة.

وينظر أنصار الأثنوميثودولوجى إلى المجتمع على أنه ذات وجود قائم ومن ثـم فـإنهم يسـتبدلون مصـطلح الفاعـل عنـد التفـاعليين الرمـزيين بمصـطلح العضوية، وفى ذلك تأكيد على وجهة نظر الأعضاء للواقع الاجتمـاعى[1]. كمـا أن هذا الاتجاه يعد بمثابة إطار مرجعى بديل للبنائية الوظيفية حيث انه يعتبر أن ممارسة الحياة اليوميـة مـن خـلال الوسـائل التـى يشـيد بهـا الفـاعلين عـالمهم وواقعهم الاجتماعى أمراً مشكلاً، وذلك على عكس الوظيفة التـى تسـلم بهـا على أنها أمراً معطى[2].

★ يعتبر «هارولد جارفينكل» هو قائد هذا الاتجاه، فقد تخرج من جامعة كاليفورنيا فى لوس انجلوس Los Angeles وذلك فى عام ١٩٤٥. ومن هذا المكان قاد جماعة مـن المفكـرين الـذين يعتـبروا مـن أنصـار الاتجـاه الأثنوميثودولـوجى.مـنهم آرون سيكوريل Aron Cicourel الذى أسهم فـى توضـيح بعـض الجوانـب المتصـلة بسلوك الناس وغيره، وكيف أنهم يستخدمون قواعد تعمل على ضبط سلوكهم وسلوك الآخـرين، وكـذلك يعتـبر هـارى سـاكس Harvey Sacks وايمـا نويـل شيجالوف Enannel Schegaloff، وكذلك ماتيو سبير Matgew Speier ودافيد شادنو David Sadnow من مؤسسى هذا الاتجاه وذلك نظـراً لما قـاموا بـه مـن دراسات وأبحاث امبيريقية حول بعض الصفات التـى توجـد فـى عمليـة تبـادل الحديث بين الأفراد فى حياتهم الاجتماعية اليومية مع ربط ذلك بفكرة التنظيم الاجتماعى (اعتمدنا فى هذا على: زينب شاهين، الأسس العامة لاتجـاه الواقعيـة المنهجية، مع دراسة لمفهوم الزواج والأمومة عند المـراة المصـرية، رسـالة دكتـورة، تحت أشراف أ. د. محمود الجوهرى، جامعة القاهرة، ١٩٨٢، ص ٧٣.

(1) Michael Harolambas & Robein Heald, Op Cit., P. 552.

(٢) د. محمد على محمد، التفاعلية الرمزية فى علم الاجتماع المعاصر، مرجع سـابق، ص ٦٢.

ومن بين العوامل إلى ساعدت على ظهور هذا الاتجاه انهيار البنائية الوظيفية التى كانت مسيطرة على علم الاجتماع الأمريكى فى حقبة الستينات من القرن العشرين، وكذلك التناقض الذى ظهر واضحاً بين النظرية والواقع فى المجتمع الأمريكى. وإدراك الإفراد لتلك التناقضات القائمة فى المجتمع والتى يتمثل بعضها فى محاولة التأكيد على السلام وتحقيق العدالة من جانب السلطة الحاكمة، فى الوقت الذى كان يسود فيه بعض ظواهر - التمييز بين البيض والسود - منها التفرقة العنصرية بين جماعات السكان وانتشار البطالة فيما بينهم.

كذلك أيضاً، تعتبر تلك الأزمات السياسية والأخلاقية التى تعرض لها المجتمع الأمريكى من بين عوامل ظهوره، هذا فضلاً عما تعرض له ذلك المجتمع من حروب ومشاكل اقتصادية وسياسية ودينية، وذلك بالإضافة إلى عجز تلك العلوم المهتمة بدراسة الإنسان والمجتمع آنذاك عن تقديم فهم عميق لتلك الظواهر الاجتماعية.

ومن ناحية ثالثة إخفاق الفلسفات الفينومينولوجية والوجودية وغيرها محاولة فهم الأمر إلى دفع بكثير من المفكرين آنذاك على ضرورة تقييم تلك النظريات التى أعلنت انفصالها عن الواقع الاجتماعى فى ذلك الوقت.

وأخيراً، كان من بين عوامل ظهوره، رفضه للمسلمات التى تقوم عليها النظريات الوضعية بأشكالها المختلفة والتى تدور حول الإنسان والمجتمع مع محاولة تقديم أطر تصورية ومنهجية بديلة لها. حيث شكلت هذه العوامل جميعها المناخ المناسب لظهور هذا الاتجاه[1].

ثالثاً ـ موضوعات إهتمام الأثنوميثودولوجى وقضاياه الأساسية:

يذكر «فيلمر» Filmer أن الاتجاه الأثنوميثودولوجى «يسعى إلى دراسة النشاطات المألوفة تلك التى يقوم بها الأفراد فى حياتهم اليومية. وكذلك التعرف على ما يتعرضون له من مواقف فى حياتهم الاجتماعية والتى تكون لها

(١) زينب شاهين، الأسس العامة لاتجاه الواقعية المنهجية، مع دراسة لمفهوم الزواج والأمومة عند المرأة المصرية، مرجع سابق، ص ص ٥٦ - ٥٨.

دلالتها السوسيولوجية. وذلك بهدف الكشف عن تلك الطرائق التى يسلك بها الأعضاء فى هذه الأنشطة المألوفة والمتكررة وغير المألوفة»، حيث يستخدم هنا جارفينكل مفهوم «الدلائل» Indexicality وذلك لتوضيح أن أفعال الأفراد وتصرفاتهم هى نتاج للمواقف الاجتماعية التى يصنعوها، أو هى بمثابة مؤشرات على تلك الظروف التى تنشأ فيها أحداث الحياة اليومية. حيث أنه فى مناقشته لذلك المفهوم قد اهتم بالطبيعة النوعية لمثل هذه الأحداث والظروف والسياقات التى تحدث فيها[1].

وفى الواقع، فإن الأشخاص يقومون بمزاولة نشاطاتهم العادية ويؤدونها بطريقة مألوفة التكرار، وذلك كما لو كان يحكمها قانون ضمنى غير مكتوب، ذلك القانون الذى يتمثل فى تلك الأوصاف الذى ينقلها الناس إلى بعضهم البعض فى إطار حديثهم عن بعض هذه الأنشطة، وذلك لأن تكرار نشاطاتهم المألوفة هذه إنما يستند أيضاً إلى الفهم الشائع أو المشترك فيما بينهم، وأن أى محاولة لدراسة تلك الأنشطة غير العادية أو غير المألوفة والتى تنجم أساساً عن الخروج على ما هو مألوف. إنما يساعد ذلك على اكتشاف تلك القواعد التى تحكم التفاعل الاجتماعى بين الناس فى الحياة الاجتماعية[2]. ويتضح الفهم المشترك أو الشائع بين الإفراد وذلك فما أشار إليه «جارفينكل» عند استخدمه لمفهوم «العضوية» Membership بدلاً من الفاعلين والذى تنبع فكرته أساساً من القضية الاثنوميثودولوجية حول السلوك الاجتماعى. وذلك حيث يفترض الأعضاء جميعاً أن عالمهم الاجتماعى يكون ذات حقيقة واقعية وأنهم جميعاً يكون لديهم خبرة وفهم مشترك بالمجتمع الذى يعيشوا فيه[3].

ومما هو جدير بالذكر، يرى «جارفينكل» أنه عند البدء بدراسة الحياة اليومية لابد من الاهتمام بالمحتوى الذى يشير إلى الظروف التى تفسر الأحداث الاجتماعية وتلك التى يختارها الأعضاء بأنفسهم. ومن ثم فإن الأفراد لا يفصلون بين الظروف الخاصة بالأحداث وبين وصفهم لطبيعة الأحداث.

---

(1) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P:,P. 76, 129.

(٢) زينب شاهين، مرجع سابق، ص ٧٥ – ٧٦.

(3) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P. 131.

وذلك لأنهما يكونان متلازمين وبمثابة تكوين متبادل يفيد فى تكامل الظروف عند وصف الأحداث الاجتماعية، وهذا هو ما يعنى به «جارفينكل» حينما يستخدم هنا مفهوم «الانعكاس» Reflexivity وذلك للإشارة إلى ما يوجد من إحساس مشترك لدى الأعضاء فى المجتمع يتحدد فى ضرورة الاهتمام المشترك من جانبهم بالأشكال أو الصور الخاصة بالسياقات التى تحدث فيها تلك الأحداث والفعال الاجتماعية[1].

وفى ضوء ما سبق، نجد «جارفينكل» يؤكد على ضرورة تكامل الظروف فى تفسير الأحداث وضرورة ربطها بسياقها، وعلى ذلك الواقع الكيفى، وبالتالى فإنه يوجه نقداً إلى الاتجاه الكمى الذى يعتمد أساساً على البيانات الإحصائية فى دراسته ذلك الاتجاه الذى سبق أن استخدمه «دوركايم» فى دراساته عن الانتحار، والذى اعتمد فيه على البيانات الإحصائية من السجلات الرسمية لدى بعض الأجهزة والمسئولين فى هذه الجهات الرسمية عن تصنيف حوادث الوفاة، والتى تعتمد أساساً على تقديرهم الشخصى للموقف ومن خلاله يعملون على استنتاج بعض أسباب الوفاة من خلال معرفتهم بذلك المجتمع[2].

علاوة على ذلك، يحاول أيضاً الاتجاه الأثنوميثودولوجى تقديم تفسير للواقع الاجتماعى ومشكلة النظام الاجتماعى السائد فيه أيضاً. وبذلك فإنه يسلم منذ البداية بأن الواقع الاجتماعى إنما ينبثق من خلال ارتباطه بالأوضاع الخاصة لأعضاء المجتمع داخل الإطار الاجتماعى والثقافى الأوسع الذى يعيشون ويتفاعلون فيه. وبالتالى فإن الواقع الاجتماعى يتسم بالدينامية، وأنه قد تشكل عن طريق الأفراد ومن خلال الطرق والأساليب التى يستخدمها الناس فى ممارساتهم للأنشطة، وأيضاً من خلال التفسيرات التى ينسبها الناس لأنماط سلوكهم فى عملية التفاعل الاجتماعى[3].

---

(1) Ibid., P. 130.

(٢) زينب شاهين، مرجع سابق، ص ٧٩ - ٨٠.

(3) B. N. Neltzer, (et. Ol), Op. Cit., P. 79.

أما عن إهتمامه بتفسير مشكلة النظام الاجتماعى فنجد أن الاتجاه الأثنوميثودولوجى يعالجها على نحو مغاير تماماً لكل من وجهتى النظر الوظيفية والماركسية الكلاسيكية. فالوظيفية قد نظرت إلى النظام الاجتماعى على انه ينبع من المتطلبات الوظيفية للأنساق الاجتماعية، وأنه فى الوقت ذاته يعتبر ضرورياً لوجود هذه الأنساق واستمرارها فى حالة الثبات. وفى مقابل ذلك تنظر الماركسية إلى النظام الاجتماعى على أنه متغير أو غير مستقر. وانه يمكن إدراك وجوده وذلك من خلال تحديد البناء الفوقى لتلك الأوضاع التى يشغلها أعضاء المجتمع فى علاقات الإنتاج، بينما ترى التفاعلية الرمزية أن النظام الاجتماعى ينتج عن استخدام الفاعلين للإجراءات المفسرة فى مواقف التفاعل، وبذلك نجد أن جميع وجهات النظر السابقة تؤكد على وجود النظام الاجتماعى إلا أنها تختلف فيما بينها فى النظر إلى طبيعة ذلك النظام. ومن ثم يعبر الاتجاه الأثنوميثودولوجى عن وجهة نظره حول النظام الاجتماعى على أنه ليس له وجود فعلى لأنه يكون محكوم بطبيعة القواعد المعيارية والتى ترتبط بالمواقف التى تظهر فيها وتتغير أيضاً طبقاً لتغيرها[1].

وأخيراً يتخذ «جارفينكل» من العقلانية العلمية موقفاً معارضاً وعلى الأخص عند محاولة تطبيقها على الحياة اليومية، وذلك نظراً لما يراه من وجود إختلافات جوهرية بين كل منهما حيث أنه من الصعوبة بمكان وضع التفاعل الاجتماعى الدينامى فى مفهومات ذات تحديد صارم ولا تتسم بالمرونة، ومن ثم فإنه يجب على الباحث أن يستخدم فى موضوع بحثه أسلوب ولغة الحديث اليومية تلك التى يستخدمها الأفراد فى حياتهم اليومية. ومن هنا يؤكد على ذلك الدور الذى تقوم به لغة الحياة اليومية فى تشكيل الواقع الاجتماعى وبذلك يصبح العالم الاجتماعى بالنسبة للاثنوميثودولوجى هو عالم الحياة اليومية بكل ما يظهر فيه من أحداث ومواقف فى إطار سياقها الاجتماعى والثقافى التى تحدث فيه[2].

علاوة على ذلك، ففى معالجة الاتجاه الأثنوميثودولوجى لتلك الموضوعات التى تمثل قضاياه الأساسية فى الدراسة فإنه يقدم بعض الاعتبارات المنهجية

(1) Michael Harolambās & Robein Heald, Op Cit., P. 552 - 553.

(٢) زينب شاهين مرجع سابق، ص ٩٦ – ٩٧.

تلك التى يجب على الباحث الاثنوميثودولوجى إتباعها عند معالجته للظواهر الاجتماعى وهى: ضرورة معالجتها على أنها غريبة عليه وغير مألوفة بالنسبة له. وكذلك أيضاً عند معالجته لظاهرة الفهم الشائع فى المجتمع يجب عليه معالجة الواقع الاجتماعى وظواهره المنظمة له من خلال حقيقة أساسية هى: أن الأفراد هم الذين قد أسهموا فى تشكيل هذا الواقع الاجتماعى، وكذلك أيضاً عليه النظر إلى وصف الحياة الاجتماعية وانتظامها فى ضوء إتباع قواعد معيارية، مع التركيز على تلك الطرق والأساليب التى يستخدمها أعضاء الجماعة فى تفسير وتبرير ما يواجههم من مواقف اجتماعية مختلفة فى حياتها اليومية(١).

وأخيراً على الباحث ضرورة استخدام استراتيجية منهجية تتحدد فى «أسلوب التوثيق التفسيرى» The Documentary Method of Interpretation الذى يشير إلى تلك الطرق التى يسلكها الأعضاء ومن خلالها يتوافر لديهم أحساس ببيئتهم الاجتماعية التى يعيشون فيها، وهذا هو الذى يجعلهم فى النهاية يكونون ما يطلق عليه بالحس المشترك. ومن ثم يرى كل المشاركين فى هذه العملية أفعال كل شخص آخر وذلك على أنها تعبيرات عن أنماط، تلك الأنماط التى تمكنهم من رؤية ما هى الفعال؟ وماذا تكون؟ ويكون التفسير أيضاً لدى الباحث الأثنوميثودولوجى بناء على ما هو معروف لدى كل أعضاء المجتمع فى حياتهم اليومية، وفى السياقات التى حدثت فيها تلك الأحداث والمواقف الاجتماعية المختلفة(٢).

علاوة على ذلك، يمكن للباحث الأثنوميثودولوجى الاستعانة أيضاً ببعض الأدوات مثل أسلوب الملاحظة بالمشاركة فى توضيح الجوانب الخاصة بالأنشطة المألوفة وغير المألوفة التى يمارسها الأفراد فى حياتهم اليومية، وكذلك استخدام المقابلة المتعمقة والتى تفيد فى التعرف على المعنى الذاتى الخاص بالأفراد فى مواقف الحياة اليومية وذلك على إعتبار أن هذا المعنى الذاتى هو محل اهتمامهم مع الاحتفاظ أيضاً باستخدام أسلوب المقابلة المفتوحة. وذلك

(١) زينب شاهين، مرجع سابق، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(2) Douglas Benson & John A. Hughes. Perspectives of Ethnomethodology, N. Y., Longman, Inc, 1983, P. 90.

نظراً لما يحدث فيها من اختلاف فى الأسلوب اللغوى، وفى تعبيرات الوجه بالنسبة للمبحوث[1]. مع مراعاة محاولة التغلب على ما يواجه الباحث فى ذلك من كيفية الاحتفاظ بالانطباعات، وذلك من خلال استخدامه أشرطة واسطوانات التسجيل المسموعة والمرئية للراديو أو الكاسيت والفيديو حتى يمكن له سماعها ومشاهدتها مرة أخرى، والتى تساعده على عملية الوصف والتحليل والتفسير وفهم ما يتضمنه الموقف من معان مختلفة[2].

رابعاً ـ العلاقة بين التفاعلية الرمزية والإثنوميثودولوجى:

يمكن لنا فى البداية تلخيص محور اهتمامات كل منهما بصورة سريعة وموجزة حتى نتمكن من تناول ما يوجد بينهما من جوانب اتفاق واختلاف حيث أتضح تركيز التفاعلية الرمزية فى دراستها على العلاقة بين الفرد والمجتمع، ونظرت إليهما باعتبارهما وحدتين متلازمين وغير منفصلتين، ولذلك فإن محاولة فهم أحدهما إنما تحتم أو تتطلب ضرورة فهم الأخر، ومن ثم ترى ضرورة النظر إلى الفرد فى ضوء علاقته التفاعلية بالجماعة، ولقد عبر أنصار هذا الاتجاه - من أمثال كولى وبلومر وميد وتوماس وغيرهم - عن أفكارهم فى بعض القضايا الأساسية التى تتحدد فى أن الكائنات الإنسانية إنما تتفاعل تجاه الأحداث والأشياء فى ضوء المعانى الظاهرة لها، وتعتبر تلك المعانى بمثابة محصلة لما يحدث من تفاعل اجتماعى بين أعضاء الجماعات الاجتماعية التى يتكون منهم المجتمع، كما أن هذه المعانى تتغير أو تتعدل من خلال عملية التفسير أو الفهم التى يستخدمها كل فرد أو جماعة فى تعامله مع الرموز من خلال الموقف.

ولقد حاول معظم أنصار التفاعلية الرمزية التأكيد على عملية الفهم أو التغير، بحيث عملوا على بلورة بعض الأساليب البحثية التى تتحدد فى التأكيد على أهمية استخدام الأسلوب الكيفى فى الدراسات السوسيولوجية، والاستعانة بطريقة دراسة الحالة، واستخدام أداة الملاحظة بالمشاركة، محاولين فى ذلك الابتعاد

---

(١) نادية محمد عمر، الاتجاه الفينومينولوجى فى علم الاجتماع، رسالة ماجستير، تحت أشراف أ. د. محمد عاطف غيث، أ.د. محمد على محمد، مكتبة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ص ١٦٣ - ١٦٤.

(2) Douglas Benson & John A. Hughes. Op. Cit., PP. 186 - 187.

عن استخدام لغة الأرقام، والتى يتم الحصول عليها من سجلات ومصادر رسمية لا تكشف فى النهاية عن طبيعة الواقع الاجتماعى الذى جرت فيه الأحداث.

كما ظهرت الاتجاه الأثنوميثودولوجى على يد «جارفينكل» وأكد على ضرورة دراسة لغة الحياة اليومية وما تقوم به من دور فى تشكيل الواقع الاجتماعى، معتمداً فى هذا على أسلوب التوثيق التفسيرى، وتتضمن الدراسات الاثنوميثودولوجية تحليل الأنشطة والأفعال التى يقوم بها الأعضاء فى حياتهم اليومية، والطرق التى سلكوها فى القيام بمثل هذه الأنشطة ولقد عمل أنصار هذا الاتجاه الكيفى على محاولة التعرف على البنية الاجتماعية واكتشاف خصائص الفعال الملموسة والمألوفة من الداخل كما هى بقصد التعرف أو التوصل فى النهاية إلى القواعد التى تحكم الأعضاء فى أداء هذه الأنشطة سواء كانت مألوفة أو غير مألوفة.

وتتحدد الأفكار الأساسية للاتجاه الأثنوميثودولوجى فى مجموعة من المفاهيم هى: «الدلائل» الذى يوضح أن أفعال الأفراد وتصرفاتهم فى حياتهم الاجتماعية اليومية، تعد بمثابة نتاجاً للظروف التى أحاطت بالمواقف الاجتماعية التى يصنعونها، ومفهوم «العضوية» الذى يفترض أن الأعضاء ينظرون إلى العالم الاجتماعى باعتباره ذى حقيقة واقعية، حيث لديهم فكرة أو خبرة وفهم مشترك بالمجتمع الذى يعيشون فيه، ومن ثم يدور هذا المفهوم حول سلوك الأعضاء وما يوجد بينهم من فهم شائع يشتركون فيه جميعاً، كما يعد مفهوم «الانعكاس» من بين هذه المفاهيم الذى يؤكد على ضرورة الأخذ فى الاعتبار ذلك السياق، أو ما تعكسه تلك الظروف التى تحدث فيها الأحداث اليومية والأفعال الاجتماعية عند محاولة تفسيرها، حتى يمكن تفادى أو تجنب ما يحدث فى حالة الاعتماد على البيانات الإحصائية المأخوذة من السجلات، والتى غالباً ما تصنف فى فئات لا تتفق أحياناً مع تلك الظروف التى أحاطت بالمواقف الاجتماعية ووقعت فيها الأحداث.

ولقد حاولت كتابات عديدة تحديد العلاقة بين التفاعلية الرمزية والإثنوميثودولوجى، حيث أشارت بعضها إلى جوانب الاتفاق فيما بينها منها

على سبيل المثال دون الحصر دنيز (١٩٦٩)، درتيزل (١٩٧٠)، بيتر وميلتز (١٩٨٣) ولاس (١٩٦٩)، ورشهاى (١٩٧١)، وأشار البعض الآخر إلى جوانب الاختلاف منها أيضاً ديتشر (١٩٧٣)، دوجلز (١٩٧٠)، وهينكل (١٩٧٢)، وزيمرمان (١٩٧٠). ولقد كتب «والاس» Wallace مؤكداً على أن الأثنوميثودولوجى يتضمن تصوراً نظرياً ومنهجياً وبذلك فإنه يكون تفاعلية رمزية واضحة[1].

وفى الواقع، يبدوا ذلك التشابه بين أنصار كل منهما فى الاهتمام معاً بدراسة التفاعل الاجتماعى والشخصى، ونظرتهما إلى الفعل الاجتماعى على أنه يتكون من معان متصلة بنشاط الأشخاص، والتى تتضمن عملاً تفسيرياً مشتركاً[2]. ويذكر كروشيل Chruchill حول تلك العلاقة بين التفاعلية الرمزية والأثنوميثودولوجى من خلال طرح تساؤل مؤداه: كيف يحدث النشاط الاجتماعى؟ ويرى أن الإجابة على ذلك السؤال تتطلب البحث فى العمليات التى نفهم من خلالها العالم عن طريق اختيار السلوك على المستوى الشعور، هذا فضلاً عن، دراسته على المستويات الهامة والمسلم بها.

وفى ضوء ما سبق، يرى «فيلمر» اتفاق كل منهما حول موضوع الدراسة الذى يتمثل فى الاهتمام بأنشطة الحياة اليومية ويفرض على أصحاب الاتجاه الأثنوميثودولوجى بالطبع ضرورة دراسة أنماط التفاعل الاجتماعى التى تنبثق عنها الأنشطة، حيث إن التفاعلات هى التى تجعل المواقف الاجتماعية فى الحياة اليومية مفهومه ويمكن تفسيرها، ومن ثم تتحدد مهمة علم الاجتماع فى دراسة كل مظاهر نشاطات الحياة اليومية، كما يبدو الاتفاق فيما بينهما من حيث الاعتماد على منهج الاستبطان التعاطفى مع استخدام الملاحظة بالمشاركة[3].

علاوة على ذلك، يؤكد أنصار الاتجاه الإثنوميثودولوجى فى كثير من المواقف على أهمية الدور التاريخى فى السلوك الإنسانى فى مقابل اهتمام كثير من أنصار التفاعلية الرمزية بكل من الوقت والمكان والموقف. كما يتضح

(1) B. N. Neltzer, (Et. Ol), Op. Cit., P. 75.

(2) Payne & Cuff, Op. Cit., P. 125.

(3) B. N. Meltzer, (et. ol), Op. Cit., PP. 78 - 80.

الاتفاق فيما بينهما فى اتخاذ كل منهما موقفاً نقدياً من النظريات الوضعية وأشكالها المختلفة التى تكون ممثلة للاتجاه الكمى «الإحصائى»[1].

حيث يرى أصحاب الاتجاه الإثنوميثودولوجى أن الأشخاص القائمين بالإحصائيات الرسمية يعملون على تصنيفها فى قوائم محددة غير واضعين فى اعتبارهم تلك الظروف التى تحدث فيها المواقف والأحداث. وبذلك فإنهم يعملون على تصنيف أنماط السلوك الإنسانى فى قوالب جامدة لا تتصف بالمرونة، ومن ثم فإنهم فى عملهم هذا إنما يفتقرون إلى المعرفة بالحس المشترك أو «الذوق العام» Common Sense الذى يعيش فيه الأعضاء هذا إلى جانب أن لغة الحديث اليومى وسياقها التى تحدث فيه المواقف إنما يكون مفقوداً أيضاً[2].

ولقد دفع هذا أصحاب الاتجاه الأثنوميثودولوجى إلى استخدام مصطلح «حسب اللزوم» Ad Hoc والذى يعنى عدم تقيد الباحث الإثنوميثودولوجى بمقولات أو فئات جامدة يصنف تحتها أنماط السلوك الإنسانى فى تفاعل الإنسان مع أقرانه خلال حياته اليومية. وإنما يترك للباحث الحرية فى تحديد نوع الفئة كما يراها، وتحديد الظروف التى حدثت فيها بالفعل حتى يمكن له فى النهاية أن يحكم على نمط هذا السلوك[3].

كذلك، أكد أنصار التفاعلية الرمزية على رفضهم للاتجاه الكمى، ومن ثم نظروا إلى الفعل الاجتماعى على أنه عملية خلق متبادلة نتيجة لتفاعل «الذوات» Selves، مع بعضها البعض، وبذلك فالناس يشيدون عالمهم الاجتماعى من خلال استخدامهم للفهم مع الوضع فى الاعتبار المعنى عند القيام ببعض الأفعال. لذلك نجدهم يؤكدون على التصورات والمفاهيم «ذوات الحساسية»، وبناء على ذلك قد رأى أنصار كل منهما ضرورة الاتجاه نحو استخدام الأسلوب الكيفى الذى يسعى إلى دراسة الحياة الاجتماعية اليومية من

(١) د. أحمد زايد، مرجع سابق، ص ٤١٣.

(2) Douglas Benson & John A. Hughes. Op. Cit., P., P. 12, 13, 24.

(3) Ibid., P. 197.

وجهة نظر الأشخاص المشاركين فيها، ومحاولة فهمها من الداخل وضرورة توحد الباحث مع ما يدرسه[1].

كما تشير بعض الدراسات السوسيولوجية إلى الاتفاق بينهم عند النظر إلى علاقة الاعتماد المتبادل بين الفرد والمجتمع، وعدم إمكانية الفصل بينهما، ونظرتهما للمجتمع باعتباره نشاطاً اجتماعياً مستمراً لتفاعلات اجتماعية مختلفة، وليس على أنه نسق ذى بناء ثابت. كما يؤكدان على النظر إلى التفاعل الاجتماعى بين أعضاء الجماعات فى المجتمع خلال حياتهم اليومية وذلك باعتباره وحدة للتحليل فى علم الاجتماع، والذات الاجتماعية كموضوع للدراسة أيضاً[2].

وعلى الرغم مما يوجد بينهما من اتفاق حول أهمية الدور الذى تقوم به اللغة فى حياتنا الاجتماعية، إلا أن التفاعلية الرمزية لم تقم بدراستها فى حد ذاتها، كما أنها لم تعن بالبحث على مستوى علم الاجتماع المهتم بدراسة الوحدات الكبرى، والذى يتعلق بدراسة التنظيمات الاجتماعية، التى إهتم بها الاتجاه الأثنوميثودولوجى وشاركه فى ذلك المدخل المسرحى[3].

بناء على ما سبق، يمكن القول أنه على الرغم من تلك الاختلافات بينهما، إلا أن كلا منهما يسعى لحو التأكيد على استخدام المنهج الكيفى فى دراسة الناس وما يقومون به من أنشطة مختلفة خلال حياتهم الاجتماعية التى يتفاعلون فيها مع بعضهم البعض وبذلك فإن كل منهما يمثل منظوراً سوسيولوجيا محدداً بالمستوى الميكروسوسيولوجى.

أما عن الطرف الآخر للعلاقة بين التفاعلية الرمزية والإثنوميثودولوجى ودراسة الجماعات الاجتماعية فإنه يتضح من الهدف الرئيسى لعلم الاجتماع باعتباره يسعى لحو محاولة فهم الجماعات الإنسانية، وذلك من خلال ما أشار إليه

---

(1) Ibid., PP. 44 - 45.

(٢) زينب شاهين، مرجع سابق، ١٤٧ – ١٤٨.

(3) Cuff& Payne, Op. Cit., P. 125.

بعض السوسيولوجيين من أنصار التفاعلية الرمزية على سبيل المثال «كولى» حيث ذكر أن الطبيعة الإنسانية إنما تكون طبيعة الجماعة، وذلك لأن الحياة الإنسانية فى أى مجتمع إنما تعتمد على كل من الجوانب الفردية والاجتماعية. والتأكيد أيضاً على اعتبار أن وسائل الاتصال والرموز إنما تكون بمثابة مفاتيح هامة لفهم الحياة الاجتماعية التى هى عبارة عن حياة أعضاء الجماعات الاجتماعية[1].

وقد ركز جارفينكل باعتباره ممثلاً للإتجاه الإثنوميثودولوجى على دراسة النشاطات التى يمارسها الأفراد فى الحياة اليومية، وكيف يمكن أن يتكون لديهم الإحساس بعالم الحياة اليومية عن طريق استخدام اللغة والمعنى الذى نصل إليه عن طريق الرموز، وهكذا فإن جارفينكل يعتبر كل فرد من الأفراد يشترك فى خلق المعانى وفهم النشاطات، ومن ثم قد سعى نحو فهم المواقف الاجتماعية من الداخل وكما تظهر للإنسان الذى يعيش فيها[2].

كما تتضح العلاقة بينهما وبين دراسة الجماعات الاجتماعية وذلك فيما ذكره «شيبرد» R. Shepherd فى مؤلفه بعنوان «الجماعات الصغيرة» أنه من أجل التوصل إلى دراسة الجماعات الأولية فإنه يجب علينا الاهتمام بكل ما يكون ذات صلة وثيقة بفهم خبرات الحياة اليومية فى مجال الجماعات الاجتماعية، وكذلك أيضاً ضرورة الاهتمام بفهم المنظور الذى يستخدمه الناس لتفسير الأحداث فى مواقف الحياة اليومية ، وبذلك يجب علينا منذ البداية فهم ودراسة تلك الجماعات التى ينتمى إليها الناس، ومن أجل فهم سلوكهم وتفاعلهم مع بعضهم البعض فى مختلف مواقف الحياة الاجتماعية[3].

وفى تاكيد التفاعلية الرمزية على ضرورة دراسة التفاعل الاجتماعى والشخصية والبناء الاجتماعى للمجتمع ترى أنه يمكنها من فهم كل من جوانب البناء والتغير على كل من المستوى الفردى والجمعى. ويعد التفاعل

(1) B. N. Neltzer, (Et Ol), Op. Cit., P. 2.

(٢) - نادية محمد عمر، مرجع سابق، ص ص ٧٦، ٨٦ - ٨٧.

(3) Clavis R. Sheperd, Small Groups, Op. Cit., PP. 5 - 6.

السمة المميزة للجماعات الاجتماعية التى لاتوجد منعزلة عن المجتمع الذى تعيش فيه، كما أن تحديد الشخص للموقف الذى يواجهه فى حياته الاجتماعية نجده يعتمد على منظوره الخاص بالجماعة التى ينتمى إليها ويكون فيها عضواً، ومن ثم يحاول تفسير هذا الموقف فى ضوء المنظور الخاص بجماعته[1]. وبذلك تكون التفاعلية الرمزية قد عملت على التأكيد على العملية التفاعلية بين أعضاء الجماعات الاجتماعية فى المجتمع وعلى الطريقة التى يمكن لأعضائها من خلالها بلورة وتكوين تصورات لديهم عن العالم الذين يعيشون فيه من خلال مشاركة كل منهم للآخر فى عملية التفاعل الاجتماعى[2].

وقد ذكر الفيلسوف «دافيد ميللر» David Miller الذى يعتبر من أشهر مفسرى وجهة نظر ميد أن «جورج هربرت ميد» يعتبر حياة الجماعة تتكون من أفعال اجتماعية مترابطة وأن تكوين هذه الأفعال الاجتماعية يكون ممكناً فقط فى المجتمعات الإنسانية وما يوجد فيها من كائنات إنسانية. يكون لديها المقدرة على أن تطور وتنمى «رموزاً ذات معنى» Significant Symbols، وأنه فى استخدمها لتلك الرموز إنما تقدم شكلاً جديداً للتفاعل بينها، هذا الشكل الذى يعرف باسم التفاعل الرمزى، وكذلك يرى ميد فى إطار تحديده وتفسيره للذات على أنها موضوع يكونه الكائن الإنسانى بنفسه ومع غيره باستمرار، وبالتالى يصبح دخوله فى هذا التفاعل بمثابة جزء أساسى لتلك العملية الاجتماعية التى ينتج عنها حياة الجماعة الإنسانية[3]. ومن ثم لا يمكن فهم سلوك الفرد وتفسيره للمواقف الاجتماعية فى الحياة اليومية إلا من خلال النظر إليه فى ضوء سلوك الجماعة الاجتماعية ككل والتى يكون فيها عضواً[4].

كما تعتبر الجماعة الأولية فى ذلك التفسير الذى قدمه «كولى» وتحديده لخصائصها على أنها أولية بمعان عديدة حيث أنها تكون مصدراً للمثل والقيم

---

(1) Charon, Joel. M., Op., Cit., P., P. 25, 26, 31.

(٢) د. محمد على محمد وآخرون، التفاعلية الرمزية فى علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(3) David L. Miller, Georg H Mead, Op. Cit., PP. 903 - 904.

(4) Lewis A. Coser, Masters of Sociological Thought, Op. cit., P., 334.

الاجتماعية التى يعتنقها الفرد فى المجتمع، وتعمل على تطوير ذاته الاجتماعية من خلال تفاعله مع غيره داخل وخارج الجماعة. كما أنها تعكس معايير وثقافة المجتمع الذى توجد فيه، ومن ثم فهى تعتبر بمثابة الرباط الحاسم بين الفرد والمجتمع الأكبر الذى توجد فيه، تأكيداً قوياً على ما يوجد بين التفاعلية الرمزية والجماعة الأولية من علاقة وذلك من خلال النظر إلى مفهوم الذات الاجتماعية عند أنصارها[1].

هكذا نجد أن جميع أنصار التفاعلية الرمزية إنما يؤكدون على أهمية الجماعة الاجتماعية باعتبارها الرباط الحاسم بين الفرد والمجتمع، وان ما يوجد بينهما من علاقة يكون محور اهتمامهم الرئيسى. كما يتفق بعضهم فى ذلك الصدد من أمثال كولى وميد مع اميل دوركايم فى التأكيد على أن فهم الأفراد ومحاولة تفسير سلوكهم و التعرف على الدوافع التى تكمن خلف هذا السلوك. أمر يبدأ بفهم الجماعات الاجتماعية التى يتفاعلون فيها مع بعضهم البعض وينتمون إليها. ومن خلالها يتعلم العضو كيف يمكن استخدام بعض الرموز والإيماءات وغيرها فى عملية الاتصال بين أعضاء جماعته، وأى جماعة أخرى فى المجتمع. ولذلك تعمل الجماعة على تشكيل أفكار، ومعتقدات وسلوك العضو فيها منذ بداية حياته الأولى مثل جماعة الأسرة.

أما عن طبيعة وحجم هذه الجماعات - كجماعة الأسرة - فنجد أن ثمة اختلافات قد بدت واضحة بين الباحثين فى علم الاجتماع، وذلك فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين[2]. حيث اتجه معظم منظرى القرن التاسع عشر إلى التأكيد على أن ما حدث من تغيرات اجتماعية مصاحبة للثورة الصناعية إنما ترتب عليها اختفاء الجماعة الأولية وانهيار علاقاتها المميزة لها. بل على العكس من ذلك أكدت تلك النتائج التى أنتهى إليها أنصار مدرسة شيكاغو فى القرن العشرين، وذلك من خلال الأبحاث والدراسات العديدة التى أجروها. اكتشاف نوع جديد نسبياً للجماعة الأولية فى المجتمع الحضرى، أطلقوا عليه جماعة «العصبة» Gange وتقوم ببعض الوظائف الخاصة بالأسرة،

(1) B. N. Neltzer, (et. Ol), Op. Cit., P. 51.

(2) G. F. Eibbens, Patterns Of Behaviour,, Op. Cit., PP. 278 - 288.

وأن ما حدث من تغيرات هو فقدان لبعض الوظائف المميزة لطابع جماعة الأسرة الممتدة [١].

وأخيراً، يعبر المدخل المسرحي عند «جوفمان» عن علاقته بدراسة الجماعات الاجتماعية أيضاً من خلال توضيح الدور الذى تقوم به الجماعة بالنسبة للطفل. وانطلاقاً من تحليل فكرة التفاعل باستخدام الرموز. حيث يؤكد على أن الطفل فى بداية حياته تتسم كل تفاعلاته وأنماط سلوكه بالتلقائية والبساطة الشديدة، دون استخدامه لرموز معبرة عنها، وبالتالى فإن تكراره لهذه الأفعال يجعلها أكثر اختلافاً عمن حوله، إلا أنه كلما نضج وتعلم، ولاحظ تلك الإيماءات والإشارات أو الرموز التى يستخدمها الآخرون من حوله، وكانت فى الوقت نفسه تلقى قبولاً اجتماعياً من جانب المحيطين به فإنه بعد ذلك يحرص على تعلمها - أى الرموز والإيماءات - تدريجياً بهدف استخدامها فى عملية التفاعل الاجتماعى، ومن ثم يكون قد أدرك وتعلم آنذاك كيف يمكن له - إنكار أو أخفاء ما يكون واضحاً أو مرئياً فى أفعاله ويعد مصدراً للقلق - التفاعل مع غيره والتعبير عن وجهة نظره، من خلال تلك الرموز والإيماءات والانطباعات، ولذلك ينتهى جوفمان إلى النظر لمصطلحات مثل التفاعل الاجتماعى، والدور والإنجاز وغير ذلك باعتبارها أدوات تستخدم لفهم التفاعل الاجتماعى الذى وصفه بأنه مسرحية أو «دراما» Drama [٢].

ماكس فيبر ومنهج الفهم [*] Max Weber

يعد عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر من أنصار النزعة الإنسانية تأثر اتجاهه المنهجى بما كان سائداً فى تلك الفترة وخاصة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وما حدث فيها من حوار بين بعض المدارس الفكرية حول مدى ملاءمة مناهج العلوم الطبيعية لموضوع الدراسة فى العلوم الاجتماعية.

---

(1) Dexter C. Dumphy, et ol , Op., Cit., P., P. `12, 13, 17.

(2) Irving M. Zeitllin, Op. Cit., P. 66.

★ على الرغم من أن ماكس فيبر لم يكن من بين أنصار التفاعلية الرمزية إلا أن حرصنا على تناوله فى هذا الجزء إنما يأتى من اتجاهه المنهجى ذات الطابع الكيفى فى علم الاجتماع.

إلا أن موقف ماكس فيبر كان فردياً فى اتجاهه الذى بدا واضحاً فى «ضرورة إعادة تحديد البناء المنهجى لعلم الاجتماع، والحاجة إلى وضع أساس منطقى يمكن من الوصول إلى مفهومات ونظريات عامة فى هذا العلم، وضرورة إقامة أساس منهجى يستند إلى استخدام المعطيات التاريخية المقارنة وتفسيرها»[١].

ولذلك يعتبر «ماكس فيبر» أول من حاول التصدى لمناقشة بعض القضايا المنهجية فى العلوم الاجتماعية عامة، وعلم الاجتماع بصفة خاصة موضحاً فى ذلك طبيعة الاختلاف بين موضوع الدراسة فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، ومؤكد على ضرورة إتباع منهج مستقل ومتميز فى علم الاجتماع أطلق عليه منهج الفهم. وذلك باعتباره المنهج الملائم للدراسة السوسيولوجية، والتى حدد موضوعها فى دراسة الفعل الاجتماعى ذو المعنى والعلاقات الاجتماعية التى تقوم ببين أعضاء الجماعات الاجتماعية التى يتكون منها المجتمع[٢].

كما يقوم هذا المنهج لدى «ماكس فيبر» على حقيقة مؤداها أن الكائنات البشرية تكون على وعى مباشر وأدراك تام ببناء الفعل الإنسانى حيث يمكن الاعتماد على هذا المنهج فى دراسة تلك الجماعات الاجتماعية، والذى من خلاله نستطيع فهم الأفعال والنشاطات التى يقوم بها أعضاؤها، وكذلك من خلالها يمكن لنا التعرف على مقاصدهم ودوافعهم التى تكمن خلف أفعالهم الواضحة والمرئية[٣]

علاوة على ذلك، أكد «ماكس فيبر» على ضرورة النظر إلى ذلك الفعل الاجتماعى من خلال أوجه نظر الفاعلين أنفسهم. حتى يمكن لنا فهمه وتفسيره فى سياق الدوافع التى تكمن خلفه، وانه حينما نتوصل إلى اكتشاف تلك الدوافع الملائمة لسلوك الفاعل فإن ذلك يعنى الدخول إلى خبرة الفاعلين أنفسهم فى المواقف من وجهة نظرهم. وفى هذا الصدد نجد ثمة تشابه بين موقفه

---

(١) د. محمد عارف عثمان، المنهج فى علم الاجتماع، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ص ٥٨ - ٥٩.

(2) Douglas Benson & John A. Hughes. Op. Cit., P., 41.

(٣) اليكس انجلز، مقدمة فى علم الاجتماع، ترجمة د. محمد على وآخرون، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠، ص ٢٢.

هذا وبعض أنصار التفاعلية الرمزية مثال توماس فى وجهة نظره عن تحديد الموقف واعتماده على «منهج الفهم» Verstehen، وكذلك كولى فى منهج الاستيطان التعاطفى. وإن كان فيبر أكد فى ذلك على تلك الدوافع التى تكمن خلف الفعل وأهميتها فى فهم هذا الفعل. فإنه من ناحية أخرى رأى ضرورة الأخذ فى الاعتبار بعض العناصر الأخرى غير الدافعية مثل الوسائل وغايات الفعل من وجهة نظر الفاعل[1].

علاوة على ذلك، نجد فيبر فى تحديده للفعل الاجتماعى باعتباره ذو معنى إنما يهدف إلى التأكيد على أن المعنى يلعب دوراً أساسياً أيضاً فى عملية التفاعل الاجتماعى بين الأعضاء، وفى تفسير هؤلاء الأعضاء لأفعالهم وأفعال الآخرين. وذلك لأن الفعل الاجتماعى يحدث حينما يحدد الشخص أو الفاعل معناه بالنسبة له «أى لفعله وسلوكه»، وكذلك حينما يحدد معناه لمن حوله فى بيئته أيضاً. ومن خلال هذا المعنى فإنه يرتبط بأفعال الآخرين، ومن ثم تكون كل الأفعال بعد ذلك ذات أصل تبادلى بين كل شخص وآخر، وهذا التبادل لا يأخذ شكل الاستجابة الميكانيكية، ولكنه تبادل قائم على التفسير فى ضوء الفهم والمعنى[2] وبناء على ذلك فإن تلك الأفعال التى يقوم بها أعضاء المجتمع تجعل كل واحد منهم «الفاعلين» يحرص على أن يأخذ فى اعتباره اهتمامات ومقاصد الشخص الآخر، وذلك فيما يقوم به من أفعال. الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى تحديد خاصية العلاقات الاجتماعية تنطوى على معنى ذاتى، وتقود أيضاً إلى نمط معين من الفعل.

وعلى الرغم مما سبق، قد وجد «فيبر» أن العلاقات الاجتماعية تتغير خلال الزمن، وبالتالى يتغير المعنى الذاتى للأفعال، وفى هذا الصدد طرح فيبر سؤالاً مؤداه: تحت أى ظروف يمكن للعلاقات الاجتماعية الاستمرار فى أشكال؟ ومن ثم جاءت أجابته على هذا السؤال فى تنميطه للفعل الاجتماعى القائم على مفهوم العقلانية ومؤكداً على ضرورة الأخذ فى الاعتبار فكرة البدائل لكل من الغايات ووسائل الفعل[3].

---

(1) Sheldon Stryker, Cit., P. 43

(2) Douglas Benson & John A. Hughes, Op. Cit., P., 41.

(3) Sheldon Stryker, Cit., P. 44.

وهكذا يبدو لنا موقف فيبر فى تأكيده على منهج الفهم الإنسانى باعتباره ملائما لموضوع الدراسة فى علم الاجتماع، والذى حدده فى الفعل الاجتماعى ذو المعنى، ذلك الفعل الذى يشتمل على التفسير والتفكير، والقصد، ويكون هادفاً ومتجهاً نحو الآخرين كما لو كانوا فاعلين. هذا إلى جانب إدراكه لما يقوم به الفاعل خلاله اتصاله بالأشخاص الآخرين من حوله حتى يجعل سلوكه مطابقاً لتوقعاتهم فى النهاية[١]

كما فى دراسته أو تناوله للجماعة حاول استخدام مصطلحات أخرى متشابهة مع تلك التى استخدمت من جانب غيره من البلحثين والذين كان لهم أسهام واضح فى بحث ودراسة الجماعة من خلال إقامة نوع من الثنائية حيث أنه حاول التمييز بين ما أطلق عليه بالألمانية بالمجتمع الشيوعى أو التقليدى Vergemienschaft، والمجتمع العقلانى القائم على المصلحة الشخصية وما يتميز به من التبادل التجارى الحر.

والمجتمع الشيوعى Communal Society وذلك كما وصفه «ماكس فيبر» يكون بمثابة مفهوم أوسع من مفهوم الجماعة الأولية، ومع ذلك فإنه يرى أن الصداقة إنما تكون هى أساس معظم العلاقات الشيوعية وخاصة فى المنظمات التى تشبه الوحدة العسكرية، والفصل الدراسى، حيث تتمثل الخصائص الأساسية للعلاقات الشيوعية فى وجود شعور مشترك حول موقف محدد ونتائج وأهداف مشتركة له أيضاً.

كما يشعر أعضاء الجماعة فى ذلك المجتمع بالانتماء وقيام علاقات اجتماعية متبادلة فيما بينهم. وهكذا فإن «فيبر» يشبه «كولى» فى تأكيده على توافر أو وجود الشعور بالانتماء والإحساس المتبادل بين الأعضاء فى الجماعة الأولية. والذى قد درس منها أنوعاً معينة حددها منذ البداية فى الأسرة التى تناولها فى إطار اقتصادى وذلك لأنه كان مهتماً منذ اللحظة الأولى بوظائفها الاقتصادية[٢]

(1) Charon Joel M. OP. Cit., P. 23.

(2) Dexter C. Dumphy, (et. ol), Primary Group, N. Y., Merdeith Corporation, 1972, P. 7.

ومستخدماً فى ذلك الأسلوب المقارن بهدف عقد نوع من التحليل المقارن لبعض الجماعات الأخرى، وخاصة بعض الجماعات الدينية حيث درس العلاقة بين أخلاق الديانة البروتستانتية وروح الرأسمالية فى المجتمع، وانتهى من ذلك إلى وجود نوع من العلاقة تتحدد فى أن البروتستانتية هى التى ساعدت بدورها على ظهور الرأسمالية[١].

وحدد سكان المجتمع المحلى فى وصفه لهم بأنهم جماعة الاقتصاد الواسع الانتشار مركزاً بصفة خاصة على الوظائف الاقتصادية التى فقدتها الأسرة مع ظهور وانتشار تلك المراكز الحضرية، ونتيجة لذلك فإنه لم يوجه اهتماماً نحو تلك الوظائف الأخرى التى مازالت تقوم بها الأسرة - أى تلك الوظائف التى لم تفقدها - وذلك لأنه كان يؤكد على أن العلاقات الشيوعية إنما تكون أكثر تحديداً فى المجتمع الحضرى المعاصر[٢]، ومن ثم وصف ماكس فيبر دلالة هذه الجماعية فى السلوك من خلال توضيح فكرة مؤداها أنه فى ظل الموقف الجماعى فإن كل عضو فى الجماعة أو المجتمع يحاول توجيه سلوكه وذلك طبقاً للمعنى الذى يفهمه من جانب الآخرين، ومن ثم لا يكون السلوك الاجتماعى سلوكاً مستقلاً بل يكون منضبطاً اجتماعياً إلى حد كبير من جانب هؤلاء الآخرين[٣].

وفى إطار تناوله لجماعات المكانة أوضح «ماكس فيبر» أن كل جماعة إنما تسعى نحو تبنى أسلوب خاص بها فى حياتها ولكى يميزها عن غيرها من الجماعات الأخرى فى المجتمع. ويتضمن هذا الأسلوب استخدامها لبعض الرموز مثل الزى، وطريقة الترويح فى أوقات الفراغ، وحصولهم على عضوية بعض الأندية، وبناء على ذلك يتحدد لها مكانة خاصة تميزها، وتسعى جاهلة نحو العمل على تدعيمها من أجل تحقيق وضع اجتماعى متميز لها عن غيرها من الجماعات الاجتماعية الأخرى[٤].

---

(١) د. محمد على ، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٣٥٨.

(2) Dexter C. Dumphy; et ol , Op., Cit., P. 8.

(٣) كمال دسوقى، مرجع سابق، ص ص ٧٥ - ٧٦.

(٤) د. محمد على محمد، أصول الاجتماع السياسى، مرجع سابق، ص ص ٩٧ - ٣٩٨.

مناقشة وتعقيب:

نجد أن كل ما قدمه أنصار الاتجاه الأثنوميثودولوجى من أفكار ومبادئ لدراسة الطرق والمناهج التى يتبعها الناس فى حياتهم وأنشطتهم اليومية، إنما تنحصر فى أربعة مفاهيم أساسية هى «مناهج طرق الأعضاء، والدلائل، ثم الانعكاس، والعضوية». وعلى الرغم من تأكيد هذا الاتجاه على ضرورة إتباع الأسلوب الكيفى فى البحث والدراسة السوسيولوجية، وذلك نظراً لما له من مميزات يفتقر إليها الاتجاه الكمى فى البحث والذى يعتمد على الأرقام والبيانات التى يحصل عليها من الجهات والسجلات الرسمية، وتلك التى تبدو بعيدة عن الواقع الاجتماعى. فإنه يمكن القول على الرغم من ذلك كله، إلا أننا نجد ثمة بعض الانتقادات التى توجه إلى ذلك الاتجاه منها غموض اللغة التى استخدمها فى التعبير عن أفكاره. هذا بالإضافة إلى المفاهيم التى يغلب عليها الغموض، وتلك الانقسامات التى حدثت بين جارفينكل وأتباعه من أنصار هذا الاتجاه حول نوع التحليل اللغوى والهدف منه. علاوة على ذلك، ما استخدمه جارفينكل فى بداية حياته العملية وأطلق عليه «شبه التجريبى» **Quas Experiement**[(١)].

كما يرى بعض الباحثين فى علم الاجتماع أيضاً أن هذا الاتجاه قد ظهر فى المجتمع الأمريكى دون غيره، وكان يهدف إلى تركيز الاهتمام على ذلك الوضع الحالى للحياة اليومية فى الوقت الذى يصرف فيه النظر عن كل ما يتصل بما هو قائم فى البناء الاجتماعى وأزمات ذلك البناء. وكذلك أيضاً لم يهتم بالعلاقة الجدلية بين الفكر والفعل، كما أنه يقدم وسيلة بديلة لمقاومة الوضع السائد فى المجتمع الغربى لا تعتمد على العنف، وتكمن فى العودة إلى تغيير الذات بدلاً من تغيير النظام، ومن ثم فإنه يعتبر بمثابة مقاومة غير عنيفة للوضع القائم لا تزيد عن كونها تمرداً رمزياً فيه استجابة لمشاعر فئة من الناس - الشباب - وفى هذا الصدد نجد أن البعض قد وصفوه على أنه اتجاه راديكالى، إلا أنه يعتبر اتجاه محافظ وذلك نظراً لأن المعانى فيه إنما تكتسب من خلال التنشئة الاجتماعية، وتكون موجهة نحو المحافظة على النظام القائم[(٢)].

---

(١) زينب شاهين، مرجع سابق، ص ١٦٤.

(٢) د. سمير نعيم أحمد، مرجع سابق، ص ص ٢٤٨ - ٢٤٩

علاوة علـى ذلـك، يـرى «جيـدنز» Giddens أنـه مـن خـلال النظـر إلى إسهامات أنصار الاتجاه الأثنوميثودولوجى نجد أنهـا لم توضـح لنـا، لـماذا يرغـب الناس فى التصرف أو الفعل بطريقة خاصـة؟ وأنهـم لم يأخـذوه فـى اعتبـارهـم طبيعة القوى فى العـالم الاجتمـاعى، والتـى تـؤثر بطـرق مختلفـة علـى سـلوك الأعضاء فى المجتمع[1].

وعلى الرغم من أنصاره حاولوا توجيه النقد إلى علم الاجتماع التقليدى وطرقه وأدواته البحثية، إلا أنهم لم يوضحوا من جانبهم كيفية تعديلها[2].

كما نجد ثمة محاولات نقدية أخرى توجه إلى ذلك الاتجاه من وجهـة النظـر الماركسية مؤكدة على أن ما حدث من مناقشات بـين أنصـار الإثنوميثودولـوجى تمثلت فى اهتمامهم الشخصى بادعاءات المعرفة حول العالم الاجتماعى مما نـتج عن ذلك غموض بين أنصاره. علاوة على، اهتمامهم بقضاياه الأساسية إنما كان اهتمام أمبيريقى. حيث تبدو هذه الأمبيريقية فى هذا الاتجاه المؤكد علـى الفهـم من خلال اعتماده على الخبرة من اجل حصوله على مادته العلميـة ومعلوماتـه. كما تجاهل هـذا الاتجـاه أيضـاً فـى تحليلـه الأشـكال والصـور الخاصـة بـالتغير الاجتماعى، والعلاقات بين معانى السـياقات، والعمليـات السياسـية والوقـائع البديلة لتلك الأشكال.

وعلى الرغم من أن جارفينكل قد صاغ مصطلح الإثنوميثودولوجى معبراً عن اهتمامه بميلاد منهج جديد. إلا أنه لم يوضح الحاجة التى دفعته إلى بنـاء مثـل هذه البدائل، كما أن اهتمام أنصاره بصياغة «طريقة» A Technique مـن أجـل التغلب على مشكلة «مقولة الأعضاء» إنما أدى بهم ذلك إلى المغالاة فى الاهتمام بالموضوعية، كما أن تأكيدهم على كلمات جديدة مثال «مسلم به» Taken For Granted إنما تمثل فى حـد ذاتهـا أيضـاً محاولـة إحبـاط لعمليـة التأكيـد علـى الشرعية والموضوعية فى هذا الاتجاه الجديد[3].

(1) Michael Harolambas & Robein Heald, Op Cit., P. 559.

(2) Cuff& Payne, Op. Cit., P. 152.

(3) Denis C. & Michael Erben, Meaning In Contex: Notes Towards A Critique Of Ethnomethodology, B. J. S., Vol., 27, No. 4, 1979, PP. 475 - 476.

كذلك أيضاً، يتضح فشل علماء الإثنوميثودولوجى فى تحليل تلك الطرق التى تتصارع وتتناقض فيها خبرة الأعضاء، وذلك نتيجة لاعتمادهم على طبيعة روتين(*) الحياة اليومية. كما أن تحديدهم لإدراك الفاعلين باعتباره من المجالات المسلم بها مسبقاً للبحث، لا يعتبر كافياً أن نرجع للشخص لتحديد لماذا حدث نمط معين من السلوك؟ وكذلك لا تزال هناك حاجة ماسة فى هذا الاتجاه إلى تفسير طبيعة التناقضات التعليمية، وذلك كالهروب من المدرسة، والفصل أو الحرمان، والفشل أو الانحراف وذلك باعتبارها جميعاً مؤشرات للاغتراب البنائى. ومن ثم فإن هذا الاتجاه إنما يفتقر إلى محتوى مناسب لفهم وتفسير دينامية الأحداث والمواقف والظواهر الاجتماعية(1).

★ يشير مفهوم الروتين اليومى Daily Routine بوصفه مقولة سوسيولوجية عامة، وإلى مجال النشاط الإنسانى اليومى الذى يتم خارج نطاق الإنتاج والإشراف الرسمى. بعبارة أكثر تحديداً يشير المفهوم إلى كل الساعات التى تخرج عن ساعات العمل الرسمى، والتى تعنى استهلاك الإفراد للقيم المادية والروحية وما يرتبط بها من أعمال أخرى غير رسمية. نقلاً عن:
د. عبد الباسط عبد المعطى، الاتجاه السوفيتى: قراءة نقدية فى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٧٤.

(1) Ibid., PP. 477 - 482.

الفصل السابع

الاتجاه الفينومينولوجى لعلم الاجتماع

« الالتقاء والافتراق النظرى »

- مقدمـــة.

١ ـ الفينومينولوجى والعلوم الاجتماعية.

٢ ـ حوار الفينومينولوجيا مع التيارات النظريـة الملائمـة فـى علـم الاجتماع.

٣ ـ أسس المدخل الفينومينولوجى لعلم الاجتماع.

٤ ـ بين الفينومينولوجيا والأمبيريقية فى علم الاجتماع: وجهة نظر تحليلية نقدية.

- مناقشة وتعقيب.

المدخل الفينومينولوجي لعلم الاجتماع
الإلتقاء والإفتراق النظري (*)

مقدمة :

يهدف هذا الفصل إلى عرض القضايا الرئيسية للمدخل الفينومينولوجى فى علم الاجتماع، وذلك من خلال تتبع مجموعة من النقاط المرتبطة بهذا الموضوع مثل علاقة الفينومينولوجيا بالعلوم الاجتماعية، ثم عرض للحوار بين الفينومينولوجيا وبعض التيارات النظرية الملائمة فى علم الاجتماع والتى لها صلة وثيقة بالفينومينولوجيا والمتمثلة فى الفيبرية التى استطاعت أن تبرز بعض القضايا الهامة التى أفاد منها الفينومينولوجيين مثل الاهتمام بالمعنى الذاتى لأفعال الأفراد – والماركسية التى تركز على الوعى الإنسانى وانعكاساته المختلفة والتى تعتبر مركز اهتمام الفينومينولوجيا الوجودية – والتفاعلية الرمزية التى تؤكد على الفهم وضرورة الاعتماد على الأفراد فى فهم الأشياء وتفسيرها اعتماداً على إحساسهم.

وحينما نعرض للفيبرية نحاول أولاً توضيح أفكارها الأساسية، ثم علاقتها بالفينومينولوجيا وبيان كيف أن الفينومينولوجيين استطاعوا الاستفادة من هذا الاتجاه وذلك عن طريق عرض لتحليل الفرد شوتز لمسألة الفهم حتى يمكننا التعرف على بذور الاتجاه الفينومينولوجى وهل يعتبر فعلاً امتداداً للاتجاه الفيبرى فى علم الاجتماع.

ثم نعرض بعد ذلك للاتجاه الماركسى وللنزعة الماركسية عند موريس ميرلوبرنتى Merleau - Ponty والمحاولات التى حاولت التوفيق بين الفينومينولوجيا والماركسية مثل محاولات Tran - Duc - Thoa وسبيجلبرج Spieglberg ومالى Mally وغيرهم، حتى يمكن التعرف على أوجه التشابه والاختلاف بين الفينومينولوجيا والماركسية.

(*) هذا الفصل من إعداد السيدة الدكتورة / نادية محمد عمر.

وأخيراً نعطي فكرة عامة للتفاعلية الرمزية، وذلك بعرض آراء ببعض روادها من أمثاله ربرت ميد وهربرت بولمر، ومن خلال هذه الآراء سنتعرف على أوجه التشابه والاختلاف بين الفينومينولوجيا والتفاعلية الرمزية.

وبعد هذا الحوار سوف نتحدث عن أسس المدخل الفينومينولوجيا لعلم الاجتماع مع توضيح الفرق بين الفينومينولوجيا والأمبيريقية في علم الاجتماع، وفي ختام هذا الفصل سنوضح النتائج العاملة التي سنخلص إليها الدراسة مع بيان كيفية الاستفادة من هذه النتائج.

١ - الفينومينولوجيا والعلوم الاجتماعية :

الفينومينولوجيا منهج يقوم أصلاً على أنقاض أزمة العلوم الاجتماعية، فالأزمة فى العلوم الاجتماعية لم تحدث بسبب التطبيقات التكنولوجية أو بسبب وجود نظرية بديلة لإجراءات البحث، ولكن الواقع أن المشاكل الأيديولوجية والتكنولوجية والنظرية والمنهجية اتحدت جميعها وظهرت فى العلوم الاجتماعية وكانت سبباً فى وجود الأزمة فى العلم الاجتماعى(١).

فإذا نظرنا إلى «النظرية» نجد أن وظيفتها الأساسية تنحصر فى معرفة الحل ذو المعنى الكامل للمشاكل الأساسية التى تحدث فى الحياة اليومية. وهنا يجب أن نميز بين النظرية العلمية والاعتبارات الأسطورية والغائية، وذلك عن طريق الانساق الواضحة من المعرفة وإيجاد المنهج الملائم الذى يساعد على اكتساب هذه المعرفة، ذلك المنهج الذى يجب أن يكون عقلانياً وأمبيريقياً فى آن واحد، فالمعرفة الأمبيريقية والعقلانية لن تتم إلا عن طريق وجود نظرية علمية توصف وتفسر أحداث الحياة اليومية للأفراد(٢).

ويرى فريق من العلماء فى أن علم الاجتماع فشل فى أن يصبح نظاماً ثابتاً يربط بين الجانبين : النظرى والعملى، كما أنه فشل كنوع من التعليم لأنه لم يمدنا بالفهم الكامل لذلك العلم، ولم يوصل طلابه إلى نتائج عملية، وقد ترتب على كل هذا عدم قدرته على إعادة بناء الوحدة فى النظرية وفى نتائجها المنظورة، ومن هنا نرى أن واجب علم الاجتماع هو مساعدة الأفراد على فهم وتحليل مشاكلهم حتى يتمكنوا من حلها(٣)

أما «هوسرل» فيرى أن أزمة العلم الاجتماعى ترجع إلى اغتراب النتاج الفكرى عن مصادره الأصلية فى الحياة اليومية، فمصادر العلم تكمن فى

---

(1) Maurice Natanson, Phenomenology, and Social Sciences, Valume 1, Free Press, New York, 1973, p. 162.

(2) Ibid., p. 163.

(3) John Bailey, Idea and Intrevention Social Theory for preactice, routldge and Kegan Paul, London, 1980, p. 120.

النشاطات النظرية وأسس هذه المعرفة النظرية تكمن فى الحياة اليومية everyday - life كما ترجع أزمة العلم الاجتماعى فى رأيه أيضاً إلى الأزمة العامة للعلم بوجه عام، وفشلها فى الوصول إلى المعرفة ومصادرها فى الحياة اليومية، وأن هذه الأزمة يمكن حلها إذا أعدنا البحث مرة أخرى بالتركيز على انعكاس المعرفة على السلوك الإنسانى، فالعلم الذى يصف ويفسر لإعادة بناء الحقيقة الاجتماعية سوف يكون قادر على تنمية النظرية، وهذا بالطبع سوف يكون ملائم لتكوين أبنية الحياة اليومية(١).

هذا ما يتعلق بالمشاكل النظرية المتعلقة بأزمة العلم الاجتماعى، أما إذا نظرنا إلى المشاكل المنهجية نجدها ترجع إلى محاولة تطبيق المنهج العلمى على هذه العلوم، ولقد حاول «ألفريد شوتز» أن يناقش ما يتعلق بالاتجاه المنهجى الملائم للعلوم الاجتماعية، تلك المسألة التى جعلت العلماء الاجتماعيين ينقسمون إلى مدرستين فكريتين تذهب إحداهما إلى أن مناهج العلوم الطبيعية التى استطاعت أن تحقق نتائج ملموسة وواسعة هى وحدها المناهج التى توصف بأنها علمية، ومن ثم يجب أن تطبق كاملة فى دراسة الظواهر الإنسانية.

أما المدرسة الفكرية الثانية فتذهب إلى أن هناك اختلافاً أساسياً بين بناء كل من العالمين الاجتماعى والطبيعى، وهذا يؤدى إلى نتيجة مؤداها أن مناهج العلوم الاجتماعية مختلفة تماماً عن مناهج العلوم الطبيعية.

الواقع أن ذلك كله يلقى الضوء على بعض المشكلات المنهجية الخاصة بالعلوم الاجتماعية، ويبدو أن الافتراض القائل بأن تبنى صياغة المفاهيم والنظريات فى العلوم الطبيعية بصفة مطلقة سوف يؤدى إلى معرفة ثابتة بالواقع الاجتماعى افتراض غير متسق داخلياً، فإذا أصبح من الممكن تطوير نظرية على هذه الأسس تهدف إلى تفسير الواقع الاجتماعى عليها أن تطور أساليب ووسائل خاصة تختلف عما هو معروف فى العلوم الطبيعية حتى تستطيع أن تواجه متطلبات الذوق العام فى العالم الاجتماعى، وهذا فى

(1) Maurice natanson, op. cit., p. 160.

الحقيقة ما فعلته كل العلوم النظرية التي تناولت المسائل الإنسانية، ولهذا يصبح استكشاف المبادئ التي يحتكم إليها الناس فى حياتهم اليومية لتنظيم خبراتهم، وبخاصة ما يتعلق منها بالعالم الاجتماعي يمثل المهمة الأولى لمناهج العلوم الاجتماعية، وهذا بدوره ما يمنح الفينومينولوجيا أهمية خاصة فيوضع الأسس الحقيقية لمناهج العلوم الاجتماعية(١) .

وإذا نظرنا إلى كتاب هوسرل «المنطق التجاوزى والتكوينى» الذى نشره عام ١٩٢٩ نجده يتكلم بوضوح عن أزمة العلوم الاجتماعية وبيان الدور الذى يمكن أن تلعبه الفينومينولوجيا لحل هذه الأزمة، وذلك من خلال تحليل المشاكل النظرية والمنهجية فى العلوم الاجتماعية عن طريق الرد الفينومينولوجى، وهذا ما عبر عنه «ماكس فيبر» فى مشألة الفهم عنده والتى تعطينا مبادئ المنهج الذى حاول أن يفسر الظواهر الاجتماعية فى معناها المحدد وفى علاقتها بالمعنى الذى يربطه الفاعل بفعله، وفى الوقت ذاته قد أعطى لنا مميزات أساسية لنوع المنهج فى هذه العلوم، وظهر هذا بوضوح فى نظريته عن النموذج المثالى Ideal Type، ولكن يبدو لنا أن هذه المناهج يمكن أن تصبح أكثر تأثيراً عن طريق الفينومينولوجيا، حيث أنها تمدنا بمقياس كلى للمعرفة(٢) .

وعلى هذا الأساس فالفلسفة الفينومينولوجية تستطيع من خلال وسائلها المنهجية الخاصة التى طورها المتخصصون فى العلوم الاجتماعية أن تصبح أكثر ملاءمة فى اكتشاف المبادئ العامة التى تحكم كل نمط من أنماط المعرفة الإنسانية، ذلك لأن الهدف الأساسى للعلوم الاجتماعية هو الحصول على معرفة منظمة عن الواقع الاجتماعى الذى يفهم على أنه المجموع الكلى للأشياء والأحداث التى ينطوى عليها العالم الاجتماعى الثقافى كما يعيشه الأفراد الذى يقضون حياتهم اليومية بين رفاقهم ويرتبطون معهم بعلاقات

---

(١) محمد عاطف غيث : الموقف النظرى فى علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية ١٩٧٣، ص ص ٦٢ – ٦٥ .

(2) Maurice natanson, op. cit., p. 138.

تفاعل متنوعة، فهذا المنهج يؤدى إلى الكشف عن جوهر المجتمع والسلوك الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية، وهذا الجوهر يتمثل فى الاستعدادات الفطرية لدى الإنسان، وهذه الاستعدادات هى الشروط المسبقة للمجتمع الإنسانى(١).

٢ - حوار الفينومينولوجيا مع التيارات النظرية الملائمة في علم الاجتماع:

أوضحنا فيما سبق أننا سوف نعقد حواراً بين الفينومينولوجيا وبعض التيارات النظرية فى علم الاجتماع، ولقد اعتبرنا ثلاثة منها «تيارات ملائمة»، ويقصد بالملاءمة هنا، أنها انطوت على جوانب الإلتقاء، بحيث مثلت جذوراً، أو فروعاً، أو تطبيقات لأسس الفينومينولوجيا موضوعاً ومنهجاً.

أ - الفينومينولوجيا والفيبرية:

تمهيد:

أثيرت مناقشات عديدة حول مسألة أثارت اهتمام علماء الاجتماع وهى تتعلق بالاتجاه المنهجى الملائم للعلوم الاجتماعية، وقد جعلت هذه الفكرة العلماء الاجتماعيين ينقسمون إلى مدرستين فكريتين : تذهب الأولى إلى أن مناهج العلوم الطبيعية التى استطاعت أن تحقق نتائج ملموسة وواسعة النطاق هى وحدها التى توصف بأنها علمية، ومن ثم يجب أن تطبق كاملة فى دراسة الظواهر الإنسانية، وأن الفشل فى تحقيق هذه الفكرة قد منع العلوم الاجتماعية من تطوير أنساق نظرية تفسيرية لها خاصية الدقة والأحكام كما يوجد فى العلوم الطبيعية، أما المدرسة الثانية فتذهب إلى أن هناك اختلافاً أساسياً بين بناء كل من العالمين الاجتماعى والطبيعى، وهذا يودى إلى نتيجة مؤداها أن مناهج العلوم الاجتماعية مختلفة تماماً عن مناهج العلوم الطبيعية، حيث أن العلوم الاجتماعية أيديوجرافية Ideagraphic . بمعنى أنها تصف مظاهر فردية

---

(١) سمير نعيم أحمد، النظرية فى علم الاجتماع، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٢٢٤.

وتسعى إلى صياغة قضايا تتعلق بالأحداث التى لاتتكرر، بينما تقوم العلوم الطبيعية على اكتشاف القوانين التى تعبر عن مفاهيم وتصورات عامة أو تعميمات حول الظواهر المتسمة بالتكرار والانتظام مما يتيح الفرصة لإجراء تجارب وتحقيق أعلى مستوى من الضبط وهذا ما يتعذر تحقيقه فى العلوم الاجتماعية، ومن جهة أخرى فإن العلوم الطبيعية تعالج أشياء وعمليات مادية على حين أن العلوم الاجتماعية تتناول ظواهر نفسية وفكرية، ومن ثم فإن منهج الأولى يتلخص فى التفسير بينما يهدف الآخر إلى الفهم[1].

فالفهم Verstehen يعتبر وسيلة لدراسة المسائل الإنسانية معبراً عن إدراكهم لأهمية هذه المعرفة القائمة على الذوق العام، ولكن الفهم لايمثل منهجاً خاصاً بالعلوم الاجتماعية ولكنه الطريقة أو الصيغة التى يكتسب عن طريقها الذوق العام معرفته بالعالم الاجتماعى الثقافى، ومعنى ذلك أن الفهم لا علاقة له بالاستبطان طالما أنه نتيجة لعمليات التعلم والتثقيف، ولقد أطلق «ماكس فيبر» على الفهم أنه ذاتى لأن هدفه اكتشاف المعنى الذى ينطوى عليه الفعل الذى يقوم به الفاعل والذى غالباً ما يختلف عن المعنى الظاهرى الذى يدركه الشخ القائم بالملاحظة وذلك هو مصدر المسلمة الأساسية التى صاغها «ماكس فيبر» عن التأويل الذاتى[2].

يقول «هوسرل» بأن العالم منذ البداية مستوعب فى التفكير السابق على السائد فى الحياة اليومية فى صورة نماذج، لكن عالم الحياة اليومية هو أيضاً عالم اجتماعى ثقافى يرتبط فيه الفرد بعلاقات متعددة مع أقرانه ويدخل فى أنماط تفاعل متنوعة، ومن الناحية العلمية يفهم الفرد سلوك الآخرين إذا استطاع أن يفهم دوافعهم وأهدافهم واختياراتهم من تاريخ حياتهم الشخصى، إذاً لا بد لنا من إدراك المعنى الذاتى الذى يضفيه الناس على أفعالهم، وغالباً ما نلجأ لتحقيق هذا الغرض إلى بناء نماذج مثالية Ideal Types تصور دوافع

---

(١) محمد عاطف غيث : الموقف النظرى فى علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٣، ص ٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٢.

الأفعال والغايات والاتجاهات وطبيعة الشخصيات بحيث يصبح السلوك الفعلى حالة أو مثالاً من هذه النماذج، فكأن الذوق العام كطريقة لمعرفة العالم هو مصدر النماذج المثالية، وهذا المفهوم الأخير هو الأداة العامة التى استخدمها علماء الاجتماع فى دراستهم للظواهر والسلوك الاجتماعى من أمثال «ماكس فيبر». إن الفلسفة الفينومينولوجية تستطيع أن تدلل على أن وسائلها المنهجية الخاصة بها والتى طورها المتخصصون فى العلوم الاجتماعية من أجل استيعاب الواقع الاجتماعى أكثر ملائمة فى اكتشاف المبادئ العامة التى تحكم كل أنماط المعرفة الإنسانية من تلك الوسائل التى اصطنعها العلماء الطبيعيين[١].

فإذا درسنا علم الاجتماع عند «ماكس فيبر» نستطيع أن نقف على تيارات عديدة تجمعت وانصهرت فأثمرت نسقاً فكرياً متكاملاً، فلقد أدخل «فيبر» العنصر السيكولوجى لأنه يعتقد أن علم الاجتماع كعلم يتعين عليه أن يبحث عن تفسير سببى للفعل الإنسانى قادر على معرفة غاياته ومقاصده، والتفسير السببى يحقق لعلم الاجتماع «صفة العلم» التى كافح من أجلها كونت ودوركايم، ولكن دراسة السلوك الإنسانى يتعين عند «فيبر» أن نبرز بعداً آخر هو بعد «الفهم» الذى يقوم على التعاطف مع الآخرين وسبر أغوارهم للتأكد من حقيقة هذا السلوك بدلاً من الاكتفاء بمظاهره الخارجية، ومن هنا برزت نزعة جديدة تدعو إلى الاهتمام بدراسة الظواهر الاجتماعية من الداخل أيضاً مثلما ندرسها من الخارج كما لو كانت أشياء[٢].

ولقد وقف «ماكس فيبر» موقفاً فينومينولوجيا حين قدم لنا فى كتاباته تحليلاً لطبيعة المواقف والدوافع وحين وضع حداً فاصلاً بين الفعل الآلى والفعل الاجتماعى، فالأول غير اجتماعى لأنه غير معقول، أما الثانى فهو سلوك إنسانى له معناه لأنه معقول أو هو سلوك قصدى يمكن فهمه حين يضع الإنسان نفسه عقلياً ووجدانياً فى نفس الموقف.

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٤.

(2) Max Weber. Basic Concepts in Sociology, London. 1962, p. 32.

ويذهب «فيبر» إلى أنه يمكن معرفة مضمون الظواهر التى هى موضوع التفسير لأن الكشف عن هذه الظواهر ومعرفة مضمونها إنما يحتاج إلى جهد يبذله الفرد لفهم الأفعال الاجتماعية، وتعبر عملية الفهم عن تلك الجهود والأفعال القصدية التى تقوم بها الذات طبقاً للمنهج الفينومينولوجى[1].

وإذا تتبعنا الموقف الوضعى عند Dilthey نجد أن موقفه جديد فى عملية التمييز بين العلوم الاجتماعية والطبيعية، حيث يرى أن أغلب الاختلافات بين العلوم الطبيعية والاجتماعية ليس فى حقيقتهما الأمبيريقية ولكن الاختلاف يكمن فى الخاصية الفريدة للأحداث التاريخية فى العلوم الاجتماعية على عكس الخاصية العامة فى الأحداث الطبيعية، فالعلماء الاجتماعيون يجب عليهم أن يدرسوا الأفراد والحادثة التاريخية، بينما نجد أن العلماء الطبيعيين يدرسون الأحداث العامة والمتكررة، ولذلك فإن Dilthey وأتباعه قدأكدوا على ضرورة الفهم الذاتى للعلوم الاجتماعية والتركيز على معانى الأشياء كما يراها الفاعلون الاجتماعيون باعتبارها ضرورة لفهم الظاهرة الاجتماعية، ولذلك فإنه قدأخذ مكانته فى مدرسة الفهم تلك المدرسة التى أسسها «ماكس فيبر»، ومن هنا نجد أن «فيبر» قد قرر أهمية وضرورة الفهم الذاتى لتنمية وتطوير علم الاجتماع، ولكنه أعبرها خطوة أولى فى عملية البحث عن الأسباب الاجتماعية، ومن هنا يمكن أن ننظر إلى الفهم باعتباره شيئاً ضرورياً ولكنه شرط غير كاف للتفسير داخل العلوم الاجتماعية[2].

ويرى «فيبر» أن هناك نوعين من الفهم : أولهما : الفهم الأمبيريقى المباشر لمعنى الفعل المعطى ثمل قضية ٢ × ٢ = ٤، فنحن نستطيع أن نفهمها حينما نقرأها حيث ستكون خبراتنا متجهة اتجاهاً مباشر إليها وسيكون هناك فهم عقلى للفكرة، أما النوع الثانى من الفهم فهو المعروف باسم الفهم التفسيرى، فنحن قادرون على فهم دوافع أى شخص حينما يقول ٢ × ٢ = ٤ فيوقت معين وتحت ظروف محددة، فهذا النوع من الفهم يرتكز على الدوافع

---

(1) Ibid., p. 32.

(2) Ibid. p. 33.

حيث يبدو الفعل جزء من الموقف، فالدافع يضاف إلى الفهم إذا عرفنا الهدف من ذلك الفعل. وفي كل هذه المواقف كما يراها «فيبر» يمكن أن نحدد أسلوك باعتباره جزء من الفهم، فالفهم هنا يمكن قبوله كتفسير حقيقي للمصدر الفعلى للسلوك، فالمعنى الحقيقى للسلوك وتفسيره يحتاج إليم عرفة محتويات المعنى داخل مصدر أحداث الفعل، وفي كل هذه الحالات نجدها تحتوى على عمليات عاطفية ومعنى ذاتي داخل محتويات المعنى الذى غالباً ما يكون معنى قصدى، وهنا سنصل إلى الفعل القصدى وذلك لتحديد السلوك الذى يحدد موجهاً نحو هدف معين(١).

فإذا حاولنا الرجوع إلى الاصول المبكرة لعلم الأجتماع الفينومينولوجى وإلى أعمال «الفريد شوتز» نجد أن هذا العالم قد بدأ بعلم الاجتماع الصورى عند «ماكس فيبر» ، والذى يذهب فيه إلى أن علم الاجتماع هو العلم الذى يتوصل إلى الفهم التأويلى للفعل الاجتماعى من أجل التوصل إلى تفسير سببى لمجراه وآثاره، والذى يذهب فيه «فيبر» أيضاً إلى أن الفعل يكتسب صفة اجتماعية من خلال المعنى الذاتي يضفيه عليه الأفراد، فهو يضع فى أعتباره سلوك الآخرين الذين يؤثرون فى مجراه، ومن هنا بدأت فينومينولوجيته شوتز التي بدأت بتحليل مسألة الفهم كما رآها ماكس فيبر.

تحليل شوتز لمسألة الفهم:

لقد بدأ «شوتز» أبحاثه بالرجوع إلى كتابات «ماكس فيبر» النظرية وخاصة في محاولات «فيبر» لتحديد علم اجتماع الفهم، وستكون دراستنا هنا منصبة على كتابات «فيبر» باعتبارها نقطة البدء في فلسفة العلوم الاجتماعية برغم أن تحليله لم يكن عميقاً لكثير من المشكلات الهامة فى العلوم الإنسانية، ولقد أكد «فيبر» على مصطلح الفهم ووجهة النظر الذاتية للفاعل الإجتماعي وتفسيرها باعتبارها نزعة خيالية ورغبة في الوصول إلى فروض قانونية، هذه الفروض تعتبر ذاتية بالنسبة للأحداث الاجتماعية في المعرفة الأمبيريقية، ولخص لنا

---

(1) Marcello Truzzi : Verstehen Subyective Understanding in Social. Sciences. London. 1974, pp. 24 - 25.

«ناجل» اتجاه الفهم حينما قال أن هذه النقطة تعتبر قاعدة منطقية استخدامها العلماء الاجتماعيون فى تفسير الحوادث الموضوعية، ولقد شارك «شوتز» «ناجل» فى وجهة نظره، فوافق على أن كل أنواع المعرفة الأمبيريقية تتضمن اكتشافات يستطيع كل فرد أن يتحقق منها عن طريق ملاحظته وعن طريق استخدام خبراته، ولقد وافقه «شوتز» أيضاً على أن النظرية تعنى فى كل العلوم الاجتماعية قانوناً واضحاً لتحديد العلاقات بين المتغيرات الأمبيريقية، وأن حقيقة القوانين فى هذه العلوم الاجتماعية ذات طبيعة جامدة كما أنها محدودة، ووافق على وجهة نظر «فيبر» فى أن العلم الاجتماعى محتاج إلى نظام الفهم. وبرغم أن «شوتز» قد شارك «فيبر» فى وجهة نظره إلا أنه ذكر أن هناك خطأ أساسياً عند «فيبر» وهو اعتماده على التفسير الذاتى المطلق باعتباره هدفاً وحيداً للعلوم الاجتماعية لأن هذا الهدف يحتاج إلى تنظيم معرفة الحقيقة الاجتماعية[1].

وطبقاً لما قاله «فيبر» نجد أن علم الاجتماع يجب أن يهتم بالبحث عن فهم الحقيقة الاجتماعية، فالبحث الاجتماعى يجب أن يتخلل شعور الأفراد، ويحاول أن يكتشف كيف يرون أو يحددون العالم، كما دافع «فيبر» عن منهج الفهم أو الاستنباط التعاطفى، فالباحثون يجب أن يكونوا ضمن الموقف لكى يكونوا قادرين على تفسير العالم الذاتى للفاعلين، فالتحليل الإحصائى والسببى لأبنية العالم الاجتماعى المعقد لا تكون كاملة بدون تحليل هذا الفهم. وعمل «شوتز» الأول والهام يطلق عليه «تصور الفعل عند فيبر» حيث أن تحليله لهذا العمل كان نقدياً، ولكنه تحول عن فشل «فيبر» فى استخدامه منهج الفهم وفى تفسيره لماذا وماهى العمليات اللازمة لذلك؟

حيث أن الفاعلون يأتون للمشاركة في المعانى العامة. ومن وجهة نظر «شوتز» أن «فيبر» يفترض أن الفاعلين يشاركون فى المعنى الذاتى قاده ذلك إلى السؤال عن : لماذا وكيف يصل الأفراد إلى الحالات الذاتية العامة فى

---

(1) The restructuring of Social and Political Theory, London, 1976, p. 138.

الموقف؟ وكيف يمكن أن يخلقوا وجهة نظر عامة عن هذاا لعالم؟. وهذه هى مشكلة التواصل بين الذوات Intersubjecitivity التى تعتبر خطأ فكرياً وأساسياً هاماً عند «شوتز» وقد لخصها Zaner فى السؤال عن كيف يمكن أن ندرك حياتنا العقلية كما يراها الآخرون وكيف يمكن أن نشاركهم أفكارهم ومشاعرهم واتجاهاتهم، وطبقاً لما قاله «شوتز» نجد أن مشكلة التواصل بين الذوات تعتبر هنا معارضة لمبدأ القوة(١) .

فالفهم يمكن أن يعتبر شكلاً من أشكال الخبرة بالإحساس العام بمعرفة الشئون الإنسانية فهى لم تكن شكلاً مميزاً من أشكال المعرفة . كما لايمكن أن نعتبرها حالات سيكولوجية ذاتية، وأن الفهم طبقاً لشوتز يعتبر هو الاسم الأول فى العمليات المعقدة لكل منا فى الحياة اليومية التى تفسر معانى أفعالهم وأفعال الآخرين الذين يتفاعلون معهم(٢) .

إن تحليل جوانب الفهم تبين لنا كيف أن شوتز فهم إطلاقية التفسير الذاتى وكيفأن الأبنية العلمية للعلوم الاجتماعية تشمل المستوى الأول لمعانى الأفعال التى يقوم بها الفاعلون، إن هذا التفسير الذاتى لكى يفهم فى الإحساس العام لابد أن نعلم أن كل التفسيرات العلمية للعالم الاجتماعى تشير إلى معانى ذاتية لأفعال الوجود الإنسانى والتى تكون الحقيقة الاجتماعية الأصل فيها، ولقد ذكر لنا «شوتز» الطريقة التى عن طريقها يصل العلماء الاجتماعيون والتى تشير إلى الفعل الإنسانى وتساعد على بناء السلوك أو مصادر أنماط الفعل وأن هذا البناء يعتبر ذاتى ومنطقى، وأن الأسلوب العلمى للفعل الإنسانى يجب أن يتبنى على هذا الأساس كما أن الفعل الإنسانى يقوم داخل العالم الحقيقى عن طريق الفاعلين الفردين، أى أننا لانستطيع فهمها عن طريق الرجوع إلى الفاعلين أنفسهم؛ فتسير الإحساس العام لعالم الحياة اليومية يكمل بناء الفكر الموضوعى الذى وصل إليه العلماء الاجتماعيون فهو يكمل أبنية عالم الحياة اليومية،

---

(1) The Structure of Scoiological Theory, London, 1976, pp. 398 - 339.

(2) Richard J. Bernston, op. cit., p. 140.

فالفينومينولوجيا فى عالم الحياة اليومية لا تشخص عن طريق رثبات وجود الآخرين ولكن فى كيف نستطيع فهم الآخرين وفهم أفعالهم ولكى نفهم هذا وتلك يجب أن نتفاعل مع الآخرين داخل هذا المحتوى الاجتماعى(١).

إن علم الاجتماع كما يراه «فيبر» هو العلم الذى يحاول تحديد الفهم التفسيرى للكشف عن طبيعة مواقف أو مجالات السلوك فى ضوء أنماط الفعل الاجتماعى ولا يصبح الفعل اجتماعياً عند «فيبر» إلا إذا كان معناه الذاتى مرتبط بالفاعل الاجتماعى حين يأخذ فى اعتباره الأشكال المختلفة للنماذج المثالية ومدى تطابقها مع أنماط السلوك السائدة والعامة. أما القصد فهو يعتبر عنصراً جوهرياً فى كل الأفعال القصدية، وينظر «فيبر» إلى عنصر القصد على أنه من أهم عناصر الفهم حين يحاول تحليل أو تفسير الظواهر، وهذا هو السبب الذى جعل «فيبر» ينظر إلى منهج الفهم على أنه الطريقة المثلى لدراسة التاريخ ووقائعه. ومن هنا تصبح القصدية هى المحاولة الأساسية والعملية الضرورية فى تطبيق المنهج الفينومينولوجى وأصبح هذا المنهج يدور حول المعنى أو الفهم الذى نتوصل إليه حين نقصد الأشياء ذاتها وننتزع منها المعنى لأن أساس أو مبدأ القصد الفينومينولوجى هو حدس الماهية(٢).

لقد استطاع «ماكس فيبر» فى أعماله أن يجمع بين علم الاجتماع الكمى والكيفى، ولقد كان منهج «فيبر» فى ذلك هو محاولة التركيز على التصورات العلمية للقوانين العامة والتحليلات السببية للمادة الذاتية فى العلم الاجتماعى والموجودات الإنسانية، ولذلك فنحن نجد أن تعريفه لعلم الاجتماع بعكس هذا حينما يقول :

« إن علم الاجتماع هو العلم الذى يحاول عن طريق الفهم التفسيرى معرفة الفعل الاجتماعى للوصول إلى تفسير سببى لمجراه وآثاره لأن هذا الفعل يتضمن كل السلوك الإنسانى الذى يقوم به الفرد، ويكون هذا السلوك مضفى عليه معنى ذاتى من الفرد، فالفعل يكون اجتماعى من خلال المعنى الذاتى

---

(1) Richard J. Bernston, op. cit., p. 140.

(2) Ibid., p. 140.

الذى يضفيه عليه الفرد بعد أن وضع سلوك الآخرين فى اعتباره، فالفعل بهذا المعنى يفهم ذاتياً ويقوم بتوجيه سلوك جميع الموجودات الإنسانية الفردية(١).

ومن هنا نجد أن تصور «فيبر» لعلم الاجتماع يجمع بين الفرد والتفسير العلمى السببى والأهداف، إن هدف «فيبر» ومنهجه لم يتضمن ملاحظة مباشرة للفعل الإنسانى لأن معظم مشاكله الفكرية كانت تشتق من حدود المواقف التاريخية التى تكون الملاحظة المباشرة فيها غير ممكنة، ولكن الأساس فيها كان محاولة لتخيل الخبرات العقلية Mental Rexperiments ولقدطالب «فيبر» بأن يكون الفهم السوسيولوجى مطلقاً ويعتمد على قيمة الأفعال التى يقوم بها شخص أو يقوم بتشخيصها مجموعة من الأفراد(٢).

إن «فيبر» فى تحليلاته اعتمد على البناء النظرى الذى أطلق علية النموذج المثالى Ideal Type وهو عبارة عن مجموعة من البناءات الفرضية توضع جميعاً على أساس مجموعة من التصورات والقوانين العامة، أما الفهم هنا فهو يعتبر أداة ضرورية توصلنا إلى هذه الفروض والتصورات فى هذه النماذج المثالية، أما المنهج فى علم الاجتماع فيجب أن يهتم بدراسة الفعل الاجتماعى مؤكداً على الجانب الذاتى فى تفسيره للسلوك الإنسانى ويحدد لنا الطبيعة العلمية لمثل هذه التفسير وهو بذلك استطاع أن يمدنا بمعرفة طبيعة الفعل الاجتماعى وأصل المجتمع وذلك حين قربنا من عالم الحياة اليومية للأفراد، كما أنه قد أمدنا بالقدرات الإنسانية التى نستخدمها فى فهم دوافع وعواطف ومعانى الموجودات الإنسانية الأخرى(٣).

فالهدف الأساسى من مناقشة منهج «فيبر» هنا هو بيان كيف استطاع «فيبر» أن يبحث عن موقف بديل يحل به مشكلة علاقة الفهم بالعلم

---

(1) Howard Schwartz, Jerry Jacobs, Qualititive Sociology, A method to the Madness, New york, p. 17.

(2) Ibid., p. 18.

(3) Ibid., pp. 18 - 20.

الموضوعي والذى تحقق أيضاً من خلال فينومينولوجيا الحياة اليومية، فالمدخل الفينومينولوجي إنما يركز على المعنى الذاتي الذى يشتق من الجوهر الأساسي في مدخل «ماكس فيبر» فالمنهج الفيبري منهج يقودنا إلى المشاكل الأساسية في المعرفة العلمية فهو طبيعي ومحدد وأكثر من ذلك أنه حل بوضوح مشكلة التحليل السوسيولوجي وهذا ما اهتمت به المدرسة الفينومينولوجية بعد ذلك[1]. والذى ركزت فيه على المعاني التي يضفيها الفاعلين على أفعالهم، فالمعنى الذاتي للفعل يجب فهمه لأنه أساس الدراسة في المدخل الفينومينولوجي[2].

الخلاصة:

على الرغم من اشتراك العلوم الطبيعية والدراسات الإنسانية في المنهج، إلا أن هذا المنهج يواجه في الدراسات الإنسانية صعوبات عدة، خصوصاً حينما يكون هناك أحياناً استحالة في إجراء التجارب أو حينما تعترض في أحيان أخرى على إجراء مثل هذه التجارب لأسباب أخلاقية أو حينما يتعذر التوصل إلى الموضوعية أو حينما تستعصى المشاكل على التحليل بسبب تعقدها أو حينما يتعذر إحالة الكيفيات إلى كميات تخضع للمعالجة الرياضية، ولأجل هذا كله فإن الضبط الصوري المتحقق في النظريات العلمية يصعب الوصول إليه في الدراسات الإنسانية، ومع ذلك فإن استخدام الفهم يقدم تعويضاً له قيمته الكبرى في هذا التصور، وذلك حينما يمكننا من فهم الارتباطات القائمة بين حوادث الدائرة الإنسانية، ذلك الفهم الذى لا يستطيع العلم الطبيعي في اقتصاره على الملاحظة والتعميم، فلا معنى لأن نسأل كيف تسقط الزجسام وفقاً لقانون الجاذبية، ولكننا يمكن أن نسأل لماذا تسقط الأجسام وفقاً لقانون الجاذبية، ومن خلال الفهم وحده يمكن أن نجد إجابات على تلك

(1) Arun Suhay, Max Weber and Modern Sociology , London, 1971, pp. 17 - 18.

(2) Mauice natanson and Von Bredo, op. cit., p. 145.

الأسئلة أو على تلك المشاكل، إن الإعجاب الأعمى بالعلوم الطبيعية أفقد الباحثين قدرتهم على رؤية تلك الميزة التى تميز الدراسات الإنسانية، فالمدرسة السلوكية على سبيل المثال لا تستخدم منهج الفهم فى نظريتها المعرفية بدعوى أن مثل هذا المنهج لايوجد له نظير فى العلوم الطبيعية، فالفهم ليس فقط عملية معرفية لايمكن تحاشيها، ولكنه أيضاً وسيلتنا فى تفسير هذه الوقائع الموجودة فى العالم الفيزيقى، إن استخدام المعرفة الإنسانية المرتكزة على فهم المعنى هى الخاصية الرئيسية لكل الدراسات الإنسانية وهى تضعنا أمام تحديات معينة وفرص خاطئة فإذا لم تواجه هذه التحديدات فإن البحث أياً كانت دقة أدواته سينتهى بنا إلى قنوات عمياء، وأن أى جهد يبذل فى العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع ويكون مرتكزاً على جميع المعطيات ووضعها فى صورة إحصائية واستخلاص النتائج من الارتباطات القائمة بينها هو ضائع ما لم يكن تصنيف المعطيات مرتكزاً على فهم معناها[1].

ملاحظات:

لقد وضع «ألفريد شوتز» تحفظات كبيرة على تحليل «ماكس فيبر» وبخاصة فى تعريفه لعلم الاجتماع بأنه العلم الذى يحاول التوصل إلى تفسير سببى للفعل الاجتماعى لمعرفة مجراه وآثاره، والذى يذهب فيه أيضاً إلى أن الفعل يكتسب صفة اجتماعية من خلال المعنى الذاتى الذى اهتم به «فيبر» لايمثل عنصراً أساسياً ونهائياً للظواهر الاجتماعية، بل يحتاج إلى مزيد من الدراسة، ففينومينولوجية «شوتز» بدأت حينما نظر إليها باعتبارها تتكون من المفاهيم المادية التى يكونها الأفراد عن العالم وعن بعضهم البعض خلال حياتهم اليومية، ومن ثم فإن الأفكار التى يقدمها علماء الاجتماع ماهى إلا أفكار عامة لأفكار فردية يكونها الأفراد على مسرح الحياة الاجتماعى.

---

(١) هـ. ب. ريكمان، منهج جديد للدراسات الإنسانية، ترجمة محمد على، على عبد المعطى، بيروت، ١٩٧٩، ص ٣١٨.

ومن هنا نجد أن الفينومينولوجية هى امتداد لبعض القضايا التى طورها «ماكس فيبر» مثل اهتمام الفينومينولوجيون بالمعنى الذاتى لأفعال الأفراد وحينما ابتعدت عن الخط الذى سارت فيه الوضعية وبدأت فى البحث عن منهج جديد خاص بالدراسات الإنسانية.

فالمدخل الفينومينولوجى كان امتداداً لتيار معين داخل علم الاجتماع يهاجم الوضعية التى تحاكى العلوم الطبيعية، فهو مدخل يريد أن يكون أكثر اتصالاً بالأفراد - فاهتمام شوتز بأفكار ماكس فيبر أتاح لهذا المدخل فرصة الاعتماد على الأفراد فى تفسير واقعهم الاجتماعى.

ب - الفينومينولوجيا والماركسية:

تعتبر كل من النزعة الماركسية والفينومينولوجيا الوجودية تطوير للقواعد الجديدة فى علم الاجتماع لأن كل منهما يركز على الوعى الإنسانى وانعكاساته المختلفة التى تعتبر مركز اهتمام الفينومينولوجية الوجودية[1]

ولذلك فنحن فى ذلك الجزء نحاول إقامة أرضية مشتركة بين الفينومينولوجيا والنزعة الماركسية، فنحاول أولاً اختبار القراءات الماركسية عند «سارتر» وتأكيده على المادية الجدلية، ونحاول ثانياً أن نتعرف على مدخل بونتى "Ponty" فى فلسفة التاريخ، ونحاول ثالثاً أن ندرس آراء بعض الفلاسفة الذين حاولوا إقامة علاقة بين الفينومينولوجيا والماركسية من خلال التصورات التى استخدمها هوسرل[2].

ولكن سيبدو لنا من النظرة الأولى أن هناك قليلاً من أوجه التشابه بين الفينومينولوجيا والماركسية وبخاصة فى الفلسفة ونزعتها المادية الجدلية والتى غالباً ما يكون موضوعها الأساسى هو التأكيد على القوانين الموضوعية فى التاريخ، فى الوقت الذى تؤكد فيه الفينومينولوجيا الوجودية على شعور

---

(1) American Joruanl of Sociology , Volum 83, Number 4, January, 1978, p. 124.

(2) Phenomenology and Philosophical Understanding, London, 1975, p. 231.

ووعى الأفراد وهو الشئ الذى فقدته الماركسية واعتبرته بداية الاختلاف الفكرى بين الأفراد واعتبرته أيضاً نتاج للنزعة الماركسية والنزعة الوجودية لأن كل منهما يؤكد على الوجود الشخصى أكثر من تأكيده على الوجود أو الجوهر المجرد(١).

إذا نظرنا إلى كل من المدخل الفينومينولوجى والتحليل الماركسى نجد أن كل منهما يعتبر مصدراً أساسياً لنقد المداخل السوسيولوجية الكلاسيكية منها والمعاصرة، ولقد نتج عن هذين المصدرين اتجاه جديد فى علم الاجتماع، كما أنه عمل على إعادة خلق نزعة ماركسية جديدة، وكان من أهم الانتقادات التى وجهت إلى هذه المداخل السوسيولوجية هى أنها فشلت فى إضافة أى فهم جديد لطبيعة العالم الاجتماعى ولطبيعة العلاقة بين الإنسان والمجتمع، وفشلت أيضاً فى أن تضع فى حسبانها طبيعة المجتمع والحقيقة الاجتماعية، ولذلك فمن الأسباب الهامة التى دعت إلى دمج كل من الفينومينولوجيا والماركسية هى عدم وفاء المداخل السوسيولوجية بالأغراض القائمة من أجلها وزيادة الاعتراف بفقر الفكر الماركسى الكلاسيكى وخصوصاً إهماله لنظرية الشعور، فالدمج بين علم الاجتماع الماركسى وخصوصاً إهماله لنظرية الشعور، فالدمج بين علم الاجتماع الماركسى والفينومينولوجيا نتج عنه نزعة ماركسية فينومينولوجية، لأن هناك أوجه للتشابة بينهما خاصة فى النقد الذى يقدمه المدخل الفينومينولوجى للنزعة (الاقتصادية والسياسية)، ولكن ماهو المقصود بأزمة الماركسية، وماهى الأسباب التى دعت كثيراً من العلماء إلى رفض الماركسية التقليدية والعمل على تكوين الماركسية الفينومينولوجية(٢).

ولقد كان عمل جورج لوكاتش Lukacs عن التاريخ والشعور الطبقى مصدراً رئيسياً هاماً لتكوين هذه القاعدة الماركسية الفينومينولوجية، فعمله

---

(1) Ibid., p. 231.

(2) Sociology, Phenomenology and Marxian Analysis, London, 1976, pp. 115-116.

يعتبر دافعاً عن الماركسية والبحث عن وسيلة لتطوير الفكر الماركسي، وبرغم أنه كان يهدف من عمله هذا التعريف على مدى ملائمته للتحليل السوسيولوجي، إلا أنه يعتبر مصدر أساسي هام في القراءات الفينومينولوجية عند ماركس، فقد أظهر هذا العمل مدى تأثير الفينومينولوجيا الوجودية بموضوع النقد الذاتي، وأظهر مدى اهتمامه بحياة الإنسان الفطرية، فعمله يعتبر نتيجة للشعور وللتأمل الذاتي، أما المعنى الذي يقصده Lukacs «بأن الماركسية هي منهج الإقناع العلمي والمادية الجدلية هي أصل الحقيقة فيها، هو أن المقارنة التي عقدها ماركس بين ظاهر الأشياء وباطنها هو اختصار لموقفه في النزعة الأمبيريقية والعلم في المعرفة والمنهج الجدلي، واعتباراً لوجهة نظره نجدأنه من الضروري تحليل المحتويات السياسية الواضحة وتفسير الأساس الثوري للمنهج الذي يدرس العلاقة بين الذاتية والموضوعية في العمليات التاريخية وأنه من الضروري أن نضع في اعتبارنا ضرورة الشعور الطبقي لأنه يختفي تحت الحقيقة الظاهرة، فهذا التشخيص لأهمية الشعور يعتبر ضرورياً لفهم طبيعة العمليات التاريخية والحقيقة الاجتماعية[1].

ولقد ذكر جورج لوكاتش Lukacs بأن المنهج الديلكتيكي يتخذ من مشكلة حقائق الأحداث وسيلة تمدنا بقبول الميزة التاريخية للحقائق الاجتماعية، ومن هنا نرى أن تصوره للعلم يعتبر مشروعاً اجتماعياً غريزياً ذا حقائق تجريدية، فالمنهج العلمي في العلوم يعالج الحقائق المفردة باعتبارها اهتمامات أساسية في المجتمع الرأسمالي، حيث أنه يعتبر الحقائق المنعزلة في الحياة الاجتماعية جوانب هامة في العملية التاريخية في العلوم الرأسمالية يكون رافضاً للمداخل التي تقبل الوحدة الجوهرية ككل، ومن خلال المنهج الديلكتيكي نجد أن وجود الحقيقة وجوهرها يعتبر ضرورياً في علاج الظاهرة نفسها باعتبارها نتائج للعملية التاريخية[2].

(1) Ibid., p. 117.

(2) Ibid., p. 118.

أما المنهج الماركسي عند لوكاتش Lukacs فهو يتبنى عملية الوفاق بين الذاتية والموضوعية في النتاج التاريخي للحقيقة، إن هذا الإزدواج بين الذاتية والموضوعية لايوجد فقط في كتابات «لاكس» لماركس ولكن أيضاً في النزعة الماركسية الفينومينولوجية والنظرية النقدية، وأن هذه النتائج هي التي جعلت السوسيولوجيون على استعداد لإعادة بحث ودراسة العلم الاجتماعي، ولدراسة العلاقة بين الفهم السوسيولوجي والإحساس العام، لأن هذه العلاقة تعتبر مفيدة في دراسة العالم الاجتماعي وتعتبر كتابات لوكاتش Lukacs دفاعاً عن النزعة الماركسية ، فهو يبحث عن وسيلة لتطوير هذا الفكر الماركسي إلا أن عمله هذا يعتبر مصدراً أساسياً هاما في القراءات الفينومينولوجية عند ماركس، كما أن هذه الأعمال تعتبر ذات أهمية خاصة في علم الاجتماع لأنه يركز على معرفة البناء الاجتماعي للأفكار الحقيقية، فعمله يعتبر محاولة لإعادة الفكر الماركسي وموافقة على نظرية الشعور في النزعة الماركسية، فلقد أكد على أهمية هذا الشعور أو الوعي في تحليلاته، كما أنه أكد على ضرورة التحليل المادي الجدلي الذي قاده إلى السؤال عن علاقة الحقيقة الاجتماعية بالعالم الطبيعي فهذه العلاقة تعتبر تمييزاً للبناء الإقتصادي وعلاقاته بعالم الحياة. ولكن ماهو المقصود بالماركسية الفينومينولوجية ؟ إن أحد وجهات النظر ترى أنه محاولة لاكتشاف المشاكل الماركسية والمنهج الفينومينولوجي وخصوصاً فينومينولوجية هوسرل وفي التجاوز به الفينومينولوجية في كتابات ماركس، والنظر إلى الماركسية باعتبارها نتيجة للفينومينولوجيا، والفينومينولوجيا باعتبارها غريزة في الماركسية(١).

أما إذا نظرنا إلى عمل باكي Paci نجده يركز أساساً على دراسة الاهتمامات العامة التي تظهر في كتابات كل من هوسرل وماركس، فقد قدم لنا كتابات هوسرل التي أكدت على تحليل اتجاه المعرفة الذاتية للإنسان

(1) Ibid., pp. 118 - 121.

ومحاولة فهم المجتمع والطبيعة، كما فى كتابات ماركس فى نقده للاقتصاد السياسى والرأسمالى، ولقد حاول Paci أن يبحث عن النقاط المشتركة فى عمل كل من هوسرل وماركس وفى تشخيصهما لأهمية التاريخ ورغبتهما فى توحيد العلوم وفى اغتراب الذات الإنسانية والمجتمع العقلانى وغيرهم، ولكى يؤكد باكى Paci على أهمية كل من الفينومينولوجيا والماركسية يجب عليه أولاً أن يختبر قراءاته عن أزمة هوسرل لأنها تعتبر جزء أساسياً من تحليله للنزعة الماركسية الفينومينولوجية، كما أن عمل هوسرل قد أسهم بطريقة سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة فى تكوين علم الاجتماع الفينومينولوجى عند شوتز، كما أن له دوراً كبيراً فى تقييم علم الاجتماع المعاصر(١).

إن أزمة هوسرل تمثل فشل العلم الحديث فى أن يمدنا بإجابة واضحة عن طبيعة الإنسان مثله فيذلك مثل النقد الماركسى للاقتصاد السياسى والأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج، فالإنسان لابد أن يصبح موضوعاً فى العالم الموضوعى، ولكى يصل هوسرل إلى فهم امكانية العلم فى دراسة الإنسان استخدم الأفكار النقدية والتاريخية عند ماركس وخاصة فى نقده لعلم الاقتصاد السياسى وفهمه للمادية، وكيف أن الدراسة العلمية للعالم الموضوعى الحقيقى ترتكز على نتاج التداخل الذاتى كزساس للعلم فشل فى أن يحل محل التشخيص المنهجى والعملى، فالعالم الحقيقى يمكن أن نعرفه من خلال الإدراك الذى يتكون من خلال خبرات الحياة اليومية، ولذلك فإن Paci يؤكد على أن ماركس يجب أن يقدم لنا معنى أساسى عن عالم الحياة باعتباره أساسياً فى المعرفة العلمية وخصوصاً فى الإدراك الحسى (الخبرات) الذى يجب أن يكون أساساً لكل العلوم. ويرى باكى Paci أن هوسرل فشل فى إمدادنا بتحليل كاف عن مسألة احتياجات المعيشة وظروف عالم الحياة وكان اهتمامه مركزاً على الاحتفاظ بالجوهر الجذرى، وهذا الذى جعل Paci يعتقد فى أنه من الممكن إعادة بناء التحليل الماركسى لأنه يرى مثلما يرى ماركس أننا لكى

---

(1) ibid., p. 122.

نفهم الأشياء لابد أن نرجع إلى أصولها التاريخية، كما أنه يرى أن لكى نفهم الإنسان ونكشف عن أيديولوجيته لابد أن نرجع إلى ما يسمى بالتحليل الفينومينولوجي أما إذا ناقشنا الكتابات الفينومينولوجية عند ماركس لابد أن نرجع إلى تمييز Paci بين النزعة المادية عند ماركس والنزعة الطبيعية التى تعتبر نقطة اهتمام هوسرل فى نقده للعلم، فلقد ذكر Paci بأنه لايوجد شك فى أن ظروف الإنسان تعتمد على إرضاء احتياجات معيشته ولكن هذا لايجعلنا نهتم ببعض محتويات النزعة الماركسية واهتمامها بالمادة التى جعلتها تفقد معناه وتسقط داخل معانى الاغتراب دون أن تضع فى اعتبارها الإنسان وأن تعمل على إنكار حريته وشعوره الذاتى (١).

فكتابات باكى لاتحاول فقط إثبات ضرورة التحويل إلى الذاتية وإلى التغلغل لذات الإنسان، ولكنه يحاول أيضاً إثبات أهمية النقد الماركسى للتجريد والتأكيد على التشخيص الكلى، لأن الماركسية ترى أن العلوم الاجتماعية قد فشلت فى أن تنظر إلى الإنسان باعتباره وحدة كلية، فالماركسية ترى أنهم قادرون على الاعتراف بتصوراتهم الخاصة عن الإنسان باعتباره جزء من الكل ومحاولتهم لرفع هذه التصورات الجزئية إلى مستوى إنسان الخبرة اليومية، ولذلك فقد قرر باكى أنه يجب اقتراح أن تكون المادة الذاتية لعلم الاجتماع ليست هذا المجتمع أو البناء الاجتماعى الذى يفهم على أنه مستقل عن الإنسان ولكن على العكس من ذلك يجب أن ننظر إلى المجتمع وإلى البناء الاجتماعى باعتبارهما حقيقة مستقلة وخارجة عن الأفراد فهى تمثل فهماً تاريخياً للإنسان فى المحتوى الثقافى والاجتماعى، فتصور المجتمع أو البناء الاجتماعى سوف يصبح ذات مغزى إذا جعلنا النشاط الإنسانى هو الشعور بهذا المجتمع، وأكد باكى على هذا المعنى فى مصطلح ماركس حينما أكد الثانى على أن الإنسان هو جوهر المجتمع وهو الخالق الوحيد للمجتمع الإنسانى وهذا

---

(1) Ibid., p. 142.

هو الذى وصل إليه هوسرل أيضاً، ومن هنا نجد أن Paci يرى أن عمل ماركس يحوى جوهر التحليل الفينومينولوجى لأن مدخله سوف يصبح علم تطور الإنسانية، فهو ليس عمل تجريدى أو مثالى ولكنه عمل يقوم على نزعة مادية خاصة، فالمشكلة الأساسية فى علوم الإنسان توجد عند كل من ماركس وهوسرل وهى مشكلة الذات الحقيقية، فالإنسان لابد أن يعالج باعتبار يمثل محتوى الموقف العلمى(١).

أما إذا نظرنا إلى كل من «سارتر» و «ميرلو بونتى» نجد أن كلاهما قد تأثر وبدرجة مختلفة بالنزعة الفينومينولوجية الوجودية.

سارتر والنزعة الماركسية:

ربما نجد أن أغلب المعانى التى جاءت فى كتابات سارتر الأولى كانت عن النزعة الماركسية وخاصة فى كتابه «المادية والثورة» الذى صدر عام ١٩٤٦ والذى نقد فيه الفلسفة المادية عند الماركسيين المحدثين، وذكر فيه أن العالم يتكون من أفراد فى النسق المادى، ذلك النسق الذى به علاقة بين الأشياء تلك العلاقة يقوم العلم بدراستها ويرى أن هذا العلم تحليلى وليس جدلى، لأن العلم الجدلى لايستطيع أن يقودنا إلى التاريخ الإنسانى وإلى الأغراض والقيم، أما فى كتابه «مشكلة المنهج» فنقد فيه النزعة المادية الجدلية وأشار إلى كيفية إعطاء الشروط المادية الخاصية المميزة للموقف والتى يقوم السوسيولوجيين والتحليليين السيكولوجيين بدراستها، ولكن سارتر على عكس الماركسيين يرى أننا لكى نحصل على فهم فترة تاريخية معينة فإن هذا يحتاج منا أولاً إلى فهم الظروف الإنسانية التى تحاول النزعة الوجودية إثباتها، وإذا نظرنا إلى كتابات سارتر التى كتبها عام ١٩٤٦ نجده أكثر تسامحاً فيمواجهة الماركسية، وهو يعتبرها فلسفة مناسبة لوقتنا هذا، فى الوقت الذى يرى فيه أن النزعة الوجودية تعتبر ذات إسهام مقيم فى الفكر الماركسى، وأن منهج الإنسان الكامل يمكن تحديده داخل الفلسفة الماركسية،

---

(1) Ibid., pp. 143 - 144.

ويرى أن اليوم الذى تفشل فيه الماركسية سوف تنقطع النزعة الوجودية أيضاً عن الانتشار[1].

ويرى سارتر أن من أهم التصورات الأساسية فى الفكر الماركسى تصور ماركس عن الاغتراب والذى يظهر فى علاقة الفرد بالمجتمع، أو بعلاقة الفرد بنفسه والتى تكون مناقضة لسعادته بالوجود الإنسانى، أما سارتر فهو يرى أن المجتمع هو الذى يخلقه الأفراد، وأن العلاقة بين الأفراد غالباً ما تتسم بالصراع وأن الأفراد يشعرون بالإغتراب حينما يكونون غير قادرين على تحقيق أهدافهم وحرياتهم من خلال وجود الآخرين، فمصطلح الاغتراب فى كتاب سارتر «مشكلة المنهج» يعتبر أحد اهتمامات سارتر التى حاول تحليلها سيكولوجياً من أجل اكتشاف نقاط اندماج الفرد بطبيعته، ولقد قرر سارتر أن النزعة الوجودية تستطيع عن طريق التحليل النفسى أن تدرس الموقف الذى يفقد الإنسان فيه ذاته[2].

نقد ماركسية سارتر:

لقد حاول لوكاتش فى نزعته الوجودية الماركسية عام ١٩٤٨ نقد مدخل سارتر فى نزعته الماركسية، وقد اتهم سارتر بأنه وضع للماركسية صورة هزلية ساخرة، وقرر أن نقده لسارتر يرجع إلى قبول سارتر لتصوره المادى الذى يوجد مستقلاً عن الوعى، ومع ذلك فقد اعتبر لوكاتش أن هناك عنصراً حقيقياً فى موقف سارتر يتمثل فى تأكيده على الفعل الفردى فى الوقت الذى استبعدت فيه الماركسية النزعة الذاتية واعتبرت الأحداث التاريخية هى التى تصنع المجتمع الإنسانى[3].

ويرى لوكاتش أن سارتر أغفل تأثير الظروف المادية على الأفراد والمجتمع، فالتحليل الماركسى للتاريخ يرى أننا لكى نفهم تاريخ المجتمعات يجب أن نرجع إلى الاقتصاد الذى يعتبر أساس المجتمع والحياة، ولقد أدركت

---

(1) Edo Pricevic, op. cit., p. 235.

(2) Ibid., p. 237.

(3) Ibid., p. 238.

النزعة الماركسية القوانين التاريخية والاتجاهات العامة للوجود الموضوعى ولكنها فى الوقت ذاته أنكرت دور الذاتية فى التاريخ، وعلى الجانب الآخر يقول لوكاتش أن الماركسية ترى أن الحرية الحقيقية يمكن تعريفها بعد الكشف على قوانين الطبيعة، فالعلم يضع القوى الطبيعية لخدمة الجنس البشرى، وهذه هى الحرية الحقيقية التى تؤثر فى أفعال الأفراد، ويرى أن سارتر قد أساء استخدام التصورات الاحتمالية للعلوم الحديثة والتى تبعد عن وجود الأحكام الذاتية بها، ولقد كان سارتر عكس لوكاتش حينما قرر أن التصورات الطبيعية ترتكز على خبراتنا بالأحداث اليومية التى تحيط بمواقفنا(١).

فالمدخل الماركسى يمكن أن نعتبره موضوعياً، كما أن به ذاتية وجودية ترتكز على العمليات التاريخية باعتبارها وجوداً موضوعياً، وطبقاً لسارتر فإن البحث الفلسفى يجب أن يكون أساساً لأى بحث يحاول اكتشاف المعانى التى ليست ظاهرة فى عملية الملاحظة، ولقد استخدم سارتر هذا المدخل للتفسيرات المختلفة فى عمله، وهو يقول أن المعنى الموضوعى لعمله يعتبر نتيجة المقارنة بين ما قدمه الكاتب من المنظور التاريخى وبين ما قدمه عن نفسه(٢).

ولقد كان هناك ناقداً آخر لسارتر فى محاولته التوفيق بين النزعة الوجودية والنزعة الماركسية وهو آدم شاف Adam Schaff الذى لاحظ أن سارتر فى مناقشته للمسئولية الفردية قد عالج الفرد ومسئوليته باعتبارهما أشياء مجردة، ولكن إذا نظرنا إلى الماركسية على الجانب الآخر نجد أن الأفراد فيها يستطيعون صنع قراراتهم وهم قادرون على الاختيار بين اتجاهاتهم ونشاطاتهم والتى غالباً ما تكون ضمن الظروف الاجتماعية لمسئوليتهم، فالنقد الذى وجهه كل من لوكاتش وشاف للنزعة الوجودية عند سارتر باعتبارها نتاج لتدهور المجتمع قد فتح المجال لسارتر حينما ذكر أن الفلسفة تعتبر أول الطرق العملية والتى تكون الطبقة العليا فيها واعية بذاتها، وهو

---

(1) Ibid., p. 238.

(2) Ibid., p. 239.

يعتقد أيضاً أن الفيلسوف مثل أى شخص آخر له دور لابد أن يؤديه فى الموقف التاريخى، وأكثر من ذلك لقد قرر سارتر أن الهندسة البشرية تعطى لنا فهماً ذات مغزى للعمليات التاريخية أكثر من العمليات الاقتصادية(١).

ومن مميزات النزعة الماركسية عند سارتر تأكيده على تصور الاغتراب ولكن آدم شاف يرى أن هناك اختلافاً بين استخدام سارتر لهذا التصور واستخدام ماركس له، ولذلك سنجد أنه من خلال الخطوط الفكرية للاقتصاد عند ماركس إن الإنسان يصبح مغترباً من خلال عمله وذلك حينما يملك هذا العمل الأقلية الخاصة، أما فى نقد سارتر لهذا النوع من الاغتراب فقد فسره عن طريق العوامل التى تسبق الاقتصاد ، وقد أرجعه إلى طبيعة العلاقة بين الأفراد والمجتمع ففى زيادة هذه الأقلية يزداد شعور الإنسان بالاغتراب الاجتماعى(٢).

موريس ميرلو بونتي والنزعة الماركسية:

لقد كان ميرلو بونتى Merleau - Ponty واقعاً تحت تأثير الفكر الماركسى وقد ظهر هذا واضحاً فى المحاولة الأولى عام ١٩٣٠ فى فينومينولوجية الإدراك وفى مقالاته عن الشعور واللاشعور ، ولقد كان «بونتى» مثل «سارتر» يرى أن هناك صعوبة فى قبوله لكل تصورات النزعة الماركسية وبخاصة فيتصورها للإنسان باعتباره النتاج النهائى للعمليات المادية للتطور، وعلى أن هناك عوامل محددة للتاريخ الإنسانى لابد أن يخضع لها الإنسان، ورغم ذلك نجده وافقها فى تأكيده على الجوانب الاقتصادية فى المجتمع والتى يكون لها تأثير فى حياتنا، ولقد كان «بونتى» متعاطفاً مع الكتابات الأولى للماركسية والتى ترى أن الإنسان يكون واعياً بذاته كموجود له كيان اجتماعى، كما أنه قد أشار بأن النزعة الماركسية ترى أن كل التكوينات الأيديولوجية فى المجتمع والأخلاق والفقانون هى الطريق الذى يبنى عليه المجتمع علاقاته الأساسية،

---

(1) Ibid., p. 240.

(2) Ibid., p. 240.

ولقد أكد «بونتى» على أن الاقتصاديات والأيديولوجيات ترتبط معاً فى التاريخ الكلي مثلها مثل المادة والشكل في العمل الفنى، فالعوامل الأيديولوجية ترتبط مع الاقتصار برباط داخلي[1] .

ولقد قرر «بونتى» بأن «ماركس» سعى فى أعماله الأولى كييعمل على تكامل الجوانب الذاتية والموضوعية لخبراتنا، ولقد كان ماركس وبونتى يقدمون لنا أفكار عن الموضوع الإنسانى الذى تهتم به الفينومينولوجيا الآن وتحاول تطويره، ولقد كان ماركس يأمل فى حديثه عن الموضوع الإنسانى أن يقول بأن معانى أى موضوع يمكن أن توجد فى الخبرة، وأن روح المجتمع كما يقول بونتى يمكن إدراكها من خلال هذه الموضوعات الثقافية والخبرة، وطبقاً لبونتى نجد أن فلسفة التاريخ تفترض أن التاريخ الإنسانى لايتكون من مجموعة من الحقائق المتقاربة كالقراءات الإنسانية والأحداث والأفكار والاهتمامات والنظم، ولكنه يتكون من المعنى الكلى، ولقد كان بونتى مثل هيجل فى نظريته عن التاريخ التى أكد فيها على أن كل القوانين العامة التاريخية تمت عن طريق الإنسان، ولقد كان هناك كثير من أعمال «بونتى» التى أسهمت فى فينومينولوجيا التاريخ وفي الأبعاد التاريخية للخبرة الإنسانية، وبرغم ذلك نجده يؤكد على أن التاريخ يعتبر شيئاً غامضاً لأن تقييمنا للأحداث التاريخية يتغير من فترة لأخرى، ولقد كان هذا التفسير الغامض للتاريخ هو الذى أخذه بونتى من تفسيرات الأرثوذكس فى النزعة الماركسية[2] .

ولقد نقد لوكاتش بونتى كما نقد سارتر من قبل وهذا النقد كان منصباً على كتابات بونتى الأولى والتى كان متعاطفاً فيها مع الماركسية، فلقد ذكر Lukacs بأن الماركسية ترى أن التاريخ عبارة عن تحديد موضوعى مباشر، أما تاريخ بونتى فهو يجمع بين التحديدات العقلانية والعرضية فى آن واحد،

---

(1) Ibid., p. 241.

(2) Ibid., pp. 242 - 244.

فالتاريخ عند بونتى يظهر فى اتجاهات محدودة، أما لوكاتش فهو يرى أن التاريخ لايمكن أن نعتبره كما ذكر بونتى وجوداً غامضاً يهدف إلى فهم الإحساس السياسى المعاصر، ذلك الاحساس الذى يأتى من النظام الطبيعى للأحداث، ولكنه يرى عكس ذلك حينما ينظر إلى التاريخ باعتباره شئ واضح وأساسى فى تفسير الأحداث فى المجتمع(١).

محاولات أخري للتوفيق بين الفينومينولوجيا والماركسية:

استمر عدد كبير من الفلاسفة فى محاولتهم التوفيق بين الفينومينولوجيا والنزعة الماركسية، ولقد بدأ معظمهم من موقف الماركسية التى ترى فيه أن الوعى الطبقى يظهر من خلال صراع البناء العلوى سواء أكان سياسياً أو دينياً أو قانونياً أو أيديولوجياً مع الظروف المادية أو البناء التحتى لأن هذه الأبنية الفوقية تعتبر حقيقة واقعة للقوى الإنتاجية الاقتصادية. ولقد ذكر Tran - Duc Thoa - أن تشريح الأبنية الفوقية أو العوامل الأيديولوجية يعتبر عملية أساسية لفهم التاريخ (باعتباره حركة للقوى الإنتاجية) ولقد ذكر أيضاً أن الشكل الأيديولوجى يعتبر انعكاس للاهتمامات المادية التى ترفض فهم التاريخ وأن هذا الشكل الأيديولوجى يمكن تفسيره على أنه تحول عقلانى للخبرات الحقيقية فى الحياة والتى تأتى عن طريق التطور الفعلى للبورجوازية، ومن هنا نجد أن هذه الأبنية الأيديولوجية تكون نسبية لأسلوب الإنتاج ليس لأنها تعكس هذا الأسلوب، ولكن لأن معانيها تأتى من خلال الخبرة التى نعيشها والتى تتأثر بالقيم الروحية، وبعبارة أخرى أن كل من الاقتصاديات والأيديولوجيات تعتبر ظواهر للطبيعة الإنسانية، أما كما ذكر «بونتى» أن فكرة الاقتصاد تمتد داخل عمليات الإنتاج وصراع القوى الاقتصادية، فالمشكلة الاقتصادية كما يقول Thoa لاتكون فقط بإقامة اقتصاد جديد يتحقق عن طريق الإنسان لأنه لايعتبر النظرية الماركسية عقيدة ولكنها تعتبر مرشداً ودليلاً للفعل(٢).

---

(1) Ibid., p. 245

(2) Ibid., p. 245

وبرغم أن النزعة الماركسية تعتبر مشابهة لفينومينولوجية هوسرل الأخيرة نتيجة تأكيدها على عالم الحياة، ومع ذلك فقد لاحظ Thoa أن تصور هوسرل عن عالم الحياة يختلف عن العالم المادى للماركسية لأن الأول يمكن تحديده عن طريق الذات التكوينية وعن طريق الفعل الانعكاسى، كما أن عالم الحياة هذا يعتبر ذات جانب تجريدى للحقيقة لأن هذه الحقيقة تعتبر هى الطبيعة ذاتها أو المادة فى الحركة الجدلية، ولذلك فهو يقول أن الفينومينولوجيا لاتستطيع فهم المحتوى المادى لخبرات الحياة، وبرغم اهتمام Thoa بالنزعة الماركسية والفينومينولوجيا إلا أنه يرى أن الفينومينولوجيا تعتبر فهماً للحاضر ولذلك فقد سعى إلى أن يضع الفينومينولوجيا على الأساس المادى الموضوعى، وبذلك نجد أن Thoa استطاع أن يحقق القوى الإنتاجية والتاريخية باعتبارها موضوعات فى الطبيعة[1].

أما سبيجلبرج Spiegelberg فهو يرى أن الماركسية الفرنسية الجديدة تعتبر فرع من الكتابات الهيجلية المبكرة والتى ترى أن الإنسان هو أصل كل شئ، فهذا النوع من النزعة الإنسانية الماركسية إنما يقودنا إلى التفسير الوجودى، ولم يعتقد سبيلجبرج Spiegelberg بأن الكتابات السياسية للوجوديون توجد فى كثير من الملامح الفينومينولوجية والتى توجد عند سارتر وبونتى وأصول الفينومينولوجيا فى الوعى الطبقى، ومع ذلك فقد وصل إلى نتيجة هامة مؤداها أن الرابطة بين النزعة الوجودية الفينومينولوجية والنزعة الماركسية تعتبر راية نادرة يمكن أن تفسر عن طريق الموقف الفرنسى وخاصة فى الوجود الاجتماعى والسياسى لليبرالية والمحافظة، وهذه قادته وقادت كثير من المفكرين الذين اعتمدوا على كتابات ماركس الأولى فى المخطوطات الفلسفية والاقتصادية إلى الاعتقاد بأن عملية الوجود التاريخى تحكم بقوانين يمكن مقارنتها بقوانين الطبيعة لأنها تؤكد على الصفة الإنسانية الجوهرية فى كتابات ماركس الأولى، فالتاريخ ينتج من الطريق الذى يكون الإنسان فيه هو محرك الموقف الاجتماعى فى المجتمع والتاريخ[2].

(1) Ibid., p. 246.

(2) Ibid., p. 246

أما مالي Mally فمن طريق نظرته الثاتبة إلى مذاهب ماركس الأولى وجد أن هناك تشابهاً بين الموقف الفينومينولوجي والوجودي، وقد لاحظ أن فلسفة ماركس الأولي تعتبر نشاطاً للنزعة النقدية والتي تعتبر هامة لفهم الوجودية والمثالية من خلال دراسة ماهو موجود، فطبقاً لماركس نجد أن العالم التاريخي للنظم الإنسانية ذات محتوى أخلاقي وعقلاني وهذا هو واجب الفلسفة لفهم هذا المحتوى، كما أنها تعمل على نقد هذا العالم من أجل إثبات هذا العالم وهذه علامة واضحة في الخط الفينومينولوجي ،هذا وقد أخذ ماركس في أعماله الأولى بعض أفكار Feurback عن وجود الأنواع، فالإنسان في نظره يعتبر موجوداً واعياً قادراً على التصورية، وفي الوقت نفسه يكون على علم بذاته يشارك في الطبيعة العامة مع الآخرين ومعرفة ذاته باعتباره عضواً موجوداً للأنواع، وهذا هو أساس وجود المجتمعات الإنسانية، فالنظم السياسية الموجودة تحكم بواسطة البعد الأخلاقي العام لطبيعة الأفراد في هذا المجتمع، وهي بالتالي تعتبر جانباً من الحرية، أما في المجتمعات الحديثة فالإنسان يعتبر نتيجة للوجود الذي يبعده عن أهدافه، إن كتابات ماركس الأولى ترى أن الحقيقة لاتوجد مستقلة عن وعي الإنسان وهذا المذهب الماركسي يتشابه مع تصور هوسرل في القصدية، إن كتابات ماركس، كما لاحظ Avineri ، تشتق من فينومينولوجية هيجل في الفعل، فوجهة نظره ترى أن الحقيقة تأتي من خلال وعي الأفراد الذي يأتي بدوره من خلال نشاطات الأفراد، فالحقيقة غالباً ما تعبر عن حقيقة الأفراد، فالقوى الإنتاجية توجد في الأفعال الاقتصادية للإنسان، والنشاط الإنساني الواعي يدخل في البناء الاقتصادي المادي، ونحن نستطيع أن نشخص هذا الثبات ونتحقق من الظروف المادية للحياة من داخل الأبنية الفوقية أو الأيديولوجية والتي ترضي التكوينات الاجتماعية (مثل العائلة – المجتمع – المدنية) والتي لها دور في النشاطات الاقتصادية في المجتمع[1].

---

(1) Ibid., pp. 247 - 248.

- ماذا يمكن أن نقول عن محاولات التوفيق بين الفينومينولوجيا والنزعة الماركسية؟ نستطيع أن نجد مدخلين في الفينومينولوجيا والوجودية يهتمان بالنزعة الماركسية:

أولهما : Thoa الذى تحرك من الفينومينولوجيا إلى العالم المادى وحاول تفسيره تاريخياً أكثر من تفسيره علمياً، وذكر أن محاولة التوفيق بين النزعة الماركسية والفينومينولوجية تحتاج إلى تفسير حقيقى.

ثانيهما : سارتر الذى سار في الاتجاه المضاد وقرر أن الموقف المادى للماركسية يمكن أن يكمل عن طريق النزعة الوجودية، وأكثر من ذلك يرى سارتر أن الحاجات الذاتية أكثر أساساً من السلوك الاقتصادى بينما يؤكد ماركس على القوى الإنتاجية والعمل الموضوعى، فالتشابه بين النزعة الوجودية الفينومينولوجية والنزعة الماركسية يبدو لنا أكثر وضوحاً فى الهيجلية الماركسية، فكل معنى فى تصور الفينومينولوجيا له علاقة بالتصورات الهيجلية عن التجاوزية التى تشير إلى محاولات لدراسة العلاقة بين الظروف الظاهرة للأشياء وبين بناء الذاتية، وهذا المدخل يأتى من الماركسية الأولى. وفى عمل هوسرل يجب أن نركز على فينومينولوجيته التجاوزية التى تتجه إلى البحث عن ردماج الفرد داخل العالم، أما التاريخ فى رأى هوسرل فهو تاريخ الأفكار أكثر من تاريخ الأحداث التى يدرسها المؤرخين، وبذلك نجد أن تفكير هوسرل متعاطفاً مع الموقف الهيجلى وبالماركسية الأولى وذلك من خلال محاولته لفهم تاريخ الفكر العلمى حيث أن هذه المحاولة تعتبر فهماً لعالم الحياة الفردية[١].

لقد فشل علم الاجتماع المعاصر فى أن يوصلنا إلى مسألة التمييز بين الموضوعية والذاتية لأنه قد أهمل هذه المشكلة وهى التى يطلق عليها العلاقة بين علم الاجتماع والحقيقة الاجتماعية أو العالم الاجتماعى للحياة اليومية ولذلك فإننا نرى أن المشروع السوسيولوجى يعانى من مشكلة التحقق الذاتى، لأن طبيعة الحقيقة الاجتماعية أو المشكلة التى تحاط بعلم الاجتماع تعتبر

(1) ibid pp 249 - 250

اساسية هنا فلا نستطيع أن نقول أن التحليل الماركسى قد حل كل المشكلات التى ظهرت فى علم الاجتماع والتى قدمت طريقة لفهم طبيعة المشكلات التى تحيط بعلم المجتمع، فعلم الاجتماع يطالب الآن بأن يكون علم المجتمع فيجب عليه أن يؤدى دوراً فى التغيرات يطالب الآن بأن يكون علم المجتمع فيجب عليه أن يؤدى دوراً فى التغيرات غير المباشرة للسياسة الاجتماعية والتى توجد واضحة فى توجيه النظرية والممارسة فى هذا النظام، فالعمل السوسيولوجى سواء كان البحث أو النظرية فيه لابد أن يأخذ مكانه داخل العالم الاجتماعى ويجب على هذا العمل أن يحدد عن طريق تحديد العالم الاجتماعى وجميع أشكال الممارسة السوسيولوجية باعتبارها تفسيراً سياسياً وأخلاقياً للإنسان الذى يعيش فى هذا العالم، ولكى نعمل على أن يصبح علم الاجتماع علماً تطبيقياً يجب أن تسخر كل مدلولات هذا العلم سواء الصناعية أو التكوينية أو السياسية أو المنهجية فيه فيدراسة المشاكل الاجتماعية ودراسة المواقف والسلوك، فالمعرفة السوسيولوجية يجب أن تكون نموذجاً مثالياً يركز على اهتمامات المحافظة على حرية القيمة من خلال نزعات الرد للظاهرة الاجتماعية، فعلم الاجتماع لايعتبر علماً اختيارياً أو نقدياً ولكنه يعتبر علماً أخلاقياً للمجتمع، ولذلك فنحن نقرر هنا أننا بحاجة إلى إعادة التحليل الماركسى لتجعله أكثر ملائمة لعلم الاجتماع، وخصوصاً أننا يجب أن نؤكد على الطبيعة الجدلية للحقيقة الاجتماعية، ونركز على أهمية التعريف الذاتى، فإن إعادة مثل هذا التوجيه يعتبر نقدياً فى توجيه علم الاجتماع تجاه قبول المواقف الموضوعية والحقيقة للنظام الاجتماعى والمجتمع أو فى أسلوب الإنتاج(١).

فمن واجب علم الاجتماع الاهتمام بالنماذج العلمية التى يجب أن تشتق من العلوم الطبيعية ومن المداخل النقدية، لأن هذا يعتبر هاماً فى طريق التغير الجذرى للشعور والفهم اللذان يعتبران ذات أهمية، فيجب على علم الاجتماع أن يهتم بالعنصر الذاتى وتطوير الذاتية العقلانية فى المجتمع حتى نستطيع بذلك أن نصل إلى نزعة علمية سليمة.

---

(1) Barry Smart, op. cit., pp 184 - 185

جـ - الفينومينولوجيا والتفاعلية الرمزية:

تمهيد:

إن الغرض الأساسى لعلم الاجتماع هو فهم الجماعات الإنسانية والمجتمعات ، ولكن كيف يمكننا فهم هذه الجماعات الإنسانية؟

إن بعض السوسيولوجيين من أمثال التفاعلين الرمزين أشاروا إلى وسائل الاتصال والرموز باعتبارها مفاتيح هامة لفهم الحياة الاجتماعية، فالرموز يجب أن تكون نقطة البدء فى فهم هذه الحياة(١) .

ولقد ذكر «كولى» أن الحياة الإنسانية فى أى مجتمع إنما تعتمد على العلاقة بين الجوانب الفردية والاجتماعية، كما أنها تعتمد على عمليات الاتصال، فالاتصال لايتحقق فقط على مستوى المجتمع، ولكن أيضاً بين الجماعات المختلفة عن طريق وسائل التفكير العام بينهم حيث يرى أنه من خلال عمليات الاتصال لابد وأن يظهر العالم الاجتماعى والعالم الطبيعى الذى يحيط بنا، وهذا العالم الاجتماعى يظهر فى خبراتنا الداخلية(٢) .

ومن هنا نرى أن هذا المنظور محاولة نظرية ومنهجية تنهض على أسس فلسفية وسيكولوجية وتتطلع نحو تحقيق فهم أكثر عمقاً وأكثر ثراء للسلوك الإنسانى والعلاقات الاجتماعية بل ولعالم الحياة اليومية برمته، وحينما نصف التفاعلية الرمزية بأنها منظور Perspective فإن ذلك يعنى أنها ليست نظرية بالمفهوم المنطقى الاستنباطى لهذا المصطلح، كما أنها ليست كذلك أيضاً حينما يستخدم مصطلح النظرية للدلالة على أنماط محدودة للعلاقات أو الظواهر أو الوقائع أو المجتمعات، والمنظور لايزيد عن كونه اتجاهاً أو مدخلاً نظرياً ومنهجياً يتضمن رؤية العالم الظاهر والوقائع الاجتماعية التى ترتكز على

(1) James W. Vander Zaner, Sociology, The Ohio State University, p.17.

(2) John Marry, Reference Groups and The Theory of Revolution, London, 1972, p. 4.

تصورات فلسفية معينة بحيث تؤثر هذه التصورات فى النتاج النهائى للبحث والتحليل، ولعل هذا هو الذى دفعنا إلى التفرقة بين «النظرية» ، و «المنظور» فالأولى، دائماً تتجه إلى التفسير والتنبؤ من خلال نسق محكم من القضايا المرتبطة فيما بينها ارتباطاً منطقياً خالياً من أى تناقض أما المنظور فهو لايتضمن قضايا قابلة للتحقق الأمبيريقى بالطرق المنهجية المألوفة وإنما ينطوى هذا المضمون على مجموعة من الأفكار المفترضة التى يجب أن تتلائم معها أحداث الحياة اليومية ووقائعها [١].

فالتفاعليون الرمزيون قد عملوا على نمو النظرية السوسيولوجية من خلال تركيزهم على العاطفة، حيث أنهم لاحظوا أن هذا التركيز قد أهمله السوسيولوجيون المعاصرون برغم أن مجهوداتهم تجاه هذه النظرية قد عملت من قبل عن طريق بعض العلماء من أمثال تيرنر Turner عام ١٩٧٠ و Hochischild عام ١٩٧٥ و Kewper عام ١٩٧٨، ولقد حاول السوسيولوجيون بعد ذلك أن يركزوا على دراسة العاطفة ومعالجة قضية الشعور فى أعمالهم وكانت أول محاولة هى التى قام بها جوفمان عام ١٩٧٦، ولذلك فسوف نركز هنا على بعض جوانب العاطفة من أجل إعطائها الميزة الاجتماعية، ولكن لماذا ركز التفاعليون دراستهم على العاطفة برغم تركيز علماء الفسيولوجيا والنفس والفلسفة عليها من قبل؟

ربما تكون الإجابة الواضحة على هذا السؤال هو أن العاطفة تشمل جميع الشئون الإنسانية، كما أن بعض أنواع العاطفة تعتبر أساسية فى عملية الضبط الاجتماعى التى عرفها المجتمع ولايستطيع العيش بدونها، كما أن الفهم الكامل للسلوك الاجتماعى يجعل السوسيولوجيون مضطرين إلى دراسة دور العاطفة فى الحياة الاجتماعية، ومن الأهمية هنا أن نعرف أن تفسير الخبرة العاطفية يحتاج إلى منظور سوسيولوجى لأن النظريات الفسيولوجية

---

(١) محمد على محمد على، علم الاجتماع، والمنهج العلمى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨١، ص ٢ – ٣.

والسيكولوجية لم تعن بهذا الغرض، وهنا ستكون محاولتنا مركزة على المنظور السوسيولوجي والنزعة التفاعلية الرمزية[١] .

ويشير مفهوم التفاعلية الرمزية إلى التفاعل الذى ينشأ بين مختلف العقول والمعانى، والذى يعد سمة مميزة للمجتمع الإنسانى، ويستند هذا التفاعل الاجتماعى على حقيقة هامة مؤداها أن يأخذ المرء ذاته فى الاعتبار - Self Cebjectification وأن يحسب حساباً أيضاً للآخرين، أى أن يستوعب أدوار الآخرين، وعلى هذا النحو يمكن صياغة صورة المجتمع الإنسانى، تلك الصورة التى تعتبر تعبيراً صادقاً عن التفاعل والتساند والاعتماد المتبادل بين الفرد والمجتمع، وبين السلوك الخارجى والذات الاجتماعية، وأهم ما تتميز به التفاعلية الرمزية هو «مرونتها» بالقدر الذى يسمح بتطوير ألوان متعددة لعلم الاجتماع، فهى لاتخضع علماءالاجمتاع فى أبحاثهم وأعمالهم لقواعد صارمة يستطيعون منها فكاكاً، بل على العكس تزودهم بالبصيرة وتمنحهم الحرية الفكرية والمرونة المنهجية لتطوير علم الاجتماع فى الاتجاه الذى يحقق مزيد من الفهم المتعمق للسلوك الإنسانى والعلاقات المتبادلة بين الناس[٢] .

ومن هنا نرى أن التفاعلية الرمزية ركزت دراستها على علاقة الأفراد معاً، فلكى نفهم سلوك الأفراد يجب أن يركز البحث على كيفية استطاعة الأفراد التحكم فى مواقفهم، فالتفاعلية الرمزية تعتبر إذن نوع من علم النفس الاجتماعى الذى يؤكد على ضرورة فهم الأفراد[٣] .

كما تطالب التفاعلية الرمزية بأن تكون كل نظرية سوسيولوجية محاولة لإقامة قانون يكون أساسى لكل سلوك إنسانى، ولذلك فإن أغلب الخطوط الفكرية لهذا المنظور إنما ترتكز على أفكار كل من «ميد وبلومر» [٤] .

---

(1) American Journal of Sciology, Volume 84, Number 6, May 1979. pp. 1317 - 1318.

(٢) محمد على محمد، مرجع سابق، ص ٤ .

(3) G. F. Rilbens, Patterns of Behaviour, London, 1979, p. 278

(4) Lewis A. Coser, Masters of Sociological Thought, New York. 1979, p. 275.

هربرت ميد:

لقد بدأت التفاعلية الرمزية مع جورج هربرت ميد عام ١٨٦٣ - ١٩٣١م، ولقد قرر ميد أن الموجودات الإنسانية لها القدرة على التفاعل مع الآخرين وذلك من خلال استخدامهم للرموز المشتركة بينهم بواسطة المعانى التى تحملها هذه الرموز، فالموجودات الإنسانية التى تعطى معنى لنشاطها، وهم الذين يقومون بتحديد المواقف وتفسير السلوك، فالأفراد من خلال العمليات الاجتماعية يستطيعون تحديد الأشياء معاً وهم فى تفاعلهم يستطيعون أن يعدلوا من أفعالهم الاجتماعية التى تشتق منها المعانى[1].

ومن هنا يمكن أن نعتبر هربرت ميد من أهم المؤسسين لعلم النفس الاجتماعى، برغم أن عدداً قليلاً من علماء النفس الاجتماعى المحدثين هم الذين استفادوا منه إلا أننا يمكن أن ننظر إلى «ميد» باعتباره نظرى وفيلسوف برغم أن أبحاثه كانت قليلة فى هذا المجال، فلقد كان «ميد» من أول النظريين الذين حاولوا أن يربطوا بين الفرد والمجتمع، أما تصور ميد عن الذات Self فهو يظهر فى العقيدة القديمة عن كيف يكون من الممكن لشخص ما أن يعرف ذاته، ولقد استطاع «ميد» أن يحل هذه العقدة القديمة بطرق مختلفة، فبدأ أولاً بالملاحظة الداخلية التى تكون معروفة للأشخاص أنفسهم وهذا ما يطلق عليه اسم الوعى الذاتى Self - Conscious ، فالأفراد يستطيعون معرفة أنفسهم باعتبارهم أحد الظواهر فى عالم الحياة، فالذات أما نستطيع أن نعيد بناءها فى الذاكرة ونتخيلها باعتبارها شخص موضوعى ذو خصائص معينة أكيدة، وإما تعرفها باعتبارها ذات فعالة نستطيع معرفتها عن طريق معرفة كل أفعال المعرفة الموجودة فى الحاضر والتى نستطيع تخيلها من بين غيرها من الأشياء، فالذات الفردية والأفعال الاجتماعية يمكن أن يتحدا فى فلسفة «ميد» ويكون لكل منهما تأثير متبادل على الآخر، فالذات تبنى من خلال الفعل الاجتماعى، كما أن الأبنية الاجتماعية نتجت من تفاعل الجماعات معاً،

---

(1) James W. Vander Zaner, op. cit., p. 17.

ومن هنا نجد أن «ميد» وضع تصور الفعل الفردى على جانب والمجتمع والبناء الاجتماعى على جانب آخر، ولقد استخدم هذين التصوريين فى بحوثه عن التفاعلية الرمزية[١].

ولقد أكد «ميد» على أن العقل والوعى والذات كلها تعتبر ناتجة من الأنماط المختلفة للتفاعل بين الأفراد، كما يرى «ميد» أن وجود المجتمع الإنسانى إنما يعتمد أولاً على تطور اللغة، ويرى «ميد» أن تعليق الحكم الفينومينولوجي على مسألة الاتجاه الطبيعي في الحياة اليومية للأفراد هو شئ يدل على تأكيد «شوتز» على محتويات المعنى الذاتي للفعل، فهى تمثل وصف لأفعال الأفراد داخل العالم لأن الفاعلين يستطيعون بأنفسهم أن يعلقوا الحكم على حياتهم اليومية التى تنعكس على مواقفهم، فوصف «شوتز» للعالم المسلم به أى عالم الحياة اليومية للفاعل هذا العالم يمكن أن نعتبره أحد الأفعال الاحتمالية التى يمكن أن تتغير ويحدث بها صراع، ولذلك فنحن نرى أن أفكار «ميد» عن الذات إنما تؤكد أن الفاعل يمكن أن يكون موضوعى فى وعيه الانعكاسى وهذا يعنى أن الأفراد يكونون ويتكونون عن طريق خبراتهم[٢].

وبعد هذا العرض لأفكار هربرت ميد الرئيسية فى التفاعلية الرمزية نستطيع أن نقرر أن كتابات ميد تعتبر تقييم جديد لمدى مطابقة أفكاره عن علم الاجتماع بوجه عام ومحاولة تطبيقها على علم اجتماع المعرفة بوجه خاص وهى على أى حال مركزه أساساً على الكتابات التى لم يطورها ماركس[٣].

هربرت بلومر:

يعتبر هربرت بلومر من أهم النظريين الذين يمثلون مدرسة التفاعل

---

(1) Harvard Schmartz and Jerry Jacobs, op. cit., pp. 12 - 26.

(2) John Marry, op. cit., p. 6.

(3) Tom W. Gaff, marx and Mead, Contribution to a Sociology of Knoweldge, London, 1980. p. 2.

الرمزى، ويرى بلومر أن التفاعلية الرمزية تستند إلى ثلاث مبادئ رئيسية وهى:

١ - أن فعل الموجودات الإنسانية تجاه الأشياء يكون على أساس المعنى الذى يعطونه لهذه الأشياء.

٢ - أن معنى هذه الأشياء إنما يشتق من التفاعل الاجتماعى بين الأفراد.

٣ - أن هذه المعانى يمكن تعديلها من خلال العمليات التفسيرية التى يستخدمها الأفراد مع هذه الأشياء.

ولقد ذكر بلومر بأن التفاعل الرمزى يرى أن الفعل الاجتماعى يجب أن يدرس لمعرفة كيفية تكوينه، وما هو سببه الاجتماعى، فمنهج التفاعلية الرمزية فى دراسة الفعل إنما يعتمد على موقف الفاعل ذاته وتفسيره وحكمه على هذا الفعل من وجهة نظره ومن خلال المعنى الذى يضيفه الفرد على الفعل ذاته، أى أننا يجب أن نهتم بدور الفاعل ورؤيته للعالم من وجهة نظره هو شخصياً ومن رؤيته له، ومن هنا نرى أن بلومر استطاع أن يمدنا بمعرفة واضحة عن صورة وطبيعة الفعل الاجتماعى وأصل هذا المجتمع والحصول على الوسيلة التى نقترب منها من عالم حياة الأفراد Life - World(١).

فالتفاعلية الرمزية ترى أننا يمكن أن نتبادل الأدوار مع الآخرين لكى نعرف ما الذى نتوقعه منهم، وما الذى يتوقعونه هم منا، وبهذا الطريق نستطيع أن تعدل أفعالنا لكى تتلائم وتتكامل مع نشاطاتنا، فالرموز تعتبر مركب نستخدمه فى الاتصال بالآخرين(٢).

ويرى بلومر أن الفاعل يمكن أن يختار ويضبط ويعلق وينقل المعانى فى ضوء الموقف الذى وضع فيه الذى يكون موجهاً لفعله، فالتفسير هنا لايجب أن نعتبره تطبيق آلى لإقامة المعانى ولكنه يعتبر عملية تكوينية يمكن أن تستخدم

---

(1) Harvard Schmartz and Jerry Jacobs, op. cit., pp. 12 - 26.

(2) James W. Vander Zaner, op. cit., p. 18.

المعانى فيها على أساس أنها وسيلة للحكم وتكوين الفعل، فالوجود الفردى محاط ببيئة بها موضوعات مسبقة فى الوجود تلعب دوراً أساسى فى سلوك الفرد، ولذلك فإن الفرد يبنى موضوعاته على أساس نشاطاته، ففى أى فعل من أفعاله يستطيع الفرد أن يحدد الموضوعات المختلفة لنفسه، ويستطيع أن يعطى لها معنى ويستطيع أن يحكم على مدى مناسباتها لفعله، ويستطيع أن يتخذ قرار على أساس هذا الحكم وهذا ما نقصه حينما نقول تفسير الفعل على أساس الرموز[1].

أما بلومر فحينما تحدث عن الدليل الذاتى Self - Indecation (١٩٦٩) فكان يقصد به العملية التى يلاحظ الأفراد بها الأشياء ويعطونها معانى ويقررون أن يعملوا على أساس هذه المعانى، إن هذه العملية تأخذ مكانها داخل المحتوى الاجتماعى الذى يحاول الفرد فيه أن يتوقع أفعاله ويخطط لها ويفسرها، فالمجتمع فى رأى بلومر يكون نتيجة للتفاعل الرمزى بين الأشخاص وهذا الجانب لابد وأن يهتم به علماء الاجتماع، فمدخل التفاعليين الرمزيين هو أن الموجودات الإنسانية هى التى تقوم بتفسير وتحديد أفعال الآخرين بدلاً من أن يكون هناك رد فعل لكل أفعال الآخرين فى أسلوب الاستجابة، ولقد أكد بلومر عام ١٩٦٩ ، على أن التفاعل الإنسانى يتم عن طريق استخدام الرموز وعن طريق التفسير والتأكيد على معانى الآخرين[2].

ويرى بلومر أن التفاعلية الرمزية تتكون من عدد من الأصول أو الأفكار الرئيسية التى يمكن حصرها فيما يلى:

١ – أن المجتمع يتكون من عدد من الموجودات الإنسانية فى تفاعلها ونشاطها تتحدد من خلال الفعل الموحد.

---

(1) Margrat M. Poloma. Contemporary Sociological Theory. New York, 1979. p. 167.

(2) Ibid.. p. 168.

٢ - أن التفاعل يتكون من النشاطات الإنسانية فى استجابتها للنشاطات الإنسانية الأخرى، والتفاعل الرمزى يتضمن تفسيراً لهذه الأفعال والنشاطات.

٣ - أن الموضوعات ليس لها معنى غريزى، ولكن المعنى يأتى أو يكون نتاج للتفاعل الرمزى ونستطيع أن نصنف هذه الأفعال إلى :

أ - موضوعات طبعية.

ب - موضوعات اجتماعية.

جـ - موضوعات مجردة مثل القيم والقوانين.

٤ - أن الموجودات الإنسانية لاتعرف فقط الموضوعات الخارجية ولكنها تكون قادرة على رؤية ذاتها باعتبارها موضوعات من خلال عملية التفاعل الرمزى، فالعالم الأمبيريقى كما يراه بلومر يتكون من الموجودات الإنسانية، والنشاطات اليومية التى يمارسها الأفراد فى حياتهم، أما معرفة سلوكهم فيمكن عن طريق الملاحظة والمشاركة، ولقد ذكر بلومر عام ١٩٦٩ أن منهج التفاعلية الرمزية لايمكن أن يختبر مباشرة الظاهرة الاجتماعية، ولكنه مدخل للدراسة العملية لحياة الجماعات الإنسانية وسلوكها، ولقد اقترح بلومر نموذجين للبحث يمكن أن نختبر بهم الظاهرة الاجتماعية Social Phenomenon أولها الكشف Exploration وثانيها الفحص Inspection فالكشف يساعد على تنمية الأفكار لمعرفة علاقة الأفراد بعضهم البعض، أما الفحص فيساعد الباحث على اختبار التصورات فى ضوء الواقعة الأمبيريقية ، إن بلومر قد نقد بذلك المنهج الذى استخدمه الوظيفيين كما أنه نقد المنهج الذى يتجه إلى الكم أكثر من الفهم، وهذا ما يقرب بلومر من الفينومينولوجيا[1].

(1) Ibid., pp. 169 - 172.

ربط التفاعلية الرمزية بالاتجاه الفينومينولوجي:

من هذا العرض السابق الذى تناولنا فيه التفاعلية الرمزية ، وأشرنا إلى اثنين من أهم ممثليها وعرفنا من هذا العرض أن هناك تشابه كبير بين التفاعلية الرمزية من ناحية وبين الاتجاه الفينومينولوجي من ناحية أخرى، وذلك بالرجوع إلى عدد من القضايا الأساسية في التفاعلية الرمزية والتى يمكن حصرها فيما يلى :

١ – أن الأفراد لهم مقدرة على معالجة أنفسهم لأنهم يعتبرون أنفسهم عوامل فى الموقف ويحاولون تقييم أفعالهم وأنفسهم.

٢ – أن التصورات الذاتية للفاعلين ومقدرتهم على التفاعل العقلى الذاتى تشتق من الدور الذى يأخذه الآخرون فالأفراد غالباً ما يتعلمون من خبراتهم ومن خلال اتجاتهم تجاه الآخرين.

٣ – أن الضبط الاجتماعى ضرر كبير من الضبط الذاتى لأن الأفراد يرون أنفسهم من خلال ما يفعله الآخرون، كما أن الضبط الاختماعى يمكن أن يظهر فى مصطلح النقد الذاتى وفى سلوك الأفراد وتكاملها مع العمليات الاجتماعية المنظمة للخبرات التى تتضمنها، فالآخر العام يعتبر ضرورى لهذا النوع من الضبط الاجتماعى فهو يأخذ معناه من خلال اتجاهات المجتمع والتى تضم تأثير الأفراد وتفكيرهم وسلوكهم على الجماعة والمجتمع.

٤ – أن هناك بعض الظواهر المؤثرة التى تحتاج إلى البحث من المنظور السوسيولوجى لكى نفهم هذه الظاهرة.

٥ – أن هناك بعض جوانب من الحياة الاجتماعية لايمكن أن نفسرها دون أن نضع فى اعتبارنا العاطفة.

ومن هنا نجد أن التفاعلية الرمزية تعتبر ضرورية فى تحليل نتاج الدور الذى تقوم به العاطفة فى بناء المشاعر، فالعاطفة ليس لها دور ضرورى فقط

فى التفاعلية الرمرية، بل إنها تتفق فى أغلب المنظورات السوسيولوجية التى تؤكد عليها، ومن هناه نجد أن البحث السوسيولوجى للعاطفة فى التفاعلية الرمزية يتفق مع بحث الفهم والتركيز على الفاعل فى الفينومينولوجيا وكلاهما يساعد على فهم الحياة الاجتماعية[1].

فإذا رجعنا إلى التفاعلية الرمزية نجد أن بها إطاراً اجتماعياً يمكن به أن نعدل من خبرات الفاعلين وتفسيراتهم وشعورهم العاطفى، وهذه العملية يمكن وصفها عن طريق استخدام بعض المؤثرات الاجتماعية والثقافية العامة لأغلب المنظورات السوسيولوجية، فبناء العاطفة عن طريق الفاعلين يمكن فهمه عن طريق استخدام منظور التفاعل الرمزى الذى يؤكد على تعريفات وتفسيرات الفاعلين، وعلى ضرورة معرفة بناء السلوك الإنسانى، لأن كل منها يعتبر أساساً فى خبرة الفاعلين، وأكثر من ذلك نجد أن تحليل التفاعلية الرمزية يربط عدداً من الدراسات الواقعية التى تأثرت بإسهام النظريين مثل الفينومينولوجيا ، فدراسة الفاعلين وتفسيراتهم تعتبر أساسية لفهم السلوك الإنسانى، فحينما نستطيع تشخيص الفعل الإنسانى المنعكس نجد أن تعريفات وتفسيرات الفاعلين تعتبر ضرورية فى السلوك الإنسانى، ومن هنا يجب أن تتضمن فى كل بحث سوسيولوجى، فمعنى أى فعل يفسر ويعرف باستمرار عن طريق الفاعل وعن طريق الآخرين.. فالسلوك الإنسانى يعتبر بناء فعال يمكن أن ننتقل من خلال تعريفات وتفسيرات الأفراد[2].

فإذا رجعنا بعد هذا العرض للتفاعلية الرمزية لمعرفة الصلة الوثيقة بينها وبين الفينومينولوجيا فيجب أن نرجع إلى مايعرف باسم المنهجية الشعوبية أو الأثنوميثودولوجيا Ethnomethodology تلك التى تختلف عن كل المداخل الأخرى التى درست والتى تقوم بنقد الطريقة السوسيولوجية التى تهتم بمسألة

(1) American Journal of Sociology, op. cit.. Volume 83, Numblery. January ... 9. pp 13 21

(2) Ibid p. 321

النظام في المجتمع، فعلماء الاجتماع يرون حقيقة النظام الاجتماعي باعتباره، يمثل وجود بعض الأشياء الخارجة عنا والتي يعرفها الأفراد من خلال المعايير التي تعكس ثقافتهم، أما علماء الأثنوميثودولوجيا فهم يرون أن النظام يسهم عن طريق المواقف المتشركة والأفراد يحاولون عن طريق إحساسهم أن يعملوا النظام ، فالأثنوميثودولوجيا يمكن تشخيصها عن طريق دراسة النشاطات التي تمارس في الحياة اليومية للأفراد، فهي تحاول أن تشخص كيف يمكن للأفراد أن يكون لديهم الإحساس بعالم الحياة اليومية، أي أنها الطريق الذي يستطيع به الأفراد أن يصفوا حقيقتهم عن طريق اللغة والمعنى التي تصل إليها عن طريق الرموز وهذا ما يجعلها قريبة الشبه بالتفاعلية الرمزية التي تعتبر الرموز مصدر لاتصال الأفراد بعضهم ببعض[1] .

فإذا نظرنا إلى «جارفينكل» باعتباره من أهم ممثلي الأثنوميثودولوجيا نجده يركز على الحياة اليومية للأفراد ونشاطاتهم المتكررة، ولقد كان جارفينكل يعتبر أن كل فرد من الأفراد يشترك في خلق المعاني وفهم النشاطات، كما بحث عن فهم المواقف الاجتماعية من الداخل وكما تظهر للإنسان الذي يعيش فيها، كما أنه كان يبحث عن الطريق التي يوصل بها معاني الأشياء للأفراد، وهذا ما جعل تصوره هذا قريب من آراء التفاعلية الرمزية التي ترتكز على عاطفة الأفراد ومقدرتهم على تفسير المواقف التي يعيشون فيها[2] .

والعلاقة بين الأثنوميثودولوجيا والتفاعلية الرمزية ترجع إلى أن الاهتمام بأنشطة الحياة اليومية يفرض على أصحاب هذا الإتجاه ضرورة دراسة التفاعل الذي ينبثق من هذه الأنشطة، فهذه التفاعلات هي التي تجعل المواقف مفهومة وممكنة التفسير، وهكذا يصبح علم الاجتماع ذاته ضرباً من

(1) Margrat M. Poloma, Contmporary Sociological Theory. New York. 1973, pp. 181 - 183.

(2) Alvin W. Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology, India. 1971. op. cit.. pp. 390 - 391.

نشاطالحياة اليومية طالما أنه سيهتم بكل مظاهر هذه الحياة سواء كانت بسيطة أو مألوفة(١).

فبرغم وجود اختلاف بين الأثنوميثودولوجيا والتفاعلية الرمزية إلا أننا نرى أن كل منهما يمثل منظور سوسيولوجى اجتماعى استقرائى، وأن كل منهما محدود حيث أنه يمثل مستوى ميكروسوسيولوجى، كما أن كل منهما يستخدم مدلولات كيفية، كما أن الأثنوميثودولوجيا مثل التفاعلية الرمزية تعتبر متصل سيكولوجى اجتماعى يركز على الأفراد أكثر من تركيزه على الأدوار والأبنية الاجتماعية، وتتشابه الأثنوميثودولوجيا مع التفاعلية الرمزية فى وجود تحيز نتيجة لاعتمادها على الباحثين فى تفسير المادة التى يجمعونها، وأخيراً نجد أن كل من الأثنوميثودولوجيا والتفاعلية الرمزية يستخدمان نفس الطرق فى دراستهما وهى الملاحظة بالمشاركة ودراسة الحالة والمقابلة المتعمقة والعمليات المنهجية والبيوجرافية، كما أن كلا منهما يهتما بدراسة النشاطات وليس النظريات الخاصة بهذه النشاطات(٢).

تشابه شوتز مع التفاعلين الرمزيين:

إذا رجعنا إلى شوتز باعتباره أهم ممثلين الفينومينولوجيا نجد أنه حينما انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية بدأ يتأثر بالتفاعلين الرمزيين الأوائل وخاصة «وليم توماس»، و «جورج ميد» وبخاصة فى تشخيصهم لعمليات المعنى والسبب وهم فى ذلك يتشابهون مع رغبة «شوتز» فى فهم التواصل بين الذوات كما أن شوتز قد وجد نفسه متشابهاً مع «وليم توماس» فى مفهومه لتحديد الموقف، هذا الموقف الذى يؤكد على استعداد الفاعلين لعمل شئ ما فى الموقف، وأكثر من ذلك نجد أن «توماس» قد عرف الموقف باعتباره يأتى من الخبرات الماضية وهذا هو تصور عملية التواصل بين الذوات المتداخلة

---

(١) محمد على محمد، مرجع سابق، ص ٦٧.

(2) Ruth A. Wallace, Contemporary Socilogical Theory, Prentic - Hall - Inc., England, 1980, p. 280.

عند «شوتز» كما أكد «ميد» على كيف أن الفعل والذات والمجتمع يتداخلون فى علاقات برغم أن كل منهم مستقل عن الآخر، ولقد عرف «ميد» الفعل بأنه عملية اجتماعية تقوم على التفاعل ولقد كان تصور «ميد» للدور هو اتجاهات الفاعل مع الآخرين من خلال تفسيرات الإشارات، وبالفعل أصبح لدى «شوتز» تشخيص حيوى للعملية التى يصحبها الفاعلون على معرفة بأدوار بعضهم وتصنيف لدور إحداهم عن الآخر، أما تصور «ميد» للآخر العام فقد أثر على تصور «شوتز» للحالات الذاتية العامة، ومن هنا نجد أن هناك تقارباً بين تصورات التفاعلية الرمزية وفينومينولوجية «شوتز»، برغم أنه بدأ بعد ذلك فى إبعاد اتجاهه الجديد عن هذه النزعة التفاعلية الرمزية[1].

أما «جوفمان» فقد انطلق من مفهوم الذات لكى يعالج الصلة بينها وبين تنظيم المجتمع، فهو يسلم بوجهة نظر «جورج هربرت ميد» فى أن الذات كيان اجتماعى وجد خلال عملية التفاعل الاجتماعى، وأن الفرد يتعلم القيم والاتجاهات السائدة فى وسطه الاجتماعى ويدخلها ضمن تكوينه النفسى بطريق تجعله قادراً على تطوير اتجاهاته الاجتماعية تلقائياً وتنمية خبراته ومشاعره وإتيان زفعال اجتماعية ملائمة، فإذا فكرنا فى خصائصنا الذاتية سنجد أن كثيراً من هذه الخصائص يتعذر ملاحظتها، ويتعلق ذلك بصفة خاصة بالاتجاهات والنزعات والرغبات وغيرها من السمات الاجتماعية المسئولة عن تحديد طبيعة الذات، وتلك هى الجوانب التى يهتم «جوفمان» بإبرازها وملاحظتها لأنها أكثر الجوانب تأثيراً فى تعريف الذات وبيان سماتها الأساسية[2].

الخلاصة:

إن التركيز على الوعى هو الذى يعمل على إقامة المدخل الفينومينولوجى، هذا المدخل الذى يتجاهل الحقائق الظاهرة للعالم الخارجى

---

(1) Janathan H. Turner. op. cit.. p. 400.

(٢) محمد على محمد، مرجع سابق، ص ٥٦.

من أجل اختبار كيفية ظهور هذا العالم فى خبرة عالم الاجتماع، وهذا الهدف الأساسى يكون مشابه للنزعة التفاعلية الرمزية فهو يريد أن يقترب من العالم الطبيعى ولكنها تختلف عنها فى أنها تركز على خبرات عالم الاجتماع وهدفها فى ذلك هو أن الحقيقة الأمبيريقية لاتعتبر معطى موضوعى ولكنها حقيقة الانعكاس العقلى على الخبرة[1].

- ففكرة الحياة الاجتماعية قادت بعض السوسيولوجيين من أمثال كولى Cooly وبعض الفينومينولوجيين بأن يطالبوا بأن علم الاجتماع لايتم إنجازه عن طريق بعض الحقائق مثل العلوم الطبيعية ولكن عن طريق الفهم الواسع والتفسير، ولذلك فعلم الاجتماع لايهتم التفسيرات العلمية للأحداث، ولكنه مثل علم الاجتماع عند «فيبر» يهتم بتفسير الأفراد لهذه الأحداث[2].

فالتفاعلية الرمزية حينما تقدت المنهج الذى يتجه إلى الكم فى علم الاجتماع أكثر من اتجاهه إلى الفهم جعلنا نتأكد من حقيقة هامة وهى أن هناك وجهاً كبيراً للتشابه بين التفاعلية الرمزية من ناحية والاتجاه الفينومينولوجى من ناحية أخرى، فكلاهما يؤكد على ضرورة الاعتماد على الأفراد فى فهم الأشياء وتفسيرها اعتماداً على إحساسهم، غير أن التفاعلية الرمزية تؤكد أكثر على العاطفة بينما نجد أن الفينومينولوجيا تؤكد أكثر على الخبرة بهذا العالم بالإضافة إلى الإحساس به كما أن كل منهما يعتمد على الفاعل فى تفسير المواقف، ولكننا نجد أن التفاعليين الرمزيين يعتمدون على المعانى على أساس أنها وسيلة للحكم وتكوين الفعل، بينما نجد أن الفينومينولوجيين يعتمدون على خبرة الأفراد ووعيهم بذلك العالم على أنها أساس الحكم.

(1) Charles C. Lemart, Sociology and Tulight of Man, London, 1979, p. 137.

(2) G. F. Ribbens, Patterns of Behaviour, London, 1929, p. 279.

٣ - أسس المدخل الفينومينولوجي لعلم الاجتماع:

إن مشكلة وصف الحدود الطبيعية الأساسية للمدخل الفينومينولوجى لاتزال معلقة إلى الآن، وذلك يرجع للصعوبات التى تقابل هذا المصطلح حتى ذلك الوقت، فنجد مثلاً أن هناك محاولات عديدة لتكوين مايسمى بعلم الاجتماع الفينومينولوجى ليحل محل مداخل علم الاجتماع الكلاسيكى أو على الأقل يكون مكملاً لها، وبرغم أن هناك عدداً كبيراً من الفينومينولوجيين حاولوا توضيح هذا المصطلح إلا أن «شوتز» يعتبر أول من أوضح هذا المصطلح فى محاولته لتكوين فينومينولوجيا العالم الاجتماعى، ومن ثم بدأ علماء الاجتماع الفينومينولوجيين بنقد الافتراضات التى يرتكز عليها الاتجاه الوضعى فى علم الاجتماع، وكان من أهم تلك الافتراضات التى تعرضوا لها النقد ذلك الافتراض المتعلق بوحدة المنهج العلمى وتشابه الظاهرة الاجتماعية بالظاهرة الطبيعية(١).

ومن المعروف أن عدداً كبيراً من مؤسسى علم الاجتماع يعتقدون أننا يمكن أن نطبق الخطوات والإجراءات العلمية المتبعة فى العلوم الطبيعية على الإنسان والمجتمع لتحقيق الموضوعية فى دراستهما، على أساس أن سلوك الإنسان فى المجتمع تحكمه مبادئ السببية التى تحكم الظواهر فى العلوم الطبيعية، فإذا نظرنا إلى المدخل الوضعى سنجد أنه ينظر إلى سلوك الإنسان نفس نظرته إلى أى مادة أو ظاهرة أخرى يمكن قياسها موضوعيًا، فمعرفة السلوك يرتكز على وسائل القياس الموضوعية التى تساعدنا فى تفسيره ومعرفة أسبابه ونتائجه، فالمدخل الوضعى فى علم الاجتماع يركز فقط على السلوك الذى يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة، أما العوامل التى لايمكن ملاحظتها ملاحظة مباشرة مثل المعانى والشعور فهى غير هامة وغير جديرة بالدراسة(٢).

(1) Barry Smart. op. cit.. p. 79.

(2) Micheal Hardambos. Sociology, Themes and perspectives. University Tutarial Press. London, 1981. pp. 18 - 20.

ومن هنا نجد أن الوضعية تركز على الحقائق الملحوظة التى تؤثر فى السلوك الإنسانى، أما المدخل الفينومينولوجى فهو يرفض رفضاً تاماً افتراضات المدخل الوضعى لأنه يرى أن المادة التى تدرسها العلوم الطبيعية تختلف اختلافاً كلياً عن المادة التى تدرسها العلوم الاجتماعية، ومن هنا فإن افتراضات ومناهج العلوم الطبيعية لاتتناسب مطلقاً مع دراسة الإنسان فى العلوم الاجتماعية، فلكى نفسر المادة فى العلوم الطبيعية يكفى جداً ملاحظتها من الخارج وقياسها ومعرفة الدوافع الخارجية المؤثرة فيها وهذا بالطبع لايكفى لدراسة إنسان له وعى وشعور محتاج لفهم، فالإنسان الذى تدرسه العلوم الاجتماعية ذو وعى وتفكير ومشاعر ومعانى ومعرفة بوجوده، ومن أجل هذا نجد أن أفعاله ذات معنى فهو يحدد مواقفه ويعطى معنى لأفعاله وأفعال الآخرين، فأفعاله لاتعتبر رد فعل لعوامل أو منبهات خارجية لأنه لايمكن أن يلاحظ فعل من الخارج فقط ولكنه يفسر نتيجة لمنطق داخلى هو السبب فى توجيه الفاعل لفعله(١) .

ويوجه المدخل الفينومينولوجى النقد إلى علم الاجتماع الكلاسيكى الذى يؤكد على ضرورة مطابقة العلم الطبيعى للعلم الاجتماعى، فعلم الاجتماع الوضعى الذى يستخدم منهج العلوم الطبيعية ويعتمد على افتراض مؤداه أن الظاهرة الطبيعية كالظاهرة الاجتماعية لا تتشابه مع الظاهرة الاجتماعية، حيث لايوجد لها بناء داخلى للمعنى، فعلماء الاجتماع الفينومينولوجيين يبحثون عن عالم يتكون من المعانى التى تحتاج إلى تفسير نستطيع من خلالها تفسير الظاهرة الاجتماعية ذاتها، فالعالم الاجتماعى يتكون من موضوعات تشتق من ذاكرة الأعضاء فى المجتمع، ويعالج على أنه نتاج النشاط الإنسانى، ومن هنا نتفق من علماء الاجتماع الفينومينولوجيين على ضرورة الاعتماد على تفسير الأفراد للظاهرة الاجتماعية التى تظهر من خلال اللغة والوصف والمحادثة(٢) .

---

(1) Ibid., p. 20.

(2) Barry Smart, op. cit., p. 75.

فالفينومينولوجيا ترى أن الإنسان قادر على تفسير معاين العالم تفسيراً علمياً يعتمد على الأساليب العلمية، فمنهجها يعتمد على دراسة العالم الاجتماعي الذى يتمثل فى الوعي القصدى لدى الأفراد، وما يتضمنه ذلك الوعي من معان، فالاهتمام بالمعنى الذى يضفيه الأفراد على العالم الاجتماعي ووعيهم بذلك العالم هو المادة الأساسية التى لابد أن يهتم بدراستها علماء الاجتماع(١).

وتوجه الفينومينولوجيا الاجتماعية لاهتمام الفاعلين أنفسهم والمعانى التى يحاولون وصفها وتكوينها داخل خبراتهم، ولقد ظهر الفينومينولوجيا الاجتماعية مع «ألفريد شوتز» واهتمت بتحليل نشاطات الحياة اليومية، فهى إذن تمثل دراسة الطرق التى يستخدمها الأفراد فى حياتهم اليومية لبناء المعانى أكثر من الاهتمام بوصف الظواهر السطحية لتفاعلاتهم، ولقد استطاعت الفينومينولوجيا الاجتماعية عن طريق اهتمامها بالمعنى الذى يضفيه الأفراد على أفعالهم أن تسد الثغرات الموجودة فى المداخل السوسيولوجية الأخرى(٢).

يجب على الفينومينولوجيين أن يعكسوا لنا عالم الحياة اليومية وعليهم توضيح الشعور الكامن فى هذا العالم والخبرات التى يحصل عليها الأفراد فى حياتهم اليومية، ومن هنا فإن الخبرات الإنسانية يمكن دراستها باعتبارها شئ موضوعى لأنها ذو علاقة مع الموضوعات الخارجية من خلال العالم الاجتماعى الذى يكون بدوره المجتمع أو المجتمعات المحلية، والتنظيمات، فالمعانى المستخدمة تشتق من عالم الحياة اليومية وعلماء الاجتماع قادرون على تكوين عالم اجتماعى يمكن أن يستخدم فى تحليل العوالم الاجتماعية الأخرى(٣).

---

(١) سمير نعيم أحمد، مرجع سابق، ص ص ٢٢٥ - ٢٢٧.

(2) Joe Bailey, Social Theory of Planning, Routledge and Kegan Paul, 1975, p. 65.

(3) Barry Smart, op. cit., p. 79.

المدخل الفينومينولوجيين رذن هو الذى يهتم بفحص الافتراضات الشائعة التي ترتكز عليها الأعمال العلمية، وابتداع منهج مناسب لدراسة العالم الاجتماعي الذى يتمثل فى الوعى القصدى لدى الأفراد وما يتضمنه ذلك الوعي من معان، ودعوة إلى ضرورة الاهتمام بتفسير الخبرة اليومية وتجاوز ذلك إلى محاولة فهم العاملية الذاتية التبادلية لتكوين المعنى لدى الأفراد، ذلك المعنى الذى يهتم علماء الاجتماع الفينومينولوجية بدراسته(١).

فالعالم الاجتماعى من وجهة النظر الفينومينولوجية هو نتاج لتفسيرات مقاصد الإنسان أى أنه عالم ذاتى ولذلك فإن دراسة ذلك العالم يمكن أن تتم عن طريق أساليب مثل المحادثات وتحليل اللغة وتصبح وظيفة علم الاجتماع وصف العمليات التى يتم عن طريقها تشييد العالم الاجتماعى من خلال الرجراءات التفسيرية، فكأن علم الاجتماع الفينومينولوجى يحول بؤرة اهتمام النظرية الاجتماعية من البحث عن الأسباب والمجتمعات إلى البحث عن النوايا أو المقاصد أو المعانى التى توجد فى عقول الأفراد، ومن هنا فعلم الاجتماع الفينومينولوجى يتجه إلى دراسة الحياة اليومية وعلاقات التفاعل بين الأفراد من وجهة نظر الأفراد أنفسهم وتقييمهم للموقف الاجتماعى الذى يتم داخله التفاعل أى أن هذا العلم يرى أن كل فرد لابد أن يكون له موقفاً أو اتجاهاً طبيعياً تجاه العالم يعمل بمثابة المصفاة أو المنظار الذى ينقى مدركاته ويعزل عنها الشوائب والشكوك فى مجال حياته اليومية حتى يصبح لدى هذا الفرد نظرية ذاتية خاصة به يستعين بها باعتبارها دعامة فى مواجهة العالم والنظرية التى يصوغها الباحث ماهى إلا جماع لنظريات الزفراد عن العالم التى يكونها هذا الباحث من خلال عمليات التفاعل وهذه هى القضية الأساسية التييقوم عليها المدخل الفينومينولوجى(٢).

---

(١) سمير نعيم أحمد، مرجع سابق، ص ٢٢٧ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٧ .

٤ - بين الفينومينولوجيا والأمبيريقية في علم الاجتماع : نظرة تحليلية نقدية:

ينظر البعض إلى التقدم الذى أحرزه المدخل الفينومينولوجى على أنه أصبح بديلاً لعلم الاجتماع الأمبيريقى، وينظر البعض الآخر إلى هذا التقدم على أساس أنه نوع من الوفاق الاجتماعى مع المداخل الكلاسيكية فى علم الاجتماع، ولذلك فإن بؤرة اهتمامنا هنا تكون منصبة على معرفة أوجه التشابه والاختلاف بين هذين المدخلين ومحاولة التوفيق بينهما لتحقيق التكامل فى دراسات علم الاجتماع.

يرى «شيرنج Shearing» أن كل منظور من المنظورين السابقين يهتم بتفسير الأفكار فى المجتمع باعتبار أن هذا التفسير يعتبر عملية ضرورية للتوفيق بين النظم الموجودة فى المجتمع (الوحدات الكبرى) والأشكال المختلفة للسلوك الاجتماعى (الوحدات الصغرى)، أما الإختلاف بين هذين المنظورين فيظهر فى مسألة تكوين الحقيقة الموضوعية حتى أن المنظور الفينومينولوجى يؤكد التأكيد قريب الشبه من بعض الأفكار المتفق عليها فى علم الاجتماع الكلاسيكى، والتى تظهر فى الأفكار التصورية عند «دوركايم» وفى تصورات «ماكس فيبر» وفى التحليل الماركسى وفى المحاولة الأولى التى قدمها «بارسونز» عام ١٩٧٣ فى كتابه «بناء الفعل الاجتماعى» وبرغم ذلك فإن أفكار شيرنج عن المدخل الفينومينولوجى من أمثال «شوتز»[1].

ويركز «ستراسر Strasser» فى العمل الذى قام به عن الخدمة الاجتماعية عام ١٩٦٧ على الفينومينولوجيا البحتة التى يمكن أن تتوافق مع العلم الإنسانى الأمبيريقى، حيث كان انتباهه مركزاً على مدى توافق الفينومينولوجيا مع العلوم الإنسانية الأمبيريقية وذلك من خلال النقطتين التاليتين:

---

(1) Barry Smart, op. cit., p. 89.

أولاً : الحقيقة التي مؤداها أن الفينومينولوجيا تستخدم بعض المدلولات الأمبيريقية.

ثانياً : خلال تطهير العلم الإنساني الأمبيريقى من تحاملات النزعة الأمبيريقية الموضوعية والعلمية. وهنا يمكن أن نعتبر الفينومينولوجيا بناء أساسياً للخبرة الإنسانية والتى تبعد كل البعد عن تهديدات العلم الأمبيريقى للمجتمع، وقد لاحظ «هوبرناس Hobernas» أن المدخل الفينومينولوجي لايهدف إلى تحطيم نتائج المداخل الأمبيريقية، لكنه ركز اهتمامه على تحديد متضمنات الخبرة الإنسانية، حيث أن نتائج أي بحث تعتمد على مدى قدرته على تفسير هذه الخبرة(١) .

ويرى «جالدثارب Galdtharpe» أن المدخل الفينومينولوجى يمثل وضعية بديلة لعلم الاجتماع الأمبيريقى، أى أنه لايكمل مداخل علم الاجتماع الكلاسيكي ولكنه يعتبر مظهر نقدى لهذه المداخل، فالنقد الذى يشنه المدخل الفينومينولوجى على علم الاجتماع الكلاسيكي يؤكد لنا أن الموقف الفينومينولوجي ثورة فى مجال طبيعة البحث الاجتماعى واختيار نقدى لطبيعة الافتراضات المطابقة للعمل العلمي، ويقوم هذا النقد على نقطة مؤداها أن العلوم الاجتماعية تختلف عن العلوم الطبيعية من حيث محتوى وطبيعة كل منهما، وقد قرر «جالدثورب» أن الموقف الفينومينولوجى يعتبر تشخيص أولى للحقيقة التى يجب التى يجب أن يبدأ منها السوسيولوجيين، فالموقف الفينومينولوجي إجراء تفسيرياً لايمثل منظورات ثورية راديكالية ولكن علماؤه يحاولون فهم الحقيقة الاجتماعية والحياة اليومية من أجل تكوين عالم اجتماعى يصنعه الاتجاه الطبيعي(٢) .

وهنا يجب أن نفرق بين الفينومينولوجيا وعلم الاجتماع، فالفينومينولوجيا لاتتعامل إذن مع الموضوعات ذاتها، ولكنها تهتم بالمعنى وكيفية تكوينها فى

---

(1) Ibid., pp. 90 - 92.

(1) Ibid., pp. 93 - 94.

العقل والوعي، كما يختلف علم الاجتماع الكلاسيكي عن علم الاجتماع الفينومينولوجي في نظرة كل منهما إلى الواقعية Evidence ، فالواقعة عند الفينومينولوجيين ماهي إلا معطى ذات للموضوع، أما عند السوسيولوجيين فهي توجد في الواقع أكثر من وجودها في خبرة الأفراد، كما يوجد اختلاف آخر بينهما يظهر في قياسها للموضوعية Objectivity، فالموضوعية في الفينومينولوجيا تظهر في عملية وصف السمات الجوهرية للموضوعات القصدية في الوعي والتي تكون ثابتة في الخبرات الذاتية، أما الموضوعية في علم الاجتماع إنما ترتكز على قدرة السوسيولوجيين في إظهار تفسيراتهم والتي لابد وأن تتفق مع الواقع الخارجي[1].

ومع ذلك فإن تطور المدخل الفينومينولوجي إنما يركز على مناهج وتفسير العلماء السوسيولوجيين، وقد اعتبرت هذه المحاولة هي الأولى لتطوير علم اجتماع راديكالي جديد يعلق الحكم على المعتقدات حتى تسترد معناها الشرعي، فالنقد الفينومينولوجي لعلم الاجتماع الكلاسيكي يفتح لنا المجال لتطوير البحث السوسيولوجي في علم الاجتماع، حيث أن المشاكل التقليدية في ذلك العلم تحتاج لإعادة تكوين، وهذا ما فعله جارفينكل حينما طور مناهج جديدة للبحث من أجل إعادة تشكيل المشاكل السوسيولوجية[2].

ولذلك فإن من أول واجبات الفينومينولوجية تجاه علم الاجتماع هي اكتشاف المبادئ العامة التي تنظمها الحياة اليومية، وواجب علم الاجتماع هو إعادة توجيه الفينومينولوجيا للبحث في علم الحياة، في الوقت الذي تمد فيه الفينومينولوجيا التجاوزية العلوم الثقافية بالأساس الذي يساعدها على توضيح مناهجها وتصوراتها وافتراضاتها، فهي إذن تساعد على إعادة البحث السوسيولوجي ودراسة الإجراءات المنهجية في علم الاجتماع[3].

(1) Paul Filmer and Others. New Directions in Sociological Theory. London. 1972, p. 132.

(2) Ibid., p. 140.

(3) Ibid., p. 143.

يتضح لنا فى هذا العرض السابق أن هناك اختلاف فى الرأى حول علاقة الفينومينولوجية بعلم الاجتماع الأمبيريقى.

فالبعض يرى أن المدخل الفينومينولوجى يعتبر امتداد لبعض القضايا التى طورها علماء الاجتماع الكلاسيكيون من أمثال ماكس فيبر، لأن «فيبر» استطاع أن يبرز بعض القضايا الهامة التى ألفاد منها الفينومينولوجيين مثل الاهتمام بالمعنى الذاتى لأفعال الأفراد، وعندما قدم لنا منهج الفهم الذاتى للفعل ذو المعنى، كما يبرز هذا التكامل بين هذين المنظورين حينما يقدم المدخل الفينومينولوجى لعلم الاجتماع الكلاسيكى المبادئ العامة التى تنظمها الحياة اليومية.

والبعض الآخر يرى أن المدخل الفينومينولوجى يعتبر تيار نقد لعلم الاجتماع الكلاسيكى أو المحافظ على أساس أن علم الاجتماع فى صورته المحافظة قد بعد نفسه عن الواقع وافتراض فجوة بين الباحث وبين موضوع الدراسة، ذلك عندما أكد ضرورة النظر إلىالظواهر على أنها أشياء.

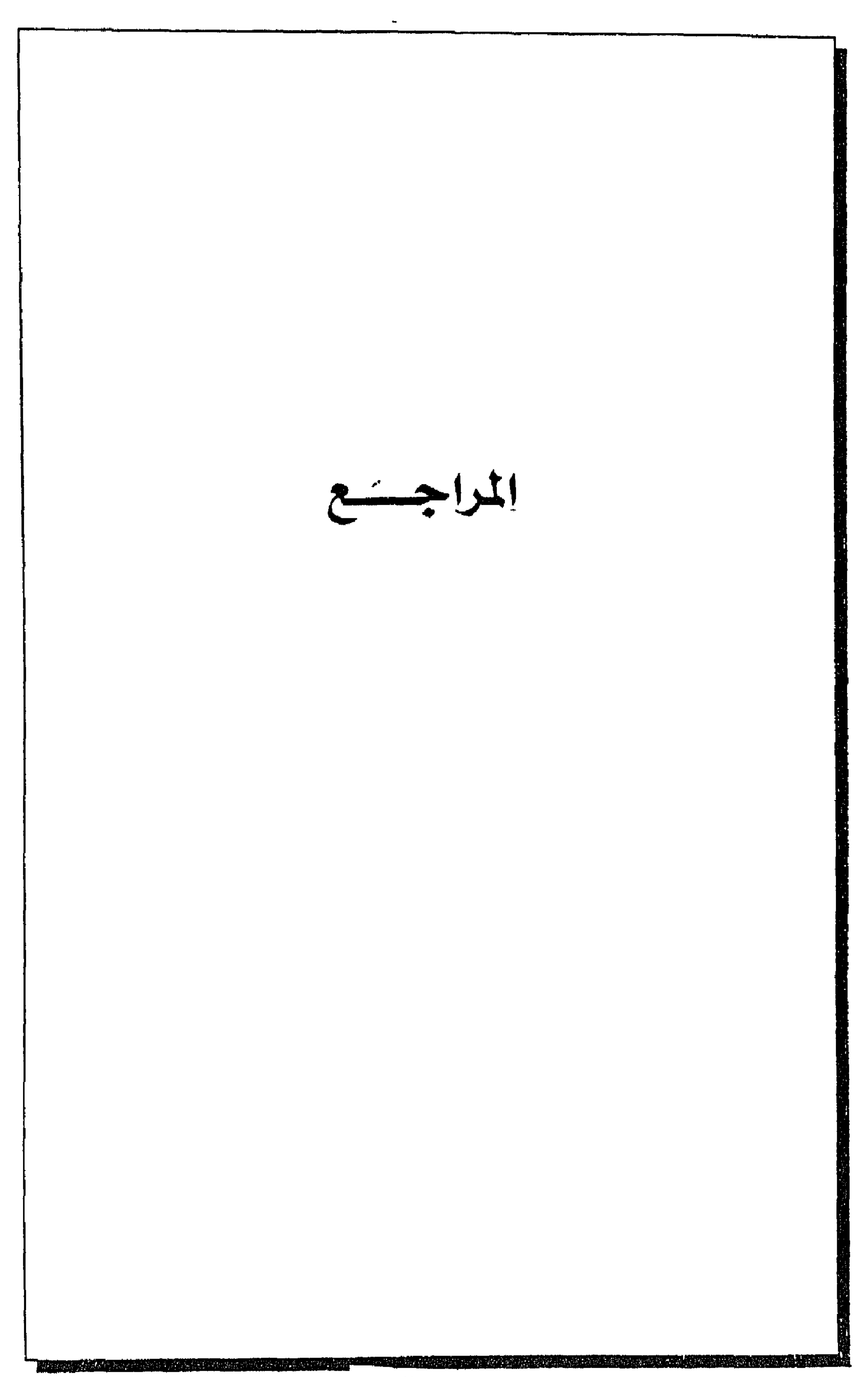
٦ - مناقشة وتعقيب:

بعد أن انتهينا من عرض هذا الفصل والذى تناولنا فيه قضايا علم الاجتماع الفينومينولوجى والحوار بين الفينومينولوجيا والتيارات النظرية فى علم الاجتماع مثل الفيبرية والماركسية والتفاعلية الرمزية، نستطيع أن نحصر النتائج العامة التى وصلنا إليها على النحو التالى:

١ - تعتبر الفينومينولوجيا امتداداً لبعض القضايا التى طورها ماكس فيبر، حيث أنه استطاع أن يبرز مجموعة من القضايا الهامة التى استفاد منها علماء الاجتماع الفينومينولوجيين مثل الاهتمام بالمعنى الذاتى لأفعال الأفراد، والابتعاد عن الخط الذى سارت فيه الوضعية والبحث عن منهج جديد خاص بالدراسات الإنسانية يتيح لنا فرصة الاعماد على الأفراد فى تفسير واقعهم الاجتماعى.

٢ – أن لكل من المدخل الفينومينولوجي والتحليل الماركسى يعتبر مصدراً أساسياً لنقد المداخل السوسيولوجية الكلاسيكية منها والمعاصرة، وكان من أهم الانتقادات التى وجهت إلى هذه المداخل السوسيولوجية أنها فشلت فى إضافة أى فهم جديد لطبيعة العالم الاجتماعى ولطبيعة العلاقة بين الإنسان والمجتمع، وفشلت أيضاً فى أن تضع فى حسبانها طبيعة المجتمع، ولذلك فمن الأسباب الهامة التى دعت إلى دمج كل من الفينومينولوجيا والماركسية هى عدم وفاء المداخل السوسيولوجية بالأغراض القائمة من أجلها وزيادة الاعتراف بفقر الفكر الماركسى الكلاسيكى وخصوصاً إهماله لنظرية الشعور، ولذلك فنحن بحاجة إلى إعادة التحليل الماركسى لنجعله أكثر ملائمة لعلم الاجتماع خصوصاً أننا يجب أن نؤكد على الطبيعة الجدلية للحقيقة الاجتماعية ونركز على أهمية التعريف الذاتى والفهم الذى يعتبر ذات أهمية فى تطوير الذاتية العقلانية فى المجتمع.

٣ – أن هناك تشابهاً كبيراً بين التفاعلية الرمزية والفينومينولوجيا ، فكلاهما انتقد المنهج الكمى فى علم الاجتماع، وكلا منهما يؤكد على الفهم وضرورة الاعتماد على الأفراد فى فهم الأشياء وتفسيرها اعتماداً على إحساسهم، كما أن كلا منهما يعتمد على الفاعل فى تفسير الموقف، أما أوجه الاختلاف بينهما فيتمثل فى أن التفاعلية الرمزية تؤكد على العاطفة بينما تؤكد الفينومينولوجيا على الخبرة بهذا العالم.



المراجع

المراجع

أولاً : مراجع باللغة العربية:

١ – إبراهيم حسن العيسوى، نحو خريطة طبقية لمصر، القاهرة، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٨٩ .

٢ – أحمد الخشاب وآخرين، دراسات فى علم الاجتماع والأنثربولوجيا، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٥ .

٣ – أحمد زايد، علم الاجتماع بين الإتجاهات الكلاسيكية والنقدية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١ .

٤ – أحمد زايد، البناء السياسى فى الريف المصرى، تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١ .

٥ – أحمد صقر عاشور، السلوك الإنسانى فى المنظمات ، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥ .

٦ – إسماعيل حسن عبد البارى ، بناء المجتمع ونظمه، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣ .

٧ – السيد محمد الحسينى، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم، القاهرة، دار المعغارف، ١٩٧١ .

٨ – ....، علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضايا، ط ٣ ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤ .

٩ – .... ، نحو نظرية اجتماعية نقدية، الطبعة الأولى، القاهرة، مطابع سجل العرب، ١٩٨٢ .

١٠ – السيد محمد بدوى، نظريات ومذاهب اجتماعية ، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٦٩ .

١١ – جيهان أحمد رشتى، الأسس العلمية لنظريات الإعلام، القاهرة، دار الفكر

العربى، ١٩٧٨.

١٢- حازم الببلاوى، على أبواب عصر جديد : علم المستقبل، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٣.

١٣- حسن شحاته سعفان، تاريخ الفكر الاجتماعى، القاهرة، دار التأليف، ١٩٥٧.

١٤- زيدان عبد الباقى، التفكير الاجتماعى : نشأته وتطوره، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦.

١٥- زيدان عبدالباقى، ركائز علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٤.

١٦- سمير نعيم أحمد، النظرية فى علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، ١٩٧٧

١٧- عبد الباسط محمد عبد المعطى، دراسات فى التكوين الاجتماعى والبنية الطبقية لمصر، القاهرة، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٨٠.

١٨- ....، الإتجاه السوفيتى : قراءة نقدية فى علم الاجتماع، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥.

١٩- ....، فى نظرية علم الاجتماع ، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٣.

٢٠- عبد الباسط عبد المعطى، عادل مختار الهوارى، فى النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦.

٢١- عبد الفتاح ابراهيم، الاجتماع والماركسية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٠.

٢٢- على عبد الرازق جلبى ، دراسات فى علم اجتماع الصناعة، الإسكندرية. دار الكتب الجامعية، ١٩٨١.

٢٣- على كامل ليلة، البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا :

المفاهيم والقضايا ، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢ .

٢٤- غريب سيد أحمد وآخرين، المدخل فى علم الاجتماع المعاصر، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٤ .

٢٥- غريب سيد أحمد، الطبقات الاجتماعية : النظرية والقياس، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٨٣ .

٢٦- ....، المدخل فى دراسة الجماعات الاجتماعية، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٥ .

٢٨- ....، من أعلام علم الاجتماع: كولى، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٣ .

٢٩ – كمال دسوقى، الاجتماع ودراسة المجتمع، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١ .

٣٠ – محمد عارف عثمان، الإتجاهات الفكرية المعاصرة فى علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١ .

٣١ – ....، المنهج فى علم الاجتماع، الجزء الأول: المنهج الكيفى والمنهج الكمى فى علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٢ .

٣٢ – محمد عاطف غيث، الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٧ .

٣٣ – ....، علم الاجتماع، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٨ .

٣٤ – .... وآخرين، مجالات علم الاجتماع المعاصر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٨٢ .

٣٥ – محمد على محمد، علم اجتماع التنظيم، الجزء الأول، الإسكندرية، دار

الكتب الجامعية، ١٩٧٢ .

٣٦ - محمد على محمد، تاريخ علم اجتماع: الرواد والإتجاهات المعاصرة، الجزء الأول، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤ .

٣٧ - ....، أصول الاجتماع السياسى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠ .

٣٨ - ....، أصول الاجتماع السياسى، القوة والدولة، الجزء الثانى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥ .

٣٩ - ....، علم الاجتماع والمنهج العلمى، الطبعة الثانية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١ .

٤٠ - ....، علياء شكرى، قراءات معاصرة فى علم الاجتماع، القاهرة، دار النشر المتحدة، ١٩٧٢ .

٤١ - .... وآخرين، ميادين علم الاجتماع، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٢ .

٤٢ - محمد الغريب عبد الكريم، إتجاهات فكيرة فى نظرية علم الاجتماع المعاصر، الطبعة الثالثة، الإسكندرية، المكتب الجامعى للحديث، ١٩٨٣ .

٤٣ - مكرم سعفان، مشكلة الانتحار، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤ .

أ : مراجع مترجمة:

٤٤ - (آلان) سوينجوود، تاريخ النظرية فى علم الاجتماع، ترجمة د. السيد عبد العاطى السيد، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦.

٤٥ - انجلز (اليكس)، مقدمة فى علم الاجتماع، ترجمة د. محمد على محمد وآخرين، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠ .

٤٦ - اندرسون (بيرى)، اليسار الجديد: نحو الإشتراكية، الطبعة الثالثة، ترجمة

د. عبد الكريم أحمد، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٥.

٤٧ - أوسيبوو (ج)، قضايا علم الاجتماع دراسة سوفيتية نقدية لعلم الاجتماع الرأسمالى، ترجمة سمير نعيم ؛ أحمد فرج، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠.

٤٨ - باركر (س) وآخرين، علم الاجتماع الصناعى، ترجمة د. محمد على محمد وآخرين، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٧٢.

٤٩ - بلاميناتز (جون) الأيديولويجية، ترجمة د. اسماعيل سعد، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠.

٥٠ - بلاميناتز (توم)، تمهيد فى علم الاجتماع، ترجمة د. محمد الجوهرى وآخرين، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٨.

٥١ - بوتومور (توم)، علم الاجتماع والنقد الاجتماعى، ترجمة وتعليق د. محمد الجوهرى وآخرين، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١.

٥٢ - بوتومور (توم)، نقد علم الاجتماع الماركسى، ترجمة د. محمد على محمد، د. على عبد الرازق جلبى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤.

٥٣ - بوتومور (توم)، علم الاجتماع: منظوراجتماعى نقدى، ترجمة د. عادل مختار الهوارى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥.

٥٤ - بوتومور (توم)، الصفوة والمجتمع، ترجمة د. محمد على محمد وآخرين، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٢.

٥٥ - بول بولانتزاس (نيكوس) السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية، ترجمة د. عادل غنيم، ط الكاملة، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٩.

٥٦ - تيماشيف (نيقولا)، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها، الطبعة

الأولى ترجمة د. محمد الجوهرى وآخرين، القاهرة، ١٩٧٢.

٥٧ - جورفيتش (جورج)، الطبقات الاجتماعية، ترجمة د. أحمد رضا، د. عز الدين فودة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.

٥٨ - روشيه (جى)، علم الاجتماع الأمريكى، دراسة الأعمال تالكوت، بارسونز، ترجمة د. محمد الجوهرى، د. أحمد زايد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١.

٥٩ - ركس (جون)، مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية، ترجمة وتقديم د. محمد الجوهرى وآخرين، ط١، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٧٣.

٦٠ - ريكمان (هـ. ب)، منهج جديد للدراسات الإنسانية، ترجمة د. محمد على محمد، بيروت، ١٩٧٢.

٦١ - سابارينا (إيلينا)، بين الإنسان والآلة: السيبرناطيقا فى داخلنا، ترجمة صبحى أبو السعود، القاهرة، دار الكتاب العربى، ١٩٦٨.

٦٢ - ڤينر (نوربرت)، السيبرنتيكا: أو التحكم والتوصل فى الآلة والحيوان، ترجمة د. رمسيس شحاته، د. استحق ابراهيم حنا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.

٦٣ - موسى (هاينز)، الفكر الاجتماعى: نظرة تاريخية عالمية، ط٢، ترجمة د. السيد الحسينى، د. جهينة سلطان عيسى، القاهرة، مطابع سجل العرب، ١٩٨١.

ب - قواميس ودوريات عربية:

٦٤ - إبراهيم مدكور وآخرين، معجم العلوم الاجتماعية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

٦٥ – محمد عاطف غيث وآخرين، قاموس علم الاجتماع، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩ .

٦٦ – المجلة الاجتماعية القومية، العدد الأول، القاهرة، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٦٧ .

٦٧ – عبدالباسط محمد عبدا لمعطي، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٤ ، الكوين ، المجلس الوطنى للثقافة للفنون والآداب، ١٩٨١ .

٦٨ – محمد مظفى الفولى ، السيبونية : فى الإنسان والمجتمع والتكنولوجيا، العدد ٢٧٥ ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١ .

٦٩ – محمد غيث وآخرين، قاموس علم الاجتماع، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩ .

٧٠ – مجلة عالم الفكر، العدد الرابع، المجلد الثانى، الكويت، ١٩٧٢ .

٧١ – مجلة عالم الفكر ، العدد الأول، المجلد الرابع، الكويت، ١٩٧٣ .

جـ - رسائل علمية :

٧٢ – أحمد سليمان أبو زيد، الإتجاه الراديكالى فى النظرية السوسيولوجية، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة الإسكندرية، مكتبة كلية الآداب، ١٩٨٣ .

٧٣ – حسين على حسين، دراسة سوسيومترية للتكامل الاجتماعى، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة الإسكندرية، مكتبة كلية الآداب، ١٩٧٧ .

٧٤ – زينب شاهين، الأسس العامة لاتجاه الواقعية المنهجية : مع دراسة لمفهوم الزواج والأمومة عند المرأة المصرية، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة القاهرة، مكتبة كلية الآداب، ١٩٨٢ .

٧٥ – سعد عيد مرسى بدر، الأيديولوجيا ونظرية التنظيم فى علم الاجتماع الغربى دراسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الإسكندرية، مكتبة كلية الآداب، ١٩٨٣.

٧٦ – نادية محمد عمر، الإتجاه الأثنوميثودولوجى فى علم الاجتماع، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الإسكندرية، مكتبة كلية الآداب، ١٩٨٣.

ثانياً : مراجع باللغة الأجنبية :

أ - كتب أجنبية :

78. Abercrombie, N. & John Ung, Capital Labour and Middle Classes. London, 1983.

79. Bailey John, Ided and Intervention Social Theory, London, 1978.

80. Bhatia, H. R., Elements of Social Psychology, Somaly A Publication Pultd, 1970.

81. Benson, Douglas & Hohn A. Hughes. Perspectives of Ethnomethodology, N. Y., Longman Inc., 1983.

82. Bernstein J. Richard, The Restructuring of Social and Political Theory, London, 1962.

83. Chadwick, J. K., Social Exchange Theory, London, Academic Press, 1976.

84. Calfax. J. David & Jackle roach, Radical Sociology, N. Y., Basic Book, 1971.

85. Cooley. C. H., Introduction to Human Group, U. S. A., Henry Holet & Company Inc., 1959.

86. Coser, Lewis A., Masters of Sociological Thought, 2nd., Edition, U. S. A., Harcourt Brace Jovanvich, 1977.

87. Goff W. Tom, Marx and Mead, Contribution to Ecoiology of Knowledge, London, 1980.

88. Cuff & Payne, Perspectives in Sociology, London, Georgallen & Unwin Ltd., 1979.

89. Deumphy, Dexter. (et. al.,) Primary Group, N. Y., Meredith Corporation, 1972.

90. Deutsch, Marton, The Resulution of Conflict, London, Yale University Press, 1973.

91. Dubin. Robert, Human Resolution, 3rd, Edition, U.S.A., Prentice Hall Inc., 1968.

92. Filmer, Paul, (et. al.,), New Direction in Socilogical Theory, Mass A Chusettes, The Mite Press Cambridge, 1973.

93. Freedman, Jonathan, Clinical Socilogy, N. Y., Longman Inc., 1970.

94. Goulnar, A., The Comming Crisis of Western Sociology, London, Heinman, 1970.

95. Guilband, G. T., What is Cyberenetics ? London, Heineman, 1961.

96. Gvishiani, D., Organization & Management : A Sociological Analysis of Western Theories, Moscow, Progress Publishers, 1972.

97. Habermas, Jurgen, Communication and Evolution of Society, London, Heinemann, 1979.

98. Harolambas, Michael & Roben Heald, Sociology Themes and Perspectives, London, University Tutorial Press, 1980.

99. Himes, Joseph S., The Study of Sociology, U.S.A., Scott Foresman & Company, 1968.

100. Homans. G. F. Social Behaviour his Elementafy Favour, London, Routledge & Kegan Paul, 1961,

101. Jocker. Crinne, Man, Memory and Machines, N. Y. Conic, 1964.

102. Kalb, William L., (et. al.;) , Sociological Analysis, U.S.A.; Carcourt & Comapny Inc., 1949.

103. Kirschenman, Peter, P., Information and Reflection, Drodrech - Holland, D. Reidet Publishing, 1970.

104. Lemert C. Charles, Sociology and Twilight of Man, London, 1929.

105. Levine. Donald Nathan, Simmel and Parsons : Two Approaches to The Study of Society, N. Y., Arno Press, Inc., 1980.

106. Lindsay, Jack. The Crisis in Marxism, New Jersey, Barnes & Noble Book, 1981.

107. Lothstein, Arthur, The Philosophy of The New Left, U.S.A., N. Y., Capricorn Book. 1971.

108. Lynd. Staughton. The New Left : Collection of Eassy. U.S.A., Poston Sergent, 1969.

109. Martindal. Don, The Nature and Types of Sociological Theories. London. Boston, 1960.

110. Meltzer, B. N., (et. al.), Symbolic Interactionsom : Gensis, Varieties and Criticism, London. Routledge & Kegan Paul, 1975.

111. Mckee, James B., Introduction to Sociology, U.S.A., N. Y., 1974.

112. M. . Charon Joel, Symbolic Interactionism : An Integration. An Interpretation. Englewood Cliffs, Prentic Hall Inc., 1979.

113. Mills T. The Sociology of Small Groups, Prentic Hall, New Jersy, 1967.

114. Mitchell, G., Duncan, Sociology, London, Routledge & Kegan Paul. 1970.

115. Napier. Rodney. W., Groups : theory and Experience, U.S.A., Houghten Miffline Company, 1973.

116. Natanson Mourice, Phenomenology and Social Sciences, N. Y., 1973.

117. Nisbet, Robert & T. Bottomore, Sociological Analysis, London. Heineman, 1978.

118. Pivgic Edo, Phenonemology and Philosophical Understanding, London, 1975.

119. Pekelis. V., Cybernetics A to Z., Moscow, Mer Publishers. 1974.

120. Pulantzas, Nicos, Classes in Contemporary Capitalism, London, Verso, 1978.

121. Reynobolds, Larry T., (et. al.), The Sociology of Scoiology, N. Y., David Mcky Company Inc.. 1970.

122. Ribben, G. F., Pattern of Behaviour, London, Edward Arnold, 1979.

123. Rose. Arnold M. & Caroline B. Rose, Sociology The Study of Human Rilation 3rd. Editior. N. Y., Altern A. Konpa, 1967.

124. Schwartz, Barry, N., Human Connection and New Media, New Jersy, Persy, Prentic Hall, 1973.

125. Schwartz, Howard & Jersy Jacobs, Qualitative Sociology, N. Y., A Division of Macmillan Publishing Co., Inc., 1979.

126. Sherief, Muzafer, Intergroup Relagtions and Leadership, N. Y., H. John, Wiely & Sonic Inc., 1962.

127. Smart Barry, Sociology, Phenomenology and Marxian Analysis . London, 1976.

128. Sternberg, David Joel, Radical Sociology, N. Y., Hicksville, 1977.

129. Stryker, Sheldon, Symbolic Interactionsim : A Social Structural Version, London, Benjamin & Comming, 1980.

130. Swingweood, Alan, A Short History of Sociological Thought, London, Benjamin & Comming, 1980.

131. Vickers, Georg R., The Formation of The New Left, U.S.A., D. G. Helath & Company, 1975.

132. Vold. Georg, B., Theoretical Criminology, 2nd Edition, N. Y.. Oxford University Press, 1980.

133. Wallace. Rutho A. & Alison Walf, contemporary Sociological Theory, U.S.A., N. Y., 1980.

134. Weaver, Richard L., (et. al.), Speech Communication. 2nd., Edition. N. Y., Dvan Nostr & Company, 1974.

135. 135. Weber, Max. Basic Conceptsim Sociology. London, 1972.

136. Wiener. Nerbert Cybernetics and Society, U.S.A., Avon Books, 1967.

137. Wilden, A., System and Structure : Essays in Communication and Exchange. 2nd Edition, U.S.A., Tovistock Publications, 1980.

138. Yinger, J. Milton, Ameinority Group in American Society, U.S.A., McGraw-Hill Inc., 1965.

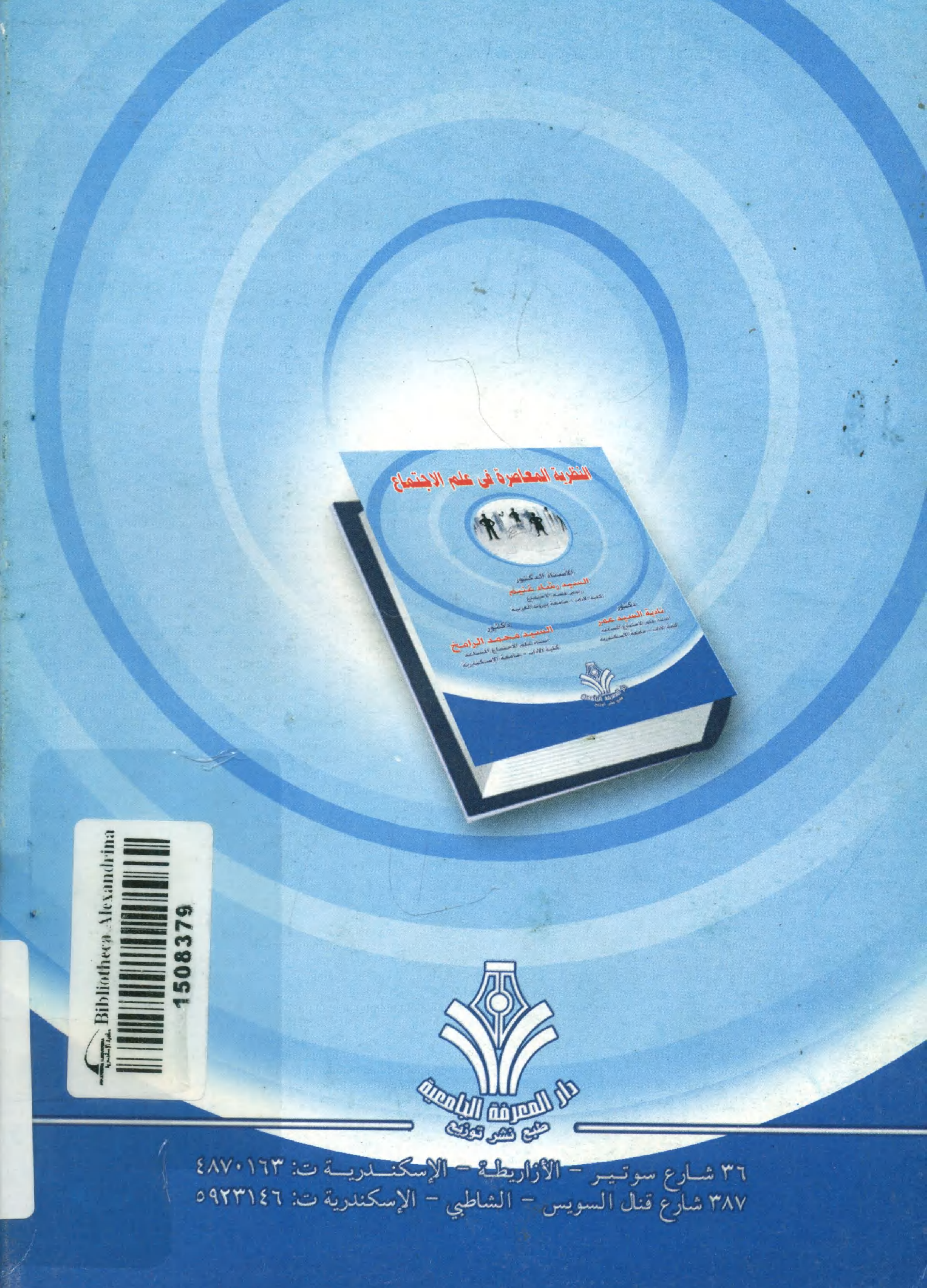
139. Zeitlin. Irving. M., The Social Condition of Humanity : An Introduction to Sociology, N. Y., Oxford University Pres, 1984.

ب - قواميس ومقالات من موسوعات:

140. Slercromlie. Nicholas, Letal, Dictionary of Sociology. N. Y., London, 1984.

141. Bales. Robert, "Interaction Process Analysis", in International Ecyclopedia of Social Sciences. David Sills (ed).. N. Y., The Macmillan Company, Vol. 7, 1968.

142. Deutsch. Marton, "Group Behaviour", in : International Encyclopedia of Social Sceinces, David Sills. (ed.), N. Y., The Macmillan Comapny, Vol. 6, 1968.



النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع
Bibliotheca Alexandrina
1508379
دار المعرفة الجامعية
طبع نشر توزيع
٣٦ شارع سوتير - الأزاريطة - الإسكندرية ت: ٤٨٧٠١٦٣
٣٨٧ شارع قنال السويس - الشاطبي - الإسكندرية ت: ٥٩٢٣١٤٦